قواعد العقائد

لحجة الإسلام الإمام الغزالي

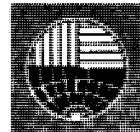
تحقيق وتعليق
موسى محمد علي

عالم الكتب

الطبعة الثانية
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

قواعد العقائد





بيروت - المزرعة بناية الايمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً : نابعلبكي - تلكس : ٢٣٣٩٠

﴿ربَّنا آتنا منْ لَدُنْكَ رحمةً وهيِّىءْ لَنا منْ أمرِنا رَشَداً﴾

تقـديم

الحمد لله الذي لا ينبغي الحمد إلا له ، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، خلق الخلق بقدرته ، وهدى لتوحيده من شاء ، كيفما شاء ، متى شاء ، بارادته ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه :

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ ﴾[1] .

سبحانه سبحانه ، تنزه عن الضد والشريك ، وتقدس عن المثيل والشبيه ، وتعالت عظمته عن الاحاطة والشمول ، لا تحده الحدود والجهات ، ولا تحصره الأسماء والصفات ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله ، وصفيه من خيرة خلقه وخليله ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في سبيله حق جهاده ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أولى الفهم والصدق والصواب ، صلاة وسلاما دائمين بدوام ملك الله العلي الكبير المتعال . . وبعد :

فإن من معالم الحق ، وصدق اليقين ، أن الإسلام بنى على خمس ، كما أخبرنا سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فيما أخرجه الإمام البخاري ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة الأنعام (٦) الآية (٥٧) .

« بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان [1] » .

وفيما أخرجه الامام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان [2] » .

وعلى ضؤ هذا الهدى النبوي الكريم تتضح معالم الحقيقة ، في شرح هذه القاعدة الجليلة الأولى ، وهى الشهادتان التي لا بد فيها من اعتقاد بالقلب ، ونطق باللسان .

وتفاصيل هذه القاعدة ، يأتي من جهة العقيدة على أنواع كثيرة :

منها : ما يعتقد وجوبه ،

ومنها : ما يعتقد استحالته ،

ومنها : ما يتحقق وجوده ،

ومنها : ما يتيقن وروده ،

أما ما يعتقد وجوبه : فهو أن تعتقد أن الله سبحانه وتعالى واحد غير منقسم في ذاته ، وأنه ليس معه ثان في إلاهيته ، وأنه حيي قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأنه إله كل شيء وخالقه ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه عالم بما ظهر وما بطن ، لا يعزب

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج١ ص ٥٥ .

(٢) صحيح مسلم شرح النووي ج١ ص ١٧٧ .

عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وأنه مريد لكل كائن من خير أو شر ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه سميع بصير ، متكلم بغير جارحة ولا آلة ، بل سمعه وبصره وكلامه صفات له ، لا تشبه صفاته الصفات ، كما لا تشبه ذاته الذوات ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . .

هذا ما يعتقد وجوبه ،

أما ما يعتقد استحالته ، فهو : أن تعتقد أنه تعالى يستحيل عليه الحدوث ، والعدم ، بل هو تعالى بصفاته وأسمائه ، قديم باق ، دائم الوجود ، قائم على كل نفس بما كسبت ، ليس له أول ولا آخر ، بل هو الأول والآخر ، وأنه لا إله سواه ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وأنه مستغن عن جميع خلقه ، غير محتاج الى ظهير في ملكه ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن في قضائه وأمره ، وأنه لا يحويه مكان في سمواته ولا أرضه ، بل هو كما كان قبل خلق المكان ، وأنه ليس بجوهر ولا جسم ، ولا على صورة ولا شكل ، ولا له شبيه ولا مثل ، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ،

وأنه لا تحله الحوادث والتغيرات ، ولا تلحقه النقائض والآفات ، وأنه لا يليق به الظلم ، بل قضاؤه كله حكمة وعدل ، وأنه ليس شيء من أفعال خليقته بغير قضائه وخلقه وارادته ، بل :

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾(١) .

﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾(٢) .

---

(١) آية (١١٥) سورة الأنعام (٦) .

(٢) آية (٩٣) سورة النحل (١٦) .

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[1] .

وأما بالنسبة لما يتحقق وجوده ، فهو : أن تعتقد أن الله تعالى أرسل لعباده أنبياءه ورسله ، وأنه أنزل عليهم آياته وكتبه ، وأنه ختم الرسالة بسيدنا محمد نبينا ورسولنا ﷺ، وأنه أنزل عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وأنه كلام ربنا ليس بمخلوق ولا [2] خالق ، وأنه عليه الصلاة والسلام فيما أخبر به صادق ، وأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع ، وأن الجنة والنار حقّ ، وأنهما موجودتان ، لأهل الشقاء والسعادة معدتان ، وأن الملائكة حق ، فهم حفظة يكتبون أعمال العباد ، ومنهم رسل الله إلى أنبيائه ، وملائكته غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

أما ما يتيقن وروده فهو : أن تعتقد أن الدنيا فانية ، وكل من عليها فان ، وأن الخلق يفتنون في قبورهم ، وينعمون ويعذبون ، وأن الله تعالى يحشرهم يوم القيامة كما بدأهم يعودون ، وأن الحساب حق ، والميزان حق ، وأن الصراط حق ، وأن الحوض حق ، وأن الأبرار في الجنة في نعيم ، والكفار في النار في جحيم ، وأن المؤمنين يرون الله عز وجل بأبصارهم في الآخرة ، وأن الله تعالى يعذب بالنار من يشاء من أهل الكبائر من المؤمنين ، ويغفر لمن يشاء ، ويخرجهم من النار إلى الجنة بفضل رحمته وشفاعة الأنبياء والصالحين من عباده ، حتى لا يتبقى في جهنم الا الكافرين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[3]

بهذه المعاني الجمة الصافية يتضح ، أن العقيدة الأساسية الصحيحة تقوم ـ أول ما تقوم ـ على التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى ، بحيث لا يقبل أي لون من ألوان

---

(١) آية (٢٣) سورة الأنبياء (٢١) .

(٢) لان كلام الله سبحانه باعتبار المعنى لا باعتبار اللفظ المنزل قديم بقدم الله تعالى فلا يكون مخلوقاً ، ولا يكون خالقاً أيضا لأنه صفة قائمة بذات الله تعالى .

(٣) آية (٤٨) سورة النساء (٤) .

الشرك أن يشوبه ، وبحيث ينفى نفياً باتاً شاملاً كل من عساه أو ما عساه أن يضع نفسه ، أو يضعه غيره بين المسلم وبين ربه .

فلا مكان في عقيدة الإسلام للأصنام ، من الناس ومن الجماد ، مهما كان الوضع الذي تتخذه ، ترفضها معبودات مستقلة ترجى وترهب لما لها من التأثير على حياة الناس ، ولا تقبلها شفعاء تتوسط للمتقرب بها عند الله سبحانه ، وتردها كذلك إذا ما اتخذت وسيلة من وسائل التقريب أو التمثيل أو الرمز .

فالله وحده هو الذي يتقرب إليه المسلم بعبادته وبخضوعه .

ومن الله وحده يستمد المسلم العون ويطلب الهداية .

هذا هو المعنى الذي يعنيه ، أو الذي يجب أن يعنيه ، المسلم كلما قرأ قول الله سبحانه :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(1)

على هذا الأساس المتين الواضح من صراحة التوحيد ، وخلوصه من شوائب الشرك ، تقوم صلة المسلم بربه في الاسلام ، وعلى هذا الأساس نفسه ـ فيما يقرر الاسلام ـ قامت دعوة الديانات السماوية قبله ، واليه دعا جميع الرسل والأنبياء أممهم منذ أن كانت الرسالة والنبوة .

والقرآن الكريم حريص جدا على أن يذكر المسلمين ، بأن ما شرعه الله تعالى لهم من الدين ، قد شرعه ، منذ الأزمنة البعيدة للأمم السابقة :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ : أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾(2) .

---

(1) آية (٥) سورة الفاتحة (١) .

(2) آية (١٣) سورة الشورى (٤٢) .

ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وانه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ، ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلاهك وإلاه آبائك إبراهيم واسماعيل واسحاق إلاهاً واحدا ونحن له مسلمون .

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِٱللهِ مِن شَيْءٍ ﴾[1]

والذين يختارهم الله لتبليغ أديانه إلى الناس وبيانها لهم ، وتطبيقها على حياتهم ، وهم الأنبياء والرسل ،هم أول من يؤمر بالإيمان بعقيدة التوحيد ،وتفهم حقيقتها :

﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2]

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُواْ ، وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾[3]

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَاهِلُونَ ، وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ، لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ، بَلِ ٱللهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ ﴾[4] .

---

(١) آية (٣٨) سورة يوسف (١٢) .

(٢) آية (١٤) سورة الأنعام (٦) .

(٣) آية (٣٦) سورة الرعد(١٣) .

(٤) آية (٦٤ ـ ٦٦) سورة الزمر (٣٩) .

حتى إذا ملكت هذه العقيدة عليهم سمعهم وأبصارهم ، وامتلأت بها قلوبهم وعقولهم ، ومثلت لهم واضحة بينة ، صدعوا بما أمروا به ، وقاموا يدعون الناس اليها :

﴿ مُبَشِّرِين وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

وعلى سنة الله هذه ، جرى سيدنا رسول الله ﷺ، فقضى ما شاء الله تعالى له أن يقضيه في تأملاته وخلواته ، يتبين معالم المهمة التي كانت عناية الله تهيؤه لأدائها ، وجب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، ووضحت له معالم هذه المهمة ، فنودي من قبل الله جل شأنه :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾[1] .

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلأَقْرَبِينَ ﴾[2] .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[3]

فصدع بالحق ، وجهر بالقول الذي ارتفع على كل الأقوال ، وبلغ الناس عن ربهم قوله :

﴿ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ ٱللَّهَ ، وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[4] .

---

(١) آية (١ ـ ٢) سورة المدثر (٧٤) .

(٢) آية (٢١٤) سورة الشعراء (٢٦) .

(٣) آية (٦٧) سورة المائدة (٥) .

(٤) آية (٦٤) سورة آل عمران (١٣) .

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾[1]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[2] .

فكان ما أمر به ، عليه الصلاة والسلام ، في نفسه ، وما أمر بتبليغه للناس صورة بلغت الغاية القصوى في صفاء التوحيد ونقائه ، والعبد به عن شوائب الشرك وعوارض التشبيه ، وفهم الألوهية وتقديرها حق قدرها ، وإنزالها منزلتها ، بعيدة عن البشرية وعوارضها .

وسيدنا رسول الله ﷺ ، حين انتدب لتبليغ رسالة الإسلام التى تحتل منها حقيقة التوحيد هذه المكانة ، قد حددت حقيقته ، وبشريته ، فالقرآن قد عنى في كل مناسبة بأن يزيل كل لبس أو اشتباه من شأنه أن يعلق بحقيقة الألوهية أو بحقيقة النبوة ، فيسيء الناس فهمها ، أو يسيئون فهم حقيقة التوحيد الذي هو أساس الإسلام .

ومن هنا كانت « بشرية » الرسول ﷺ موضوعا عنى القرآن ببيانه وتأكيده ، فرسول الاسلام ولد وعاش تحت أعين التاريخ وسمعه ، معروف الأب والأم والأسرة ، ومعروف الشرف والكرامة بين قومه ، وحياته ليست ظلالا يكتنفها الابهام ، ويخفى قسماتها الغموض ، بل هى تاريخ حقيقي واضح المعالم ، لا مجال فيه للخيال والتفسير والتأويل .

وقد حظيت حياته صلوات الله وسلامه عليه من المسلمين الأول بالعناية البالغة ، فدونوا دقائقها وتفاصيلها بصورة لم تحظ بها حياة نبي من الأنبياء قبله ، ولها ـ فوق هذه العناية ـ في قلوب المسلمين صور حية ، وذكريات ناضرة مشرقة ،

---

(١) آية (٣٦) سورة النساء (٤) .

(٢) آية (٤٨) سورة النساء (٤) .

تتفاوت درجاتها قوة وضعفا ، تبعا لحظ كل مسلم من تمثل رسول الاسلام ، ومبادىء الاسلام والائتمار بها .

وما يمضي على المسلم ، في أي بقعة من بقاع الأرض المسلمة ، يوم بليلته دون أن يسمع المؤذن خمس مرات في اليوم ، يذكره برسول الاسلام ، وبأكبر تعاليم الاسلام .

واختاره الله للرسالة ، وهي أثقال لا ينؤ بحملها الا ذوو القوة والعزم من صفوة البشر ، ومبادىء دعوته غريبة على الناس مخالفة لما تأصل في نفوسهم من عقائد وعادات وتقاليد ، وأغرب ما فيها أن مبلغها إليهم ، والداعي إليها : رجل معروف منهم ، بينهم نشأ وربي ، وابتغى سبل العيش مثلما ابتغاها غيره .

فكيف ، وهل مثل بقية الناس ، يكون رسولا مبلغا عن الله رسالته ؟

وهكذا أصبحت وساطته بشرا رسولا بين الله سبحانه ، وبين الناس موضوعا ، احتدم فيه الجدال وطال فيه النقاش .

وما كان للنبى الكريم ﷺ أن يلبس في أمره على الناس ، أو يتقول على الله الذي أرسله فيضفي على شخصيته لباسا غير لباس الرسالة ، فإنه نفسه الذي بلغنا عن الله هذا الوعيد القاسي الذي وجه اليه :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾[(١)] .

فما كان له ، عليه الصلاة والسلام ـ وقد عرف بين قومه قبل مبعثه بالأمين ـ إلا أن يقول في وضوح لا رمز فيه ولا التواء :

---

(١) آية (٤٤) ـ (٤٥) ـ (٤٦) سورة الحاقة (٦٩) .

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[1].

وضل الناس أيضا في فهم طبيعة رسالته ، وتصوروا مهمتها على غير حقيقتها ، فطلبوا منه - بناء على ما فهموا من مهمة النبوة - الخوارق للعادات ، والمعجزات التي ليست من صنع البشر - فصحح الوضع في فهم النبوة والرسالة في الاسلام ، أنها هداية الضمير الإنساني الواعي المدرك إلى الصراط المستقيم .

وقال : وما أجمل ما قال :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّي ، هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً ﴾[2]

هكذا كان فهمه لمهمته ، وعلى ضؤ هذا الفهم قدم نفسه للبشرية ، وهكذا أيضا كان يفهم مهمة الأنبياء والرسل قبله ، فهذا نوح عليه السلام قبله يقول لقومه :

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾[3].

وهؤلاء قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، قد طلبوا من رسلهم معجزة تؤيدهم في دعواهم ، وتسند أقوالهم فكان جوابهم أن قالت لهم رسلهم :

﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾[4].

وما كان لرسول الله ، ﷺ، أن يخرج عن صفات الرسل قبله .

---

(١) آية (١١٠) سورة الكهف (١٨) .

(٢) آية (٩٣) سورة الإسراء (١٧) .

(٣) سورة الأنعام (٦) آية ٥٠ .

(٤) سورة إبراهيم (١٤) آية ١١ .

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ .[1]

ولا أن يبتدع شيئا لم يأت به سلفه منهم :

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [2].

وهذا الفهم الواضح الدقيق لطبيعة الرسالة على أنها وساطة بين الحق والخلق ،لا تمنح الوسيط صفة تخرجه عن بشريته ، ولطبيعة الرسول على أنه إنسان اختير للرسالة فأوحى إليه من غير أن يفقد صفاته البشرية .

نقول : هذا الفهم ، قد فرضته طبيعة التوحيد في دين الإسلام ، فما لله ـ عز وجل ـ من قدرة عامة على المعجزات والخوارق ، وما له ـ سبحانه ـ من علم محيط شامل ينفذ الى المغيب المحجوب ، يجب ـ في منطق التوحيد الخالص ـ أن ينفرد به الله ، ولا يشركه فيه الانسان ، فهو ـ وحده ـ القادر على كل شيء ، وهو دون غيره ـ عالم السر والعلانية :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [3] .

﴿ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[4].

فيطلعه الله على ما شاء من غيبه بتعليمه إياه ، ووحيه إليه به .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ﴾[5].

---

(١) سورة النساء (٤) آية ١٦٣ .

(٢) سورة الأحقاف (٤٦) آية ٩ .

(٣) سورة الأنعام (٦) آية ٥٩ .

(٤) آية (٢٦ ـ ٢٧) سورة الجن (٧٢) .

(٥) آية (٤٩) سورة هود (١١) .

وفهم طبيعة الرسالة والرسل على هذا النحو من الوساطة ، يسلمنا الى الحديث عن التوحيد الذي تقرره القاعدة الأولى التي نحن بصدد الحديث عنها وهي :

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

والذي سمى دين الاسلام من أجلها توحيدا ، لأن مبناه على أن الله تعالى واحد في ملكه وأفعاله ، لا شريك له ، وواحد في ذاته وصفاته لانظير له ، وواحد في الهيته وعبادته لا ند له .

والى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاؤ وا به من عند الله سبحانه ، وهى متلازمة ، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر ، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر ، فما ذاك إلا لأنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب .

والتوحيد : الذي تقرره وقررته القاعدة الأولى وهي : أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله نوعان :

توحيد في المعرفة والاثبات : وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات .

وتوحيد في الطلب والمقصد : وهو توحيد الالهية والعبادة .

والنوع الاول : توحيد الربوبية والملك ، وهو الاقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه ، وخالقه ورازقه ، وأنه المحيي المميت ، النافع الضار ، المتفرد باجابة الدعاء عند الاضطرار ، الذي له الأمر كله ، وبيده الخير كله ، القادر على ما يشاء ، ليس له في ذلك شريك ، ويدخل في ذلك الايمان بالقدر .

وهذا التوحيد لا يكفى العبد في حصول الاسلام ، بل لابد أن يأتى مع ذلك

بلازمه من توحيد الالهية ، لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده : قال تعالى :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ، أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ، وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ، وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[1]

وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا ، لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[4]

فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ، ولم يكونوا بذلك مسلمين ، بل قال تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[5] .

يقول مجاهد رضي الله عنه في معنى الآية :

« ايمانهم بالله قولهم : إنَّ الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا ، فهذا إيمان مع شرك

(١) سورة يونس (١٠) آية (٣١) .

(٢ سورة الزخرف (٤٣) آية (٨٧) .

(٣) سورة العنكبوت (٢٩) آية (٦٣) .

(٤) سورة النمل (٢٧) آية (٦٢) .

(٥) سورة يوسف (١٢) آية (١٠٦) .

عبادتهم غيره فتبين أن الكفار يعرفون الله تعالى ويعرفون ربوبيته ، وملكه وقهره ، وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعا من العبادات ، كالحج ، والصدقة ، والدعاء ، وقت الاضطرار ونحو ذلك ، ويدعون أنهم على ملة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فأنزل الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَـكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1] .

فكان بعضهم يؤمن بالبعث والحساب ، وبعضهم يؤمن بالقدر ، ومثل هذا كان يوجد في عقائدهم .

فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم ، ويسبي نسائهم ، وإباحة أموالهم ، مع هذا الإقرار والمعرفة ، وما ذاك إلا لاشراكهم في توحيد العبادة الذي هو معنى : « لا إله إلا الله » .

النوع الثاني : توحيد الأسماء والصفات ، وهو الاقرار بأن الله تعالى بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه الحي القيوم ، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، له المشيئة النافذة ، والحكمة البالغة ، وأنه سميع بصير ، رؤوف رحيم ، على العرش استوى ، وعلى الملك احتوى ، وأنه الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . . . . . إلى غير ذلك من الاسماء الحسنى ، والصفات العلى .

وهذا أيضا لا يكفى في حصول الاسلام ، بل لابد مع ذلك من الاتيان

---

(١) سورة آل عمران (٣) : (٦٧) .

بلازمه ، من توحيد الربوبية والالهية ، والكفار يقرون بجنس هذا النوع ، وان كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك ، جهلا وعنادا ، كما قالوا :

« لا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة ، فأنزل الله إليهم :﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـٰنِ ﴾[1].

ويعلق الامام الحافظ ابن كثير فيقول :

« والظاهر أن انكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم » .

« ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد ، إلا في اسم الرحمن خاصة ، ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي ﷺ، ذلك ، كما ردوا عليه توحيد الالهية ، فقالوا : «إجعل الآلهة إلـها واحدا ، إنّ هذا لشيء عجاب » .

« لا سيما السورة المكية مملؤة بهذا التوحيد »أهـ

وتوحيد الالهية مبنى على إخلاص التأله لله تعالى من المحبة ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والرغبة ، والرهبة ، والدعاء لله وحده .

وينبني على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له ، لا يجعل فيها شيئا لغيره ، لا لملك مقرب ، ولا لنبي مرسل ، فضلا عن غيرهما .

وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

---

(١) سورة الرعد (١٣) آية (٣٠) .

(٢) سورة الفاتحة (١) آية (٥) .

(٣) سورة هود (١١) آية (١٢٣) .

وقوله سبحانه : ﴿ فَإِن تَوَلَّوا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لآ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ رَّبُّ السَّمَـٰوَاتِ والأَرضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطِبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[2].

وقوله سبحانه : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [3]

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّل عَلَى ٱلحَيِّ ٱلَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّح بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبيراً ﴾[4]

وقوله سبحانه : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ اليَقِيْنُ ﴾[5]

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره ، وباطنه وظاهره ، وهو أول دعوة الرسل و آخرها ، وهو معنى قول :

لا إله إلا الله فإن إلاله هو المألوه المعبود بالمحبة ، والخشية ، والاجلال والتعظيم ، وجميع أنواع العبادة ، ولأجل هذا التوحيد ، خلقت الخليقة ، وأرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، وبه افترق الناس إلى مؤمنين ، وكفار ، وسعداء أهل الجنة ، وأشقياء أهل النار ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[6] .

---

(١) سورة التوبة (٩) آية (١٢٩) .

(٢) سورة مريم (١٩) آية (٦٥) .

(٣) سورة هود (١١) آية (٨٨) .

(٤) سورة الفرقان (٢٥) آية (٥٨) .

(٥) سورة الحجر (١٥) آية (٩٩) .

(٦) سورة البقرة (٢) آية (٢١) .

فهذا أول أمر في القرآن الكريم .

وقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[1] .

فهذا دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك .

وقال هود لقومه : ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[2] .

وقال صالح لقومه : ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[3] .

وقال شعيب لقومه : ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[4] .

وقال ابراهيم عليه السلام لقومه :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ حَنيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرسَلْنَا مَن قَبْلِكَ مَن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لآ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[7] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[8] .

---

(١) سورة المؤمنون (٢٣) آية : (٢٣) .

(٢) سورة الأعراف (٧) آية (٦٥) .

(٣) سورة هود (١١) آية (٦١) .

(٤) سورة الأعراف (٧) آية (٨٥) .

(٥) سورة الأنعام (٦) آية (٧٩) .

(٦) سورة الأنبياء (٢١) آية (٢٥) .

(٧) سورة الزخرف (٤٣) آية (٤٥) .

(٨) سورة الذاريات (٥١) آية (٥٦) .

وقال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن النبى ﷺ ما يقول لكم ؟

قال يقول : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم .

وقال النبى ﷺ لمعاذ رضي الله عنه :

« انك تأتى قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم اليه : شهادة أن لا إلـه إلا الله »

وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف ، لا النظر ، ولا القصد إلى النظر ، ولا الشك في الله ، كما هى أقوال لمن لم يدر لما بعث الله به رسوله ﷺ، من معاني الكتاب والحكمة .

فهو أول واجب ، وآخر واجب ، وأول ما يدخل به الإسلام و آخر ما يخرج به من الدنيا ، وقد أفصح القرآن الكريم ، عن هذا النوع كل الافصاح ، وبدأ فيه وأعاد ، وضرب لذلك الأمثال ، بحيث أن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد ، ويسمى هذا النوع :

توحيد الالهية ، لأنه مبنى على إخلاص التأله ، وهو أشد المحبة لله وحده ، وذلك يستلزم إخلاص العبادة .

وتوحيد العبادة لذلك .

وتوحيد الارادة ، لأنه مبنى على إرادة وجه الله بالأعمال الصالحة .

وتوحيد القصد ، لأنه مبنى على اخلاص القصد المستلزم لاخلاص العبادة لله وحده .

وتوحيد العمل ، لأنه مبنى على اخلاص العمل لله تعالى وحده .

قال الله تعالى : ﴿فَاعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[1]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ ٱلدِّينَ، وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ، فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾[3] .

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَاهِلُونَ، وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ، بَلِ ٱللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ﴾[4].

فكل هذه الآيات في الدعاء إلى هذا التوحيد ، والأمر به ، والجواب عن الشبهات والمعارضات ، وذكر ما أعد الله لأهله من النعيم المقيم ، وما أعد لمن خالفه من العذاب الأليم .

وكل سورة في القرآن الكريم ، بل وكل آية في القرآن ، فهى داعية الى هذا التوحيد ، شاهدة به ، متضمنة له ، لأن القرآن الكريم ، إما خبر عن الله تعالى وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وهو توحيد الربوبية ، وتوحيد الصفات ، فذاك مستلزم لهذا متضمن له .

واما دعاء الى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع ما يعبد من دونه أو أمر

---

(١) سورة الزمر (٣٩) آية (٢) .

(٢) سورة الزمر (٣٩) آية (١١ ـ ١٢) .

(٣) سورة الزمر (٣٩) آية (١٤ ـ ١٥) .

(٤) سورة الزمر (٣٩) آية (٦٤ ـ ٦٦) .

بأنواع من العبادات ، ونهى عن المخالفات ، فهذا هو توحيد الالهية والعبادة وهو مستلزم للنوعين الأولين ، متضمن لها أيضا .

واما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته ، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده .

وأما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا ، من النكال ، وما يحل بهم في العقبى من الوبال ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

وهذا التوحيد : هو حقيقة دين الاسلام المرضى ، والذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه ، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم :

« بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » .

فقد أخبر صلوات الله وسلامة عليه ، أن دين الاسلام مبنى على هذه الأركان الخمسة ، وهى الأعمال ، فدل ذلك على أن الاسلام :

هو عبادة الله وحده لا شريك له ، بفعل المأمور ، وترك المحظور ، والاخلاص في ذلك كله لله عز وجل ، ألا لله الدين الخالص . .

ذلك : أن الاسلام جعل عنوان تحقق هذه العقائد عند الانسان : الشهادة بأن الله تعالى واحد لا شريك له ، وأن سيدنا محمدا عبدالله ورسوله :

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وكانت تلك الشهادة هي المفتاح الذي يدخل به الإنسان في الإسلام ،

وتجرى عليه أحكامه . فالشهادة بوحدانية الله سبحانه تتضمن كمال العقيدة في الله من جهتى الربوبية « الخلق والتربية » والالوهية العبادة .

والشهادة برسالة سيدنا محمد ﷺ تتضمن التصديق بكمال العقيدة في الملائكة ، والكتب ، والرسل واليوم الآخر ، وأصول الشريعة والأحكام :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله »

فمن لم يؤمن بوجود الله سبحانه ، أو لم يؤمن بوحدانيته تعالى ، وتنزهه عن المشابهة ، والحلول والاتحاد ، أو لم يؤمن بتفرده بتدبير الكون والتصرف فيه ، واستحقاق العبادة والتقديس ، واستباح عبادة مخلوق ما من المخلوقات ، أو لم يؤمن بأن لله رسالات إلى خلقه ، بعث بها رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وأنزل عليهم كتبه عن طريق ملائكته ، أو لم يؤمن بما تضمنته الكتب من الرسل ، أو فرق بين الرسل الذين قص علينا ، فآمن بالبعض وكفر بالبعض ، أو لم يؤمن بأن الحياة الدنيا تفنى ويعقبها دار أخرى هي دار الجزاء ، ودار الاقامة الأبدية ، بل اعتقد أن الحياة الدنيا حياة دائمة لا تنقطع ، أو اعتقد أنها تفنى فناء دائما لا بعث بعده ، ولا حساب ولا جزاء ، أو لم يؤمن بأن أصول شرع الله تعالى فيما حرم ، وفيما أوجب ، هى دينه القويم الذي يجب أن يتبع ، فحرم من تلقاء نفسه ما رأى تحريمه ، وأوجب من تلقاء نفسه ما رأى وجوبه .

من لم يؤمن بجانب من هذه الحقائق لا يكون مسلما ، ولا تجرى عليه أحكام المسلمين . وعليه فما أحدثه المتكلمون من تفسير وسؤال وتوجيه اشكال ، ثم اشتغالهم بحل ذلك كله ، فهو بدعة ، وضرره في حق عموم

الخلق ظاهر ، فهذا الذي ينبغى أن يتوقى ، والدليل على تضرر الخلق به المشاهدة والتجربة ، وما أثار من الفتن بين الخلق منذ نبغ المتكلمون ، وفشا صناعة الكلام مع سلامة العصر الأول من مثل ذلك .

ودليله : أنهم ما خاضوا في ذلك ، ولا سلكـوا مسلك المتكلمين في تقسيماتهم ، وتدقيقاتهم ، لا لعجز منهم عن ذلك ، ولو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه ، وخاضوا في تحرير الأدلة خوضا يزيد على خوضهم في مسائل الفرائض ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ولن يحصل .

هذا بالنسبة لما أحدثه المتكلمون .

أما بالنسبة لأهل الاعتقاد فإن للإمام الغزالي رضي الله عنه كلام نفيس يقول فيه :

« أن أهل الاعتقاد المجرد تحصينه بالعلم وتوثيقه بالأدلة ، ينقسمون من وجه على ثلاث حالات :

الأولى : أن يعتقد أحدهم جميع أركان الإيمان على ما يكمل عليه في الغالب ، لكنه على طريق التقليد .

الثانية : أن لا يعتقد إلا بعض الأركان مما فيه خلاف ، إذا انفرد ولم ينصف إليه في اعتقاده سواه ، هل يكون به مؤمناً أو مسلما ، مثل أن يعتقد وجود الواحد فقط ، أو يعتقد أنه موجود حيى لاغير ، وأمثال هذه التقريرات ، ويخلو عن اعتقاد باقي المصنفات خلوا كاملا لا يعتقد فيها حقا ولا باطلا .

الثالثة : أن يعتقد الوجود كما قلناه ، أو الوجود والوحدانية ، والحياة ،

وفي باقي المصنفات على ما لا يوافق الحق بما هو بدعة أو ضلالة ، وليس بكفر صراح .

والذي يدل عليه العلم ، ويستنبط من ظواهر الشرع ، أن أرباب الحالة الأولى على سبيل نجاة ، ووصف ايمان واسلام ، وأما أهل الحالة الثانية : فالمتقدمون من السلف لم يشتهر عنهم في صورة هذه المسألة ، يخرج صاحب العقيدة عن حكم الإيمان والإسلام .

والمتأخرون مختلفون ، وكثير خاف أن يخرج من اعتقاد وجود الله تعالى ، واظهار الاقرار به ونبيه ﷺ من الاسلام ، ولا يبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرعيات ، وضعفاء النساء والاتباع ، هذا عقده بلا مزيد عليه .

ولو سئلوا واستكشفوا عن الله عز وجل ، هل له ارادة ، أو كلام ، أو بقاء ، أو ما شاكل ذلك ؟ وهل له صفات معنوية ليست هى هو ، ولا هى غيره ، ربما وجدوا ويجهلون ذلك ولا يعقلون وجه ما يخاطبون به ، وكيف يخرج من اعتقد وجود الله تعالى ، ووحدانيته تعالى ، مع الاقرار بالنبوة من حكم الإسلام ، والنبى ﷺ ، قد رفع القتال والقتل عنهم ، فأوجب حكم الإيمان والاسلام لمن قال : لا إله إلا الله ، وعقد عليها ، وهذه الكلمة لا تقتضى أكثر من اعتقاد الوجود والوحدة في الظاهر ، وعلى البديهة من غير نظر .

ثم سمعنا عمن قالها في صدر الاسلام ولم يعلم بعدها إلافرائض الوضوء والصلاة ، أو هو باق ببقاء ، أو بنفسه ، وأشباه هذه المعارف .

ولا يدفع ظهور هذا الا معاند أو جاهل بسيرة السلف ، وما جرى بينهم ، ويدل على قوة هذا الجانب في الشرع أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه وأبى أن يذعن الى تعلم ما زاد على ما عنده ، لم يفت أحد

بقتله ولا باسترقاقه ، والحكم عليه بالخلود في النار عسير جدا ، وخطر عظيم ، مع ثبوت الشرع ، بأن من قال : « لا إلـه إلا الله دخل الجنة » .

أما المقربون فهم أرباب المقام الثالث في التوحيد ، وهؤلاء رأوا علامة الحدوث في المخلوقات لائحة ، وعاينوا حالات الافتقار الى الله عز وجل واضحة ، وسمعوا جميعها ، تدل على التوحيد راشدة ناصحة ، ثم رأوا الله عز وجل بإيمان قلوبهم ، وشاهدوه بغيب أرواحهم ، ولاحظوا جلاله وجماله بخفى أسرارهم ، وهم مع ذلك في درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم في اليقين ، وصفاء القلب .

وأما الصديقون : فهم أهل المرتبة الرابعة في التوحيد ، وهؤلاء رأوا الله عز وجل ، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك فلم يروا في الدارين غيره ، ولا اطلعوا في الوجود على سواه .

والمريدون في الغالب لابد لهم أن يحلوا في المرتبة الثالثة ، وهى توحيد المقربين ، ومنها ينتقلون وعليها يعبرون الى المرتبة الرابعة .

وأما المرادون : فهم في الغالب مبتدئون بمقامهم الأخير ، وهى المرتبة الرابعة ، ومتمكنون فيها .

أما العوام فلا ينبغي أن يلقنوا بأكثر مما ذكر في العقيدة المختصرة ، فإن فيها مقنعا لهم وزجرا عن الوقوع فيما يضرهم ، وفي معنى العوام أيضا كل من لا يوصف بهذه الصفات ، وهي التجرد لطلب المعرفة والاستعداد لها ، والخلو عن الميل الى الدنيا والشهوات والتعصبات للمذاهب ، وطلب المباهاة بالمعارف والتظاهر بذكرها مع العوام ومن في معناهم .

فالحق الصريح الذي لامراء فيه عند أهل البصائر ، أن عوام الخلق يجب عليهم في معتقدهم أمور وهي :

التقديس ، ثم التصديق ، ثم الاعتراف بالعجز ، ثم السكوت ، ثم الكف ، ثم الإمساك ، ثم التسليم لأهل المعرفة والبصائر .

أما التقديس : فالمراد به ، تنزيه الله تعالى عن الجسمية وتوابعها .

وأما التصديق : فهو الايمان بما قاله سيدنا رسول الله ﷺ، وأن ما ذكره حق ، وهو فيما قاله صادق ، وأنه حق على الوجه الذي قاله وأراده .

وأما الاعتراف بالعجز ، فهو أن يقر بأن معرفة مراده ليس على قدر طاقته ، وأن ذلك ليس من شأنه ، ولا من حرفته .

وأما السكوت : فإنه لا يسأل عن معناه ، ولا يخوض فيه ، ويعلم أنه سؤاله عنه بدعة ، وأنه في خوضه فيه مخاطر بدينة ، وأنه يوشك أن يلحد ان خاض فيه حيث لا يشعر .

وأما الامساك : فهو أن لا يتصرف في تلك الألفاظ الواردة بالتصريف والتبديل بلغة أخرى ، والزيادة فيه ، والنقصان منه ، والجمع والتفريق ، بل لا ينطق الا بذلك اللفظ .

وأما الكف فعليه أن يكف باطنه عن البحث عنه والتفكر والتصرف فيه .

وأما التسليم لأهله : فعليه أن يعتقد أن ذلك وان خفى عليه لعجزه فقد لا يخفى على الرسول ﷺ، أو على الأنبياء ، أو على الصديقين ، والأولياء .

هذه وظائف هامة اعتقد كافة أهل البصائر وجوبها على كل العوام وعلى

من في معناهم . ولكن قد يقال : إن العامي إذا منح من البحث والنظر ولم يعرف الدليل كان جاهلاً بالمدلول ، والله تبارك وتعالى أمر الناس جميعا بمعرفته ، بالايمان به ، والتصديق بوجوده أولا ، وبتقديسه عن سمات الحوادث ومشابهة غيره ثانيا ، وبوحدانيته سبحانه وتعالى ثالثا ، وبصفاته من العلم والقدرة ونفوذ المشيئة وغيرها رابعا .

وهذه أمور علمية مطلوبة ، وكل علم مطلوب ولا سبيل الى اقتناصه وتحصيله إلا بالادلة ، فلا بد اذن من النظر في الأدلة والتفطن لوجه دلالتها على المطلوب ، وكيفية انتاجها له ، وذلك لا يتم إلا بمعرفة شروط البراهين ، وكيفية ترتيب المقدمات ، واستنتاج النتائج ، وذلك يستجر بالضرورة شيئا فشيئا ، إلى تمام البحث واستيفاء علم الكلام إلى آخر النظر في علم المعقولات .

وليس هذا فحسب ، بل إنه يجب كذلك على العامي أن يصدق الرسول ﷺ في كل ما جاء به ، وهو بشر كسائر الخلق ، فلابد من دليل يميزه عن غيره ، من تحدى بالنبوة كاذبا ، ولا يمكن رد ذلك إلا بالنظر في معجزاته ومعرفة حقيقة المعجزة ، وشروطها إلى آخر النظر في النبوات وهو بعينه نظر في علم الكلام ؟ .

والجواب عن ذلك كله : أن الواجب على الخلق ، الإيمان بهذه الأمور ، والإيمان عبارة عن تصديق جازم لا تردد فيه ، ولا يشعر صاحبه بجواز وقوع الخطأ فيه ، وهذا التصديق يحصل على مراتب :

الاولى : وهو أقصاها ، ما يحصل بالبرهان المستقصى المستوفي بشروطه ، المحرر بأصوله ومقدماته درجة درجة ، كلمة كلمة ، حتى لا يبقى مجال احتمال وممكن التباس ، وذلك هو الغاية القصوى ، وربما يتفق في كل عصر واحد

واثنان ممن ينتهي إلى تلك الدرجة ، وقد يخلو العصر عنه ، ولو كانت النجاة مقصورة على مثل تلك المعارف ، لقلّت النجاة ، وقلّ الناجون .

الثانية : أن يحصل بالأدلة الرسمية الكلامية المبنية على أمور مسلمة مصدق بها ، لاشتهارها بين أكابر العلماء ، وشفاعة إنكارها ، ونفرة النفوس عن إبداء المزيد فيها ، وهذا الجنس أيضا يفيد في بعض الأمور ، وفي حق الناس ، تصديقا جازما بحيث لا يتغير صاحبه بإمكان خلافه أصلا .

الثالثة : أن يحصل التصديق بالأدلة الخطابية التي جرت العادة باستعمالها في المحاورة ، والمخاطبات الجارية في العادات ، وذلك يفيد في حق الأكثرين تصديقا ببادىء الرأى ، وسابق الفهم ، إذ لم يكن الباطل مشحونا بالتعصب ، وبرسوخ اعتقاد ، على خلاف مقتضى الدليل ، ولم يكن المستمع مشغوفا بتكلف المماراة والتشكيك ، ومنهاجه بجدال المجادلين في العقائد ، وأكثر أدلة القرآن من هذا الجنس ، من الدليل الظاهر المفيد للتصديق ، والدليل المستوفي هو الذي يفيد التصديق بعد تمام الأسئلة وجوابها ، بحيث لا يبقى للسؤال مجال ، والتصديق يحصل قبل ذلك .

الرابعة : التصديق بوجود السماع ممن حسن فيه الاعتقادة بسبب كثرة ثناء الخلق ، فإن من حَسُنَ اعتقاده في أبيه وأستاذه ، أو حسن اعتقاده في رجل من الأفاضل المشهورين ، قد يخبر عن شيء ، فيسبق إليه اعتقاد جازم ، وتصديق بما أخبر عنه ، بحيث لا يبقى مجال لغيره في قلبه ، ومستنده حسن اعتقاده فيه وكذلك اعتقاد الصبيان في آبائهم ومعلمهم فلا غرابة يسمعون الاعتقادات ويصدقونه ويستمرون عليه من غير حاجة إلى دليل ومناقشة .

الخامسة : التصديق الذي يسبق إليه عند سماع الشيء مع قرائن الأحوال لا

يفيد القطع عند المحقق ، ولكن يلقى في حق العوام اعتقادا جازما .

السادسة : أن يسمع القول فيناسب طبعه أخلاقه فيبادر إلى التصديق بمجرد موافقته لطبعه ، الا من حسن اعتقاد في قائله ، ولا من قرينة تشهد له ، لكن لمناسبة ما في طبعه ، وهذه أضعف التصديقات ، وأدنى الدرجات ، لأن ما قبله استند إلى دليل ما ، وإن كان ضعيفا من قرينة ، أو حسن اعتقاد في المخبر ، فأي نوع من ذلك فهي أمارات يظنها العامي أدلة ، فتعمل في حقه عمل الأدلة القطعية .

واذا علم مراتب التصديق ، وعلم أن مستند إيمان العوام هذه الأسباب ، فأعلى الدرجات في حقه أدلة القرآن الكريم ، وما يجري مجراه ، مما يحول القلب إلى التصديق ، فلا ينبغى أن يجاوز بالعامي إلى ما وراء أدلة القرآن ، وما في معناه من الجليات المقنعة المسكنة للقلوب ، المستجرة لها إلى الطمأنينة والتصديق ، فما وراء ذلك ليس على قدر طاقته .

ولهذا نهى الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه المسلمين ، ونهى كذلك كافة أهل السلف ، عن الخوض في علم الكلام ، والتجرد منه ، لما فيه من الضرر الذي نبهنا عليه ، وكانت أقوالهم في النهي عن ذلك محمولة على نهي المتعصب في الدين ، أو القاصر عن تحصيل اليقين ، أو القاصد إفساد عقائد المسلمين ، أو الخائض فيما لا يفتقر إليه من غوامض المتفلسفين ، وإلا فلا يتصور من شريف تلك الحضرات ، وقوع المنع فيما هو أصل الواجبات ، وأساس المشروعات .

والسبب الباعث لهذا كله هو : حفظ عقيدة أهل السنة والجماعة ، وحراستها مما يتوقع أن يحدق بها من تشويش أهل البدع ، فقد ألقى الله

تعالى ، إلى عباده على لسان رسوله ﷺ، عقيدة هى الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمقدماته القرآن الكريم ، والأخبار الصحيحة الصادقة من السنة النبوية الشريفة .

وخلاصة الحاصل المقصود من مجمل القول في مقدمتنا هذه التي أشرنا فيها الى ما تضمنته هذه القاعدة الجليلة :

« أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله » من جهة العقيدة ، أن كلمتي الشهادة هي :

لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ﷺ، هي أحد مباني الإسلام ، إشارة إلى الحديث السابق : «بني الإسلام على خمس . . . الخ » .

فالحديث ذكر « شهادة أن لا إلـه إلا الله، وأن محمد رسول الله » ، مقتصرا على هاتين الكلمتين ، لاشتمالهما على جميع مسائل التوحيد[١] .

وتفصيل ذلك أن معنى : لا إلـه إلا الله، لا مستغنى عن كل ما سواه ، ومفتقر إليه كل ما عداه إلا الله .

ومعنى الألوهية : استغناء الاله عن كل ماسواه ، وافتقار كل ما عداه إليه ، فدخل تحت الاستغناء ثمانية وعشرون عقيدة :

الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس ، ووجوب السمع له ، والبصر والكلام ، ولوازمها وهي :

يكونه سميعاً بصيراً ، متكلما ، وتنزهه عن الغرض في أفعاله وأحكامه ،

(١) كما أشار إليه السنوسي وغيره .

وعن وجوب شيء عليه فعلا ونزكا ، وعن كون شيء من الممكنات يؤثر بقوة أودعها الله فيه ، وأضدادها ، فجملتها ثمانية وعشرون عقيدة .

ودخل تحت الإفتقار : اثنان وعشرون عقيدة :

الحياة وعموم القدرة ، والارادة ، والعلم ، ولوازمها ، وهي :

كونه : حيا ، وقادرا ، ومريدا ، وعالما ، والوحدانية ، وحدوث العالم بأسره ، وأن لا تأثير لشيء من الكائنات في أثر ما بالطبع ، وأضدادها ، فجملتها اثنان وعشرون عقيدة .

ودخل تحت قولنا : محمد رسول الله ، اثنتا عشرة عقيدة :

وجوب الصدق للرسل والأنبياء ، والأمانة ، والتبليغ ، وأضدادها ، والإيمان بسائر الأنبياء ، والملائكة ، والكتب السماوية ، واليوم الآخر ، وجواز وقوع الأعراض البشرية عليهم ، وعدم وقوعها :

فقد ظهر لك أن قولنا : « لا إلـه إلا الله ، محمد رسول الله » تتضمن اثنين وستين عقيدة ، منها خمسون عقيدة تحت « لا إلـه إلا الله » واثنتا عشرة عقيدة تحت « محمد رسول الله » .

وبعد : فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فيما أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم ، في صحيحيهما :

كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لى : **« يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله»** فقلت : الله ورسوله أعلم .

قال : **«حق الله على العباد ، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله ، أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا»** .

فقلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال : « **لا تبشرهم فيتكلوا** » .

وفي قوله ﷺ : « **أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا** » الزام للعباد بأن يوحدوه بالعبادة وحده ولا يشركوا به شيئا .

وفائدة هذه الجملة : بيان بأن التجرد من الشرك لابد منه في العبادة ، وإلا فلا يكون العبد آتيا بعبادة الله تعالى ، بل مشرك في عبادته ، وهذا هو معنى قول من قال : إن العبادة هي التوحيد ، لأن الخصومة فيه ، وفيه معرفة حق الله على العباد ، وهو عبادته وحده لا شريك له سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَاۤ أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَآبِ** ﴾[1] .

وهذه الآية الكريمة هي معنى : لا إلـه إلا الله ، لأنها تضمنت النفي والاثبات ، التي تضمنته لا إلـه إلا الله ، كما دلت على أنه لا بد في الاسلام من النفي والاثبات ، فيثبت العبادة لله وحده ، وينفي عبادة ما سواه وهو التوحيد الذي تضمنته سورة : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّها ٱلْكَافِرُونَ** ﴾[2] .

وطريقة القرآن الكريم في مثل هذا أن يقرن النفي بالاثبات ، فينفي عبادة ما سوى الله ، ويثبت عبادته سبحانه ، وهذا هو حقيقة التوحيد ، والنفي المحض ليس بتوحيد ، وكذلك الاثبات بدون النفي ، فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفي والاثبات ، وهذا حقيقة لا إلـه إلا الله .

كما أن من طريقة القرآن الكريم أنه دل على أن الحكمة في إرسال الرسل هو عبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه ، وأن أصل دين الأنبياء واحد ،

---

(١) آية (٣٦) سورة الرعد (١٣) .

(٢) آية (١) سورة الكافرون (١٠٩) .

وهـو الاخلاص في العبـادة لله سبحانـه ، وإن اختلفت شـرائعهم ، يقـول سبحانه :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ (١) .

وفي قوله ﷺ : «وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا»، بيان **أن الله لا يعذب من يعبده** ، ولا يشرك به شيئا ، وأن العبادة هي الإتيان بالاوامر ، والانتهاء عن النواهي ، لأن مجرد عدم الاشراك لا يقتضي نفي العذاب ، وقد علم ذلك من القرآن الكريم ، والاحاديث الشريفة ، الواردة في تهديد الظالمين والعصاة .

يقول الامام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى :

« اقتصـر على نفي الاشـراك ، لأنه يستـدعي التوحيـد بـالاقتضـاء ، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم ، إذ من كذب رسول الله ﷺ، فقد كذب الله تعالى ، ومن كذب الله تعالى فهو مشرك ، وهو مثل قول القائل :

« من توضأ صحت صلاته ، أى مع سائر الشروط ، فالمراد من مات حال كونه مؤمنا بجميع ما يجب الإيمان به » .

وتحقيق التوحيد : هو معرفته والاطلاع على حقيقته ، والقيام بها علما وعملا ، وحقيقة ذلك هو انجذاب الروح إلى الله تعالى ، محبة ، وخـوفا ، وإنابة ، وتوكلا ، ودعاء ، وإخلاصا ، واجلالا ، وهيبة ، وتعظيما وعبادة .

وبالجملة: فلا يكون في قلبه شيء لغير الله سبحانه ، ولا إرادة لما حرم الله ، ولا كراهة لما أمر الله ، وذلك هو حقيقة : «لا إلـه إلا الله » فإن الاله هو المألوه المعبود وذلك هو حقيقة الشهادتين ، فمن قام بهما على هذا الوجه فهو من الذين يدخلون الجنة .

---

(١) آية (٤٨) سورة المائدة (٥) .

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال :

«من شهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته القاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل »[1] .

وما أجمل وأبدع هذا الحديث الرائع الصحيح ، الجامع لخيري الدنيا والآخرة :

أخرج الترمذي في سننه من حديث الحارث الأشعري ، أن النبي ﷺ قال :

«إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ، وأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها ، وانه كان أن يبطيء بها» فقال عيسى ـ عليه السلام ـ :

إن الله أمرك بخمس كلمات ، فتعمل بها ، وتأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها ، فأما أن تأمرهم واما أن آمرهم .

فقال يحيى ـ عليه السلام ـ :

أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب ، فجمع الناس في بيت المقدس ، فامتلأ وقعدوا على الشرف ، فقال :

إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن :

أولهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق ، فقال : هذه

(١) أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم .

داري ، وهذا عملي فاعمل وأدِ إليَّ ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟

وان الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته مالم يلتفت .

وأمركم بالصيام : فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها ، وان ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يده على عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم .

وأمركم أن تذكروا الله ، فان مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعا ، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله .

قال النبي ﷺ : «**وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن :**

« السمع ، والطاعة والجهاد ، والهجرة ، والجماعة ، فان من فارق الجماعة قيد شبر ، فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن ادعى دعوى الجاهلية ، فإنه من حثاء جهنم » .

فقال رجل يا رسول الله : وان صلى وصام ؟

قال : « وإن صلى وصام ، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله »[1] .

وفي ضوء هذا الحديث النبوي الشريف أخبر سيدنا رسول الله ﷺ أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله سبحانه ، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل .

والى الله سبحانه نضرع ، واليه تعالى نتوجه أن يقينا شر الشيطان ، وأن يجنبنا طريقه وخطاه .

هذه كلمة متواضعة عن « شهادة أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » التي اشتملت في مضمونها على قاعدة قواعد العقائد ، موضوع هذا الكتاب الجليل القدر ، العميق المعنى ، تحريت فيها بتوفيق الله سبحانه ، ما تفضل الله تعالى به من الهام وفتح ، لتكون نبذة هادفة لفهم خواطر هذا الكتاب النفيس ، كما أرجو من الله سبحانه وتعالى .

أما كتاب « قواعد العقائد » لشيخنا الورع ، وامامنا التقي ، شيخ العلماء ، وحجة الاسلام ، أبي حامد الغزالي ، طيب الله ثراه ، وأعلى درجته ، وأكرم مثواه ، فإنه يبين في إشراق والهام ، معاني التوحيد الصافية النقية ، فهو يوضح من مسائله ما أبهم ، ويفصل من مهامه ما أجمل ، ويبسط من قواعده ما أشكل ، ويفتح من طرق فوائده ما أغلق .

ذكر فيه مؤلفه رحمه الله تعالى ورضي عنه ، ما خصه الله تعالى به من

---

(١) قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح ، وقال البخاري : الحارث الاشعري له صحبه ، وله غير هذا الحديث .

جودة القريحة للكشف عن أسرار حقيقة التوحيد ، على ضؤ الكتاب والسنة ، وأقوال العلماء وسلف الأمة .

ويوضح الإمام الغزالي منهج هذا السفر الرائع « قواعد العقائد » وما ألزم به نفسه ، من حسن السبك ، وجمال الترتيب ، فيخص كتابه هذا بنظام دقيق اشتمل فيه على أربعة فصول :

الفصل الأول : في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة .

الفصل الثاني : في وجه التدريج إلى الارشاد ، وترتيب درجات الإعتقاد .

الفصل الثالث : في لوامع الأدلة للعقيدة ، وفيه أربعة أركان ، إستطرد المؤلف في توضيح هذه الأركان استطرادا محمودا تتضح معالمه في سياق الكتاب .

الفصل الرابع : في الإيمان والإسلام ، وما بينهما من الإتصال والإنفصال ، وفيه مباحث هامة يقف على أسرارها من رغب المزيد من العلم أثناء قراءته .

وبمقتضى ما لهذا الكتاب من عظيم المهام ، كان من الضروري أن أدع ـ بعد هذه الكلمة المتواضعة ـ تفصيل ما اشتمل عليه هذا السفر من مسائل علمية ، للقارىء الكريم ، ليكون بمثابة مفاجأة علمية تسيطر على كيانه ووجدانه .

ذلك أننا حينما عقدنا العزم على تحقيق هذا الكتاب ، وإظهاره في صورة طيبة واضحة ، للمبين للعلم والعلماء ، أخلصنا النية ، ووجهنا القلب الى

العلي الاعلى ، أن يمنحنا توفيقه ورشده ، وأن يأخذ بأيدينا إلى ما نحب أن نصبوا إليه ونتوكأ عليه ، من نجاح وتوفيق ، لهذا العمل الجليل .

والحمد لله على توفيقه ، فقد قمنا بتحقيق النص ـ حسب جهد المقل ـ تحقيقا مقبولا ، وتخريج ما ورد من أحاديث وحكايات تخريجا موفقا ، مع شرح الكلمات الصعبة ، وتوضيح ما أبهم من مسائل مهمة .

وفضلا عما تضمنه كتاب « قواعد العقائد » من أصالة البحث ، عن أشرف دعامة من دعائم الاسلام ، وأعظم ركن من أركانه ، وهو « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » ، فحسبنا تقديراً لقيمة هذا الركن ، وتنويها لفضله ، أن نذكر ما ذكره المرتضى الزبيدي رضي الله عنه والذي قال فيه .

« ذكر الامام الغزالي رضي الله عنه ، أنه رأى رسول الله ﷺ في منامه بعد أن ألف كتابه « قواعد العقائد » وهو يقرأ عليه خطبة الكتاب ، وفصل العقيدة ، حتى وصل إلى قوله في العقيدة : وأنه تعالى بعث النبي الأمي محمدا ﷺ إلى كافة العرب والعجم ، والانس والجن قال : « فلما بلغت إلى هذا رأيت البشاشة والبشر في وجهه ﷺ قال : فالتفت إليّ وقال : **« أين الغزالي »**؟ فإذا بالغزالي كأنه واقف على الحلقة بين يديه ، فقال : ها أناذا ، يا رسول الله ، وتقدم وسلم على رسول الله ﷺ ، فرد عليه الجواب ، وناوله يده العزيزة ، والغزالي يقبل يده ، ويضع خديه عليها تبركا به ، وبيده العزيزة المباركة ، ثم قعد » .

قال : فما رأيت رسول الله ﷺ ، أكثر استبشارا بقراءة أحد ، مثل ما كان بقراءتي عليه « قواعد العقائد » ثم انتبهت من النوم ، وعلى عيني أثر الدمع مما رأيت من تلك الأحوال والمشاهدات والكرامات ، فانها كانت نعمة جسيمة من الله تعالى ، سيما في آخر الزمان ، مع كثرة الأهوال ، فنسأل الله أن يثبتنا على

عقيدة أهل الحق[1].

هذا بالنسبة لكتاب « قواعد العقائد » الذي نحن الآن بصدده .

أما المؤلف الفاضل المغفور له - فعلى الرغم من انتشار علمه ، وتداول كتبه، واشتهار صيته، وطيب سمعته، وثناء الخلق عليه، وحسن الثقة به، وحبه للصالحين ، وحبهم له ، لله وفي الله تعالى ، فهو على الرغم من هذا كله ، غني عن التعريف ، خاصة وقد كثر في زماننا هذا عدد من ترجموا له من عباقرة العلماء ، وأشهر المفكرين منذ وفاته حتى عصرنا الحديث .

ونكتفي بما ذكره ابن العماد في شذراته ، إنه يقول عنه :

« الإمام زين الدين ، حجة الإسلام ، أبو حامد ، محمد ، بن محمد ، بن محمد ، بن أحمد الطوسي الشافعي ، أحد الأعلام ، تلمذ لإمام الحرمين ، ثم ولاه نظام الملك تدريس مدرسته ببغداد ، وخرج له أصحاب ، وصنف التصانيف مع التصوف والذكاء المفرط ، والاستبحار في العلم .

وبالجملة : ما رأى الرجل مثل نفسه ، توفي في رابع عشر جمادي الآخرة بالطابران ، قصبة بلاد طوس ، وله خمس وخمسون سنة .

وقع للغزالي أمور تقتضي علو شأنه من ملاقاة الأئمة ، ومجاراة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ، ومناطحة الكبار ، فأقبل عليه نظام الملك وحل منه محلا عظيما ، فعظمت منزلته ، وطار اسمه في الآفاق ، وندب للتدريس بنظامية بغداد ، سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، فقدمها في تجمل كبير ، وتلقاه الناس ، ونفذت كلمته وعظمت حشمته ، حتى غلبت على حشمة الأمراء والوزراء ،

---

(١) أنظر اتحاف السادة المتقين ج١ ص ١٧ ، ولا غرابة في هذا فإن أغرب من ذلك يجوز في حق أهل الايمان والتقوى ، وأهل القلوب والبصائر ، فالله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وضرب به المثل ، وشدت إليه الرحال ، إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفضها واطرحها .

وأقبل على العبادة والسياحة ، فخرج إلى الحجاز في سنة ثمان وثمانين ، فحج ورجع إلى دمشق واستوطنها عشر سنين بمنارة الجامع ، وصنف فيها كتبا ، ثم صار إلى القدس والاسكندرية ، ثم عاد إلى وطنه بطوس ، مقبلا على التصنيف والعبادة وملازمة التلاوة ، ونشر العلم وعدم مخالطة الناس .

ثم إن الوزير فخر الدين نظام الملك حضر إليه ، وخطبه إلى نظامية نيسابور وألح كل الإلحاح ، فأجاب إلى ذلك ، وأقام عليه مدة ثم تركه ، وعاد إلى وطنه على ما كان عليه ، وابتنى إلى جواره خانقاه للصوفية ، ومدرسة للمشتغلين ، ولزم الانقطاع ووظف أوقاته على وظائف الخير ، بحيث لا يمضي لحظة منها إلا في طاعة من التلاوة ، والتدريس ، والنظر في الأحاديث ، خصوصا البخاري ، وإدامة الصيام ، والتهجد ، ومجالسة أهل القلوب ، إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى .

وهو قطب الوجود ، والبركة الشاملة لكل موجود ، وروح خلاصة أهل الإيمان ، والطريق الموصلة الى رضا الرحمن ، يتقرب الى الله تعالى به كل صديق ، ولا يبغضه إلا حاقد أو زنديق .

تصانيفه :

يقول ابن قاضي شهبة :

ومن تصانيفه : البسيط : وهو كالمختصر للنهاية والوسيط ملخص منه .

وزاد فيه أمورا من الإبانة للنوراني .

ومنها : أخذ هذا الترتيب الحسن الـواقع في كتبـه ، وتعليق القاضي حسين ، والمهذب واستمداده منه كثير كما نبه عليه في المطلب .

ومن تصانيفه أيضا :

الوجيز ، والخلاصة ، مجلد دون التنبيه ، وكتاب الفتاوى له ، مشتمل على مائة وتسعين مسئلة ، وهي غير مرتبة ، وله فتاوى أخرى غير مشهورة أقل من تلك :

« وكتاب الإحياء » . وهو الأعجوبة ، العظيم الشأن . و « بداية الهداية » في التصـوف « والمستصفى » في أصـول الفقـه . و« الجـام العـوام عن علم الكلام » والرد على الباطنية ، ومقاصد الفلاسفة ، وتهافت الفلاسفة ، وجواهر القرآن ، وشرح الأسماء الحسنى ، ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وغير ذلك .

وذكر الشيخ علاء الدين علي بن الصيرفي، في كتابه « زاد السالكين » أن القاضي أبا بكر بن العربي ، قال :

رأيت الامام الغزالي في البرية وبيده عكازه ، وعليه مرقعة ، وعلى عاتقه ركوة ، وقد كنت رأيته ببغداد يحضر مجلس درسه ، نحو أربعمائة عمامة ، من اكابر الناس وأفاضلهم ، يأخذون عنه العلم ، قال : فدنوت منه ، وسلمت عليه ، وقلت له : يا إمام ، أليس تدريس العلم ببغداد خيرا من هذا ؟ قال : فنظر إلى شزرا وقال :

لما طلع بدر السعـادة في فلك الارادة ، وجنحن شمس الوصـول في مغارب الأصول :

تـركت هوى ليـلي وسعدي بمعـزل   وعـدت إلى تصحيـح اول منــزل
ونـادت بي الأشـواق مهـلا فهـذه   منـازل من تهـوى رويـدك فـانـزل
غـزلت لهم غزلا دقيقـا فلم أجـد   لغـزلي نسـاجـا فكسـرت مغــزلي

والله سبحانه وتعالى نسأل ، وإليه نضرع ، ان ينفعنا بعلمه ، وأن يجزيه عما قدم للإسلام والمسلمين من تراث إسلامي أصيل ، خـير ما يجـزي به الصالحين المخلصين من عباده ، والأولياء المقربين من أهل وده ، ووداده ، إنه حسبنا ومولانا عليه توكلنا وإليه المصير .

موسى محمد علي

الفَصْــل الأوّل

في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة
التي هي أحد مباني الإسلام

مقدمة :

الحمد لله المبدىء المعيد[1] ، الفعال لما يريد[2] ، ذي العرش المجيد[3] والبطش الشديد[4]، الهادي صفوة العبيد ، الى المنهج الرشيد ، والمسلك السديد ،

---

(١) أجمع المسلمون على أن الله عز وجل ، هو المبدىء المفيد ، يبدأ الخلق ثم يعيده ، يبدأ الخلق بايجاده أولا على غير مثال سبق منه ، ويعيده بعد إفنائه إياه .

(٢) لا يمتنع عليه مراد من أفعاله وأفعال غيره ، فهو سبحانه يفعل ما يريد على ما يراه ، لا يعترض عليه أحد ، ولا يغلبه غالب فيدخل أولياءه الجنة لا يمنعه مانع ، ويدخل أعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر ، ويمهل العصاة على ما يشاء الى أن يجازيهم ، ويعاجلهم بالعقوبة إذا شاء ، فهو يفعل ما يريد .

(٣) أي خالقه ومالكه ، والعرش الجسم المحيط بسائر الاجسام ، سمي به لارتفاعه ، وقد ورد في الحديث الصحيح : « ما السموات السبع والأرضون السبع في جنب الكرس الا كحلة ملقاة في أرض فلاة ، والكرس عند العرش » ويقول الراغب : عرش الله مما لا يعلمه البشر الا بالاسم .

والمجيد : يحتمل أن يكون صفة العرش ، ومجده علوه وعظمة ، أو صفة لله تعالى ، أي عظيم في ذاته وصفاته ، فإنه واجب الوجود قام بالقدرة والحكمة .

(٤) البطش : أخذا بعنف وصوله ، ومعنى شدة بطشه مضاعفة عنفه ، وهكذا فسر العلماء قوله تعالى : ﴿ **إن بطش ربك لشديد** ﴾ .

وقد ورد تفسير البطش : بأنه سرعة الانتقام وعدم التؤده في العفو ، وقوله تعالى : ﴿ **إن بطش ربك لشديد** ﴾ تنبيه على أنه سريع الانتقام . =

المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد[١] ، بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد[٢] السالك بهم الى اتباع رسوله المصطفى ، واقتفاء آثار صحبه الاكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد ، المتجلى لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها الا من ألقى السمع وهو شهيد[٣] ، المعرف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له ، فرد لا مثيل له ، صمد[٤] لا ضد له ، منفرد لا ند له ، وأنه واحد قديم لا أول له ، أزلي لا بداية له ، مستمر الوجود لا آخر له ، أبدي لا نهاية له ، قيوم لا انقطاع

= وفي هذه الجمل : إشارة الى أن جميع افعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وانه تعالى لا يجب عليه شيء لأنها دالة على أنه يفعل ما يريد .

(١) والشهادة : قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة ، وقد يعبر بها عن الاقرار والبيان والحكم والأعلام ، والتوحيد مصدر وحّد إذا أوقع نسبة الواحد الى موضوعه .

(٢) وهو إيقاع الشك والتردد فيها وتصميم القلب على إدراك تصوري ، أو تصديقي .
والتصديق علم إن كان جزما ومطابقا عن موجب ، وجهل إن لم يطابق ، واعتقاد أن طابق لغير موجب ، ويسمى تقليد أو ظن إن لم يجزم بها وكان راجحا .

(٣) وفي هذا السياق رمز صريح الى أنه لا يحيط مخلوق حق حقيقة ذات الخالق الا بالحيرة والدهشة ، وأما اتساع المعرفة ، والإدراك ، فإنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته ، وكل يعطي على قدر مقامه واجتهاده ، فتفاوت المراتب إنما هو في معرفة الاسماء والصفات .

(٤) وقد ورد في الصمد ثلاثة أقوال :
أحدها : أنه الذي لا يطعم واستدل عليه بقوله عز وجل : وهو يطعم ولا يطعم ، وفي ذلك إبطال قول من زعم من النصارى أن عيسى عليه الصلاة والسلام إله ، وقال الله تعالى في عيسى وأمه عليهما الصلاة والسلام كانا يأكلان الطعام ، فبين ذلك أن الذي يأكل ويشرب لا يكون إلهاً ، وفي ذلك دلالة على أن كل محتاج الى شيء فهو غير إله ، والاله هو الغني عما سواه .
والقول الثاني : أن الصمد هو الذي لا جوف له ، وفي هذا إبطال قول المشبهة من اليهود والهشامية الذين زعموا أن معبودهم صورة مجوّفة ، وقالوا نصفه الاعلى مجوّف ونصفه الاسفل مصمد ، فأخبر الله أنه صمد ليس له جوف ولا صورة ولا تركيب تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .
والقول الثالث : ما ذهب اليه أهل اللغة بلا اختلاف ان الصمد السيد الذي انتهى اليه السؤدد والمصمود في النوائب الذي يصمد اليه فيها .

له ، دائم[1] لا انصرام له ، لم يزل موصوفا بنعوت الجلال ، لا يقضى عليه بالانقضاء ، والانفصال ، بتصرم الآباد[2] وانقراض الآجال ، بل هو الاول[3] والآخر، والظاهر والباطن[4] ، وهو بكل شيء عليم .

التنزيه[5] :

وأنه ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر[6] ، وأنه لا يماثل الأجسام ، لا في التقدير ولا في قبول الانقسام ، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، ولا بعرض ولا تحله الأعراض[7] ، بل لا يماثل موجودا ولا يماثله

---

(١) أصل الدوام السكون ، ويعبر به عن البقاء ، فيقال : الدائم هو الباقي ، ويكون الدوام بالضم بمعنى الدوران ، ولا يجوز وصف الله بالدائم إلا بمعنى الباقي ، فهو من صفاته الازلية الذاتية ؛

(٢) الآباد : جمع أبد وهو الدهر الطويل الذي ليس بمحدد .

(٣) الأول : قبل كل شيء بالوجوب ، وابتدائه بالإحسان ؛ والآخر : بعد كل شيء برجوع الامر اليه ، وبفضله بالغفران ؛ فللحق الاوليه من حيث انه موجود كل شيء ، وله الآخرية من حيث رجوع الامر كله اليه وظهور مراتب الالهية كلها فيما بين الاولية والآخرية .

(٤) الظاهر بنفسه لنفسه ، والمظهر لغيره ولكمال ظهوره وجلالة بروزه أورثت شدة ظهوره خفاء ؛ والباطن عن خلقه فلم يزل باطنا فهو الظاهر يكون ظاهرا من وجه وباطنا من وجه فلا يكون من وجه واحد ظاهرا وباطنا ، بل يكون ظاهرا من وجه وبالاضافة الى إدراك ، وباطنا من وجه آخر وبالاضافة الى إدراك ، فان الظهور والبطون إنما يكون بالاضافة الى ادراكات ، والله سبحانه وتعالى باطن إن طلب من إدراك الحواس وخزانة الخيال ظاهر ان طلب من خزانة العقل بطريق الاستدلال .

(٥) التنزيه : هو تبرئة الله عز وجل عما لا يليق بجلاله وقدسه من كل عيب ونقص ، ومن كل صفة لا كمال فيها ولا نقصان .

(٦) ليس بجسم لان الجسم ما له طول وعرض وعمق ، ولا جوهر . . . الخ لأن الجوهر هو الجزء الذي لا ينقسم ، وهو أصل الشيء وهو ما يتركب منه الجسم ، والمحدود الذي له حد يقف عنده وغاية ينتهي اليها ، والمقدر الذي يدخل تحت التقدير ، وكل ذلك مما ينزه الباري تعالى عنه .

(٧) لأنه لو كان جوهراً أو عرضاً لجاز عليه ما يجوز على الجواهر والأعراض ، واذا جاز ذلك لم يصح أن يكون خالقا والله خالق كل شيء ، فالاشياء كلها مخلوقة غير الله وصفاته . =

موجود[1] ، ليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء ، وأنه لا يحده المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه[2] الأرضون ولا السموات ، وأنه مستوى على العرش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده[3] ، استواء منزها عن المماسة والاستقرار ، والتمكن والحلول والانتقال[4] ، لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش والسماء ، وفوق كل شيء الى تخوم الثرى[5]، فوقية لا تزيده قربا الى العرش والسماء ، كما لا تزيده بعدا عن الارض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء، كما أنه رفيع الدرجات عن الارض والثرى[6]، وهو مع ذلك قريب

= والجواهر والاعراض حادثة ، وكل حادث مخلوق متغير وجميع المخلوقات من العوالم العلوية والسفلية ينقسم الى ذلك والله خالقه جل جلاله .

(١) لأنه لو كان كذلك لكان مخلوقا مثل ذلك من حيث أنه يماثله ، لأن الموجودات كلها مخلوقة لله تعالى وهي غير الله وصفاته .

(٢) يقال : اكتنفه القوم كانوا منه يمنة ويسرة ، أي أنه سبحانه لا مكان له ولا جهة .
قال الامام الشافعي رضي الله عنه :
والدليل عليه هو أنه تعالى كان ولا مكان ، فخلق المكان وهو على صفة الازلية ، كما كان قبل خلقه المكان ، لا يجوز عليه التغيير في ذاته ولا التبديل في صفاته .

(٣) بالمعنى الذي يليق به : هو سبحانه أعلم به كما جرى عليه السلف في المتشابه من التنزيه عما يليق بجلال الله تعالى مع تنويص علم معناه اليه ، لا كما قاله بعض من أجاز أن يكون على العرش قاعدا كما يكون الملك على سريره على شيء .

(٤) فهو سبحانه منزه عن الانتقال من مكان الى مكان آخر لقيام البراهين القطعية باستحالة ذلك في حقه تعالى ، فإن ذلك كله من صفة استواء الاجسام بالاجسام .

(٥) أي حدود الأرض جمع تخم كفلوس وفلس . وقال ابن الاعرابي وابن السكيت : الواحد تخوم والجمع تخم كرسول ورسل .

(٦) يقول اسحاق الشيرازي : فلو كان في جهة فوق لما وصف العبد بالقرب منه ، إذا سجد ، بل هو تعالى رفيع القدر، عالي المنزلة والشرف ، والدرجات جمع درجة والمراد بها المرتبة المعنوية .

من كل موجود[1] ، وهو أقرب الى العبد من حبل الوريد[2] ، وهو على كل شيء شهيد[3] ، إذا لا يماثل قربه قرب الاجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الاجسام ، وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء[4] تعالى عن أن يحويه مكان[5] ، كما تقدس عن أن يحده زمان[6] ، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان[7] ، وأنه بائن عن خلقه بصفاته ، ليس في ذاته سواه ، ولا في سواه ذاته ، وأنه مقدس عن التغيير والانتقال ، لا تحله الحوادث[8] ،ولا تعتريه العوارض[9] ، بل لا يزال في نعوت جلاله منزها عن الزوال ، وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال[10] ، وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول[11] ، مرئي الذات بالابصار ،

---

(١) وإطلاق لفظ القريب عليه تعالى دل عليه في القرآن قوله تعالى: ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب** ﴾ ومعناه القرب على معنى العلم منه بعباده وبأحوالهم .

(٢) والوريد : عرق بين الحلقوم والعلباوين وهو ينبض أبدا وهو من الاوردة التي في الحياة ولا يجري فيها دم ، بل هي تجاري النفس بالحركات . انظر المصباح .

(٣) شاهد حاضر ، وحفيظ عالم ، لا يغيب عنه شيء فعلى هذا هو من صفاته الازلية التي استحقها لأجل علمه القديم ولم يزل شهيدا .

(٤) لا ذاته ولا صفاته ، أما ذاته فلأن الحلول هو الحصول في الحيز تبعاً ، والله تعالى منزه عن التحيز ، ولأن الحلول ينافي الوجوب الذاتي لافتقار الحال الى المحل .

وأما صفاته فلأن الانتقال من صفات الاجسام ، والله تعالى منزه عن الجسميه كما سبق أن أوضحنا .

(٥) فيشار اليه أو تضمه جهة ، وإنما اختصت السماء برفع الأيدي إليها عند الدعاء ، لأنها جعلت قبلة الادعية ، كما أن الكعبة جعلت قبلة للمصلي يستقبلها من الصلاة .

(٦) لأن المحدود محتو على أجزاء الماهية والله تعالى منزه عن ذلك .

(٧) كان تعالى « قبل أن خلق الزمان والمكان والعرش والكرسي والسموات والأرضين، وهو الآن على ما عليه من صفة الأزلية قبل خلقه الزمان والمكان وغيرهما .

(٨) ولا تقوم به لأنه لو جاز ذلك لزم عدم خلوه عن الحادث لاتصافه قبل ذلك الحادث بضده

(٩) وهي الآفات العارضة والاكدار والكثافات والادناس ، وهو سبحانه وتعالى منزه عن ذلك .

(١٠) إذ كل كمال فإنما يفاض منه بدأ ، واليه يعود .

(١١) إن طلب من خزانة العقل بطريق الاستدلال .

نعمة منه ولطفا بالأبرار في دار القرار[١] ، واتماما منه للنعيم بالنظر الى وجهه الكريم[٢] .

الحياة والقدرة :

وأنه تعالى حي قادر ، جبار قاهر[٣] ، لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا نوم[٤] ، ولا يعارضه فناء ولا موت[٥] وأنه ذو الملك والملكوت[٦] ، والعزة والجبروت ، له السلطان والقهر ، والخلق والامر ، والسموات مطويات بيمينه ، والخلائق مقهورون في قبضته ، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع ، المتوحد

---

(١) عقلا وسمعا وعليه أجمعت العلماء .

(٢) لقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إِلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

(٣) فهو سبحانه : حي بحياة هي صفة أزلية له ، لا يجوز عدمها ولا زال حيا أبدا .
قادر : بقدرة هي صفة أزلية له ، ولا يزال قادرا أبدا .
جبار : هو الذي جبر الخلق على ما أراده من أمره ، أو هو جابر كل كسر ، أو هو القاسم للجبابرة والطغاة ، والمبيد للظلمة والعتاة .
وقاهر : غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

(٤) والسنة بالكسر ما يعتري من النعاس فهو أخص من النوم .

(٥) تعالى الله عن ذلك كله ، فالقهر صفة فعل بمعنى الغلبة فيكون القاهر من أوصافه المشتقة من أفعاله ولا يكون من أوصافه الازلية .
وتأوله بعضهم على معنى القدرة وعلى هذا يكون في الازل قاهرا ، كما كان في الازل قادراً ، والاول أصوب ، والمعنى : أن الله تعالى هو الذي قهر الجبابرة في الدنيا بالدمار ، ويقهر جميع أعدائه في الآخرة بالبوار ، وهذه الجمل الثلاثة مسوقة لايضاح الاسماء الأربعة ، ومن كان متصفا في الازل بهذه الاوصاف يستحيل عليه طرق القصور والعجز والغفلة ومعارضة الفناء والموت .

(٦) والمعنى : أنه تعالى هو المالك حقيقة وكل مالك سواه فإنما يصير مالكا لمملوكه بتمليك الله عز وجل إياه من وجه مأذون فيه والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجد ما أوجد وأعدم ما أعدم منها ، فمنه بدء كل مملوك ، واليه يعود .

بالإيجاد والإبداع [١] ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، لا يشذ عن قبضته مقدور ، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الامور ، لا تحصى مقدوراته [٢] ، ولا تتناهى معلوماته [٣] .

العلم [٤] :

وأنه عالم بجميع المعلومات [٥] ، محيط بما يجري من تخوم الارضين الى أعلى السموات [٦] وأنه عالِم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل

---

(١) أشار بذلك الى وحدانية الافعال ، وهي تنفي أن يكون فعل أو اختراع أو ايجاد أو ابداع لغيره تعالى من الممكنات ؛ وأما وحدانية الذات التي هي عبارة عن سلب التعدد في الذات والصفات والافعال ، ووحدانية الصفات وهي نفي التعدد المتصل والمنفصل ، فقد أشار بذلك أولا ؛ وكل من الخلق والاختراع والايجاد والابداع خاص بالمولى عز وجل ، إلا أن الخلق هو الايجاد مطلقا ، والاختراع هو الايجاد لا على مثال سابق فلذلك قال : خلق الخلق وأعمالهم ، لقوله تعالى : . .
﴿ وَٱللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .
والخلق هو إنشاء الشيء واختراعه واحداثه من العدم الى الوجود ، وهذا لا يكون الا من الله عز وجل عند أهل الحق ، وعلى هذا يحمل غالب ما في القرآن من هذا اللفظ .

(٢) فإن كل ما صح حدوثه وتوهم كونه ولم يستحل ، في العقل وجوده ، فالله تعالى قادر على إيجاده واحداثه ، فإذا مقدوراته لا تحصى ولا تستقصى .

(٣) فلا تدخل تحت العد والاحصاء ، لأن علمه محيط بهما جمله وتفصيلا .

(٤) وهي الصفة الثانية من صفات المعاني ، وهو المتعلق بكل واجب ، وكل مستحيل ، وكل جائز ، وهو صفة أزلية لها تعلق بالشيء على وجه الإحاطة به على ما هو عليه دون سبق خفاء .

(٥) موجوداً كان ذلك المعلوم أو معدوما محالا كان أو ممكنا ، قديما كان أو حادثا ، متناهيا كان أو غير متناه ، جزئيا كان أو كليا ، مركبا كان أو بسيطا .

(٦) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ فعلمه أحاط بالمعلومات كلها ، فعلى هذا التأويل يكون المحيط من أوصافه الازلية ، لأنه لم يزل عالما بالمعلومات كلها ، ودليل هذه الإحاطة قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ عِلمِهِ مِثقالَ ذَرَّة في الأرضِ ولاَ في السموات ﴾ .

يعلم دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء[١] ويدرك حركة الذر في جو الهواء ، ويعلم السر وأخفى[٢] ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال ، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال[٣] .

الإرادة[٤] :

وأنه تعالى مريد للكائنات[٥] مدبر للحادثات ، فلا يجرى في الملك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، إيمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسران ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان ، الا بقضائه وقدره[٦] ، وحكمته ومشيئته[٧] ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[٨] ، لا يخرج عن

---

(١) وكيف وهو خالقها ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، وإيراد هذه الاوصاف تنبيها على كمال الدقة والخفاء .

(٢) يعلم السر ، وما أخفى من السر ، وهو ما يطرأ وجوده في ضمير صاحبه ، فيعلمه قبل أن يقع بخاطر صاحبه .

(٣) كما ذهب اليه جهم بن صفوان والرافضة .

(٤) وهي الصفة الثالثة من صفات المعاني ، ويذكرها المتأخرون مع القدرة لتعلقهما بجميع الممكنات دون الواجبات والمستحيلات ، إلا أن جهة تعلقهما بالممكنات مختلفة ، فالقدرة صفة أزلية تؤثر في الممكن عند تعلقها به إيجاداً أو اعدما ؛ والارادة صفة أزلية تؤثر في اختصاص أحد طرفي الممكن من وجود وعدم أو طول وقصر ونحوها بالوقوع بدلا عن مقابله ، فصار تأثير القدرة فرع تأثير الارادة ، إذ لا يوجد عز وجل من الممكنات أو يعدم بقدرته ، إلا ما أراد تعالى وجوده أو اعدامه .

(٥) على الحقيقة والارادة شرط في كون كل فاعل فاعلا ، وكما لا يكون الفاعل إلا قادراً ، كذلك لا يكون إلا مريدا مختارا لفعله .

(٦) ومعنى قضائه تعالى : علمه أزلا بالاشياء على ما هي عليه ، ومعنى قدره ايجاده اياها على ما يطابق العلم .

(٧) ومشيئته هي والارادة مترادفتان ، أراد تعالى حدوث كل ما علم حدوثه على الوجه الذي علم حدوثه عليه ، ولا يكون في سلطانه الا ما يريد كونه ، ولا ينتفي من ملكه الا ما أراد انتفاءه .

(٨) وهذه هي الارادة الكونية ، ولا يتخلف متعلقها متى تعلقت بشيء وجب وجوده .

مشيئته لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر بل هو المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد[1]،لا راد لأمره ، ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة له على طاعته الا بمشيئته[2] وارادته ، فلو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون ارادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك[3] وأن ارادته قائمة بذاته في جملة صفاته[4] ، لم يزل كذلك موصوفاً بها[5] ، مريدا في أزله لوجود الاشياء في أوقاتها التي قدرها فوجدت في أوقاتها كما أراده في أزله من غير تقدم ولا تأخر ، بل وقعت على وفق علمه وإرادته[6] ،من غير تبدل ولا تغير ، دبر الأمور لا بترتيب أفكار ، ولا تربص[7] زمان ، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن .

---

(١) خلافا لمن زعم أن المعاصي كلها كانت من غير مشيئة له فيها ، وقد يريد كون الشيء فلا يكون .

(٢) وفي نسخة اخرى : ولا قوة له على طاعته الا بمحبته وإرادته .

وهذا المعنى هو تفسير : لا حول ولا قوة إلا بالله .

(٣) فلا يجري في ملكه شيء إلا بمشيئته في أقضيته ومراداته سبحانه جل شأنه .

(٤) كالعلم ، والقدرة ، والسمع والبصر والكلام .

(٥) موصوفا بها في الازل كما أنه لم يزل عالما بعلم ، محيط بجميع المعلومات على التفصيل ، وكما أنه لم يزل قادرا بقدرة شاملة لجميع المقدورات على التفصيل ، سامعا بسمع ، رائيا برؤية محيط بجميع المسموعات والمرئيات على التفصيل .

(٦) وتأثير الإرادة عند أهل الحق على وفق العلم ، فكل ما علم الله تعالى أنه يكون من الممكنات أو لا يكون فذلك مراده عز وجل .

(٧) وفي نسخة أخرى : لا بترتيب أفكار ، وتربص زمان .

والمراد : لما كان التدبير في صفات البشر هو التفكر في عواقب الامور ، ولا يوصف سبحانه وتعالى به فإنه لم يزل عالما قبل وقوعها ، فلذلك أعقبه بقوله « لا بترتيب أفكار وتربص زمان » لهذا كان المراد بالتدبير في الأمور هنا امضاؤها ، وبه فسر قوله تعالى : ﴿ **يدبر الامر من السماء الى الأرض** ﴾ فيكون المدبر على هذا من أوصافه المشتقة من فعله ولا يكون من أوصافه الازلية ؛ أو بمعنى دبر الامور علم بها ، فعلى هذا يكون المدبر من أسمائه الازلية ، فلا مدبر ولا مقدر لما يجري من السموات والارض غيره ، كل حادث فيهن وما بينهن واقع بتقديره ، وجار على تدبيره ، فله التدبير والتقدير .

السمع والبصر[١] :

وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ، لا يعزب عن سمعه مسموع وان خفى ،ولا يغيب عن رؤ يته مرئى وإن دقّ[٢]، ولا يحجب سمعه بعد ، ولا يدفع رؤ يته ظلام يرى من غير حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة[٣] وآذان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق[٤].

الكلام[٥] :

وأنه تعالى متكلم آمر ناه ، واعد متوعد ، بكلام أزلي قديم قائم بذاته[٦] ،

---

(١) وهما الصفة الرابعة والخامسة من صفات المعاني المتعلقان بجميع الموجودات .
وحقيقة السمع صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالموجودات ، فتدرك الموجودات ادراكاً تاما ، لا على سبيل التخيل والتوهم ولا على طريق تأثير حاسة ولا وصول هواء .
وحقيقة البصر : صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالموجودات فتدرك الموجودات ادراكاً تاما لا على سبيل التخيل والتوهم ، ولا على سبيل طريق تأثر حاسة ولا وصول شعاع ، ومعنى المتعلقات الطالبان بالانكشاف لجميع الموجودات .

(٢) كالذرة في الهواء يسمع النداء ويجيب الدعاء .

(٣) جمع صماخ بالكسر وهو الثقب الذي في الاذن .

(٤) فليس علمه كعلم المخلوقات المختلف في محله ، أهو الدماغ ، أو القلب ، ولا كسمع المخلوق الذي هو بقوة مودعة في مقعر الصماغ يتوقف إدراكها للأصوات على حصول الهواء الموصل لها الى الحاسة ، وتأثير الحاسة ولا كبصر المخلوق الذي هو قوة مودعة في العصبتين المجوفتين الخارجتين من الدماغ ، فلذلك لم تشبه صفاته صفات الخلق كما لم تشبه ذاته ذات الخلق لما ثبت تنزيهه وتقديسه عما لا يليق به جل جلاله .

(٥) وهي الصفة السادسة من صفات المعاني ، وهي صفة أزلية قائمة بذاته تتعلق بما تعلق به العلم ، وهو كل واجب ، وكل مستحيل ، وكل جائز ، لا تقبل العدم ، ولا ما في معناه من السكوت ولا التجديد ولا البعض ، ولا الكل ولا التقديم ولا التأخير ، ولا اللحن ولا الاعراب ولا الحرف ولا الصوت ولا سائر أنواع التغييرات .

(٦) لأن ثبوت المشتق للشيء يدل على ثبوت مأخذ الاشتقاق لذلك الشيء .

لا يشبه كلام الخلق ، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع باطباق شفة أو تحريك لسان[١] ، وأن القرآن والتوراة والانجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام[٢] ، وأن القرآن مقروء بالألسنة ، مكتوب في المصاحف ، محفوظ في القلوب[٣] ، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى ، لا يقبل الانفصال والافتراق ، بالانتقال إلى القلوب والأوراق[٤] ، وأن موسى ﷺ سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة[٥] من غير جوهر ولا عرض ، وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا ، عالما ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلمًا ، بالحياة والقدرة ، والعلم ، والإرادة ، والسمع والبصر ، والكلام ، لا بمجرد الذات[٦] .

---

(١) إذ كلام الخلق كله عرض ، وكلام الله تعالى لا يوصف بجسم ولا عرض ، ولهذا بين الامام الغزالي رضي الله عنه وجه عدم شبهه كلام الخلق فقال :

« فليس بصوت يحدث من بين انسلال هواء ، أو اصطكال أجرام ، ولا بحرف يتقطع باطباق شفة أو تحرك لسان » فكل ذلك من صفات كلام الخلق .

(٢) لأن الحروف إنما هي عبارة عنه ، والعبارة غير المعبر عنه ، فلذلك اختلفت باختلاف الالسنة ، وإذا عبرت عن تلك الصفة القائمة بذاته تعالى بالعربية فقرآن ، وبالعبرانية فتوراة ، وبالسريانية فانجيل وزبور ، والاختلاف في العبارات دون المسمى ، فحروف القرآن حادثة والمعبر عنه بها هو المعنى القائم بذات الله تعالى قديم ، فالتلاوة والقراءة والكتابة حادثة ، والمتلو والمقروء والمكتوب قديم .

وبيان المراد : أن ما دلت عليه الكتابة والقراءة والتلاوة ، كما إذا ذكر الله بألسنة متعددة ولغات مختلفة فإن الذكر حادث والمذكور وهو رب العالمين قديم .

(٣) وفي نسخة أخرى : محفوظ في القلوب والصدور .

(٤) كما لا يقبل العدم ولا ما في معناه من السكوت ، ولا التجديد ، ولا البعض ولا الكل ، ولا التقديم ولا التأخير ، ولا اللحن ولا الاعراب ، ولا سائر التغييرات .

(٥) رؤية تليق بذاته تعالى .

(٦) أشار المؤلف بذلك الى أن صفات المعاني زائدة على الذات العلية ، بأن المعنى الذي يفهم من العلم أبلغ من القدرة الذي هو التمكن من الفعل أو الترك ، وكذا باقي صفات المعاني فانها صفات ثابتة موجودة في نفسها قديمة باقية بالذات العلية وهي كمالات ونقائضها نقائض ، والله تعالى منزه عن النقائض .

الافعال :

وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه الا وهو حادث بفعله[١] ، وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها ، وأتمها وأعدلها ، وأنه حكيم في أفعاله[٢] ، عادل في أقضيته[٣] ، لا يقاس عدله بعدل العباد[٤] ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ، ولا يتصور الظلم من الله تعالى ، فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ، فكل ما سواه من إنس وجن ، وملك وشيطان ، وسماء وأرض وحيوان ، ونبات وجماد، وجوهر وعرض ، ومدرك ومحسوس ـ حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا ، وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئا ، إذ كان في الازل موجودا وحده ولم يكن معه غيره[٥] ، فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرته[٦] ، وتحقيقا لما سبق من إرادته ، ولما حق في الأزل من كلمته[٧] ، لا

---

(١) الفرق بين الإختراع والإيجاد والخلق والإبداع: أن الاختراع خاص بالله تعالى، وكذا الإيجاد والإبداع والخلق ؛ وأما الفعل فإنه يطلق على القديم والحادث إلا أنه في حقه تعالى حقيقة ، لأنه هو الذي اخترعه ، وأما في حق الحادث فمجاز ، وإنما هو عبارة عن مباشرتهم للأشياء وتحريكهم لها .

(٢) بإصابة مراده على حسب قصده .

(٣) على الحقيقة لا يوصف بالجور والظلم .

(٤) العادل هو الذي يصدر منه فعل العدل المضاد للجور والظلم ، ولن يعرف العادل من لم يعرف عدله ، ولا يعرف عدله من لم يعرف فعله ، فمن أراد أن يفهم هذا الوصف فينبغي أن يحيط ، علما بأفعال الله تعالى من ملكوت السموات ، إلى منتهى الثرى ، حتى إذا بهره جمال الحضرة الربوبية وحيره اعتدالها وانتظامها تعلق بفهمه شيء من معاني عدل الله في خلقه.

(٥) يشاركه أو يماثله في ذاته وصفاته وأفعاله ، وفي هذا إشارة الى أن احداثه تعالى ذلك كان باختياره وحده ، ولا هو استكمال كمال زائد على ما كان قبل إحداثه .

(٦) وفي نسخة أخرى : فأحدث الخلق بعد عدمه إظهاراً لقدرته .

(٧) كلمته التي لا تبدل ، وفيه إشارة الى أن تأثير القدرة فرع تأثير الإرادة، إذ لا يوجد تعالى شيئاً من الممكنات ، أو يعدم بقدرته إلا ما أراده تعالى وجوده أو اعدامه ، وتأثير الإرادة على وفق العلم ، فكل ما علم تعالى أنه يكون من الممكنات أو لا يكون فذلك مراده .

لافتقاره إليه وحاجته[1] ، وأنه متفضل بالخلق والإختراع والتكليف لا عن وجوب[2] ، ومتطول بالانعام والاصلاح لا عن لزوم[3] فله الفضل والإحسان والنعمة والإمتنان ، إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب[4] ، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ، ولو فعل ذلك لكان منه عدلا، ولم يكن منه قبيحاً ولا ظلما[5] ، وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد، لا بحكم الاستحقاق واللزوم له ، إذ لا يجب عليه لاحد فعل ولا يتصور منه ظلم[6] ،ولا يجب عليه حق[7] ، وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق بايجابه على ألسنه أنبيائه[8] عليهم السلام لا بمجرد العقل[9] ، ولكنه بعث الرسل

---

(١) تعالى الله عن ذلك ، وهو الغني المطلق وكل موجود سواه فقير إليه في وجوده وبقائه وسائر ما يمده به .

(٢) فهو سبحانه المتفضل عليهم به حيث جعلهم أهلا لأن يخاطبهم بالامر والنهي .

(٣) والمتفضل والمتطول بمعنى واحد ، ولم يردا في أسمائه الحسنى ولكن دل عليهما قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ذي الطول﴾ ومعناه : ذو الفضل والبسطه والمقدرة فإن أخذ الطول من الفتى والمقدرة ، فذو الطول من الأسماء الأزلية ، لأنه لم يزل غنياً قادرا ، وإن أخذ من الأفصال والأنعام على العباد فهو من أوصافه المشتقة من أفعاله .

(٤) وهي العقوبة المؤلمة جزاء على سوء أفعالهم .

(٥) فهو سبحانه وتعالى العادل الذي لا يعترض عليه في تدبيره وحكمه ، وجميع أفعاله وافق مراد العبد أو لم يوافق ، وكل ذلك عدل منه وهو كما ينبغي .

(٦) لأنه سبحانه غير واضع للشيء في غير موضعه ، ولا عادل عن طريق الحكمة والعدل في شيء من أفعاله ، لا يجوز أن يلحقه نقص في ملكه ولا في إرادته ، فلم يكن موصوفا بالظلم بحال .

(٧) لكون كل ما سواه من مختراعاته ومخلوقاته ومصنوعاته ، فأنى يكون للمخلوق حق على الخالق ، والحق لغة هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره وهو الواجب اللازم .

(٨) وفي نسخة أخرى : على السنة أنبيائهم عليهم السلام .

(٩) لان العقل لا يستقل بإدراك كون الفعل أو الترك متعلق المؤاخذه الشرعية .

وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة[1] ، فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به[2] .

معنى الكلمة الثانية وهي الشهادة[3] للرسول بالرسالة

وإنه بعث النبي[4] الأمي القرشي، محمداً ﷺبرسالته إلى كافة العرب والعجم ، والجن والأنس ، فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها ، وفضله على

---

(١) وهي الأمور الخوارق للعادات المقرونة بالتحدي والموافقة للدعوى السالمة من المعارض على يد من يدعي النبوة .

وقول إمام الحرمين : إنه لا يمكن نصب دليل على النبوة سوى المعجزة محمول على ما يصلح دليلاً على الاطلاق والعموم ، ويصلح أن يكون حجة على المنكرين .

(٢) وهذه المسألة معروفة بالتحسين والتقبيح العقليين .

قالت الأشاعرة : لا تحسين ولا تقبيح عقلا ، أي إن الافعال إنما توصف بالحسن والقبح من حيث تعلق خطاب الشرع بها ؛ ودليله السمعي قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ وبه تمسك المحدث أيضاً .

وأما الصوفي : فإنه يقول : الافعال كلها نسبتان نسبة التكوين ونسبة التكليف ، أما نسبة التكوين فعامة ، لأن الافعال كلها لله تعالى ، وبهذه النسبة لا توصف بحسن ولا قبح لاستواء الإيجاد ، بل هي حسنة من حيث علم الفاعل ، وارادته ، وأما نسبة التكليف وهي الطلب فهي مختصة بأفعال المكلف ، ومن المعلوم أن الطلب للشيء فرع العلم به ، ولا علم بالحقيقة إلا لله تعالى ، فلا تكليف ولا طلب إلا لله تعالى ؛ وأيضاً فإن تعلق الطلب بفعل أو ترك غيب فلا يعلم إلا بالتوفيق السمعي النبوي .

فإذا الحسن والقبح لا يدرك بمجرد العقل فلا حسن ولا قبح عقلا ، وهو المطلوب .

(٣) هكذا في سائر النسخ ، وكان تأنيث الضمير باعتبار ما أضيف إليه .

(٤) النبي الأمي : منسوب إلى الأم لكونه لم يقرأ ولم يكتب ، أو إلى أم القرى وهي مكة لولادته بها ، أو إلى أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ لأن علمه منه .

والنبي حقيقته إنسان خصه الله بسماع وحي ولم يؤمر بالتبليغ ، وحقيقة الرسول إنسان بعثه الله إلى خلقه ليبلغهم ما أوحى إليه من الأحكام الشرعية ، وحقيقة الرسالة الأمر بتبليغ الوحي ، وحقيقة النبوة الإختصاص بالوحي .

سائر الأنبياء[١]، وجعله سيد البشر[٢] ، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد ، وهو قول لا إله إلا الله ما لم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك ، محمد رسول الله[٣] وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخر[٤] ، وأنه لا يتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت[٥] ؛ وأوله سؤال منكر

---

(١) بأنواع من الفضائل لخصوصية فضله بها في ذاته بها ارتفع كمالا فوق المراتب الكمالية ، إنسانية كانت أو ملكية قال الله تعالى : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات** ﴾ ذلك البعض هو الحقيقة المحمدية إذ هو أول نور تلقى من حضرة الوجوب ، بل لا متلقى على الحقيقة إلا هو ، فكان له ﷺ، حيثيتان ، حيثية إبتدائية وبها حصل الكمال الإختصاص المتوحد ، وحيثية إنتهائية وبها حصل الكمال المتكثر الذي انقسم على الحقائق النبوية ، وله ﷺمنه الحظ الأوفر الجامع بين كمالاتهم كلهم ، فمن حيث الكمال الإختصاص كان رسولا لجميع العالم ومن حيث كماله الجمعي كان رسولا للانس والجن .

(٢) ورئيسهم والفائق عليهم بالفضائل والكمالات .

(٣) ﷺ، فصارت الكلمتان كلمة واحدة ، عبر عنها بكلمة التوحيد والإخلاص .

(٤) أي المتعلقة بهما بعد أن خصه كما خص اخوانه من الأنبياء والرسل الكرام بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانه ، فهذه أربع صفات تجب في حقهم .

فالصدق هو الإخبار بالحق الثابت في نفس الأمر ، أي كون ما بلغوا به عن الله تعالى موافقا لما عند الله تعالى إيجابا كان أو سلباً . والأمانة : كونهم لا تصدر عنهم مخالفه أصلا ، وهي المعبر عند بعضهم بالعصمة .

والتبليغ : هو أنهم بلغوا جميع ما أمروا به اعتقاديا كان أو عملياً ، ولم يكتموا منه شيئا .

والفطانه : هي التيقظ لإلزام الخصوم وطرق إبطال تحيلهم ودعاويهم الباطلة .

(٥) وفي ضمن ذلك إعتقاد حقيقة الموت ، وإبتلائه به ، كل ذي روح لأنه من مجوزات العقول التي ورد الشرع بها ، فوجب إعتقادها ، وهو كيفية وجودية تضاد الحياة ، فلا يعرى الجسم الحيواني عنها ولا يجتمعان فيه هذا قول الأشعري .

وقيل : عدم الحياة عما من شأنه الحياة ، وهو قول الأسفراييني والأكثرين .

وقال بعض الصوفية : ليس الموت بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو إنقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته ، وحيلولة بينهما ، وتبدل بحال وانتقال من دار إلى دار .

ونكير [١] ، وهما شخصان مهيبان هائلان[٢] ، يقعدان العبد في قبره[٣] سويا ، ذا روح وجسد[٤] ، فيسألانه عن التوحيد والرسالة[٥] ويقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ وهما فتانا القبر ، وسؤالهما أو فتنة بعد الموت[٦] .

---

(١) ويتقدم على ذلك وجوب إعتقاد أن ملك الموت يقبض روح كل ذي روح، أي يخرجها ويأخذها بإذن ربه من مقرها ، أو من أعوانه ، والمراد جميع أرواح الثقلين ، والملائكة والبهائم والطير وغيرهم ، ولو بعوضة ، حتى قيل : إنه يقبض روح نفسه .

(٢) وهما شخصان أسودان أزرقان فظان غليظان شعورهما إلى أقدامهما تلمع النار بين أنيابهما يشكان الأرض بهما كلاهما كالرعد القاصف ، وأعينهما كالبرق الخاطف ، بأيديهما مقامع من حديد .

(٣) يقعد ان العبد في قبره ، بعد تمام الدفن ، وهذا في حق المقبور ، وفي غيره بعد الموت .

(٤) علق الزبيدي على هذا بقوله :

« ذا روح وجسد كامل الحواس » ، وأفتى الشمس الرملي : بأن السؤال على رأس وحده ، إن إنفصل ، لوجود أدلة النطق .

وأفتى الحافظ السيوطي : بأن الميت إذا نقل لا يسأل حتى يدفن .

(٥) فيسألانه أو أحدهما ، يترفقان بالمؤمن ، وينتهران المنافق والكافر ، ولو تمزقت أعضاؤه ، أو أكلته السباع في أجوافها ، وكذا الفريق والحريق وإن ذرى في الريح .

والسؤال يكون عن وحدانية الله تعالى ، وعن رسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما بلغوا

وللإمام القرطبي تعليق نفيس يقول فيه :

« اختلفت الأحاديث في كيفية السؤال والجواب ، وذلك بحسب الأشخاص ، فمنهم من يسأل عن بعض إعتقاداته ، ومنهم من يسأل عن كلها » .

ثم يعلق على هذا صاحب اتحاف المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين فيقول :

« وهذا السؤال خاص بهذه الأمة ، والمراد أمة الدعوة ، فيدخل المؤمنون ، والمنافقون ، والكافرون » .

وورد في حق جماعة : أنهم لا يسألون ، كالمرابط ، والشهيد بأنواعه ، والمراد به التخفيف لا مطلقا .

وفي سؤال الأطفال : الوقف ، وجزم السيوطي بعدم السؤال لعدم تكليفهم كالملائكة لا الجن .

(٦) يحصل هذا السؤال في القبر ، وهو نفس الفتنة ، وهي الإختبار ، والإمتحان ، بالنظر إلى الميت ، أو إلينا ، أو إلى الملائكة لإحاطة عمله بكل شيء .

وأن يؤمن بعذاب القبر ، وأنه حق [١] ، وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء [٢] ، وأن يؤمن بالميزان ذي الكفتين [٣] واللسان وصفته في العظم أنه مثل طبقات السموات [٤] والأرض ، توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى [٥] ، والصنج يومئذ مثاقيل الذر [٦] والخردل تحقيقا لتمام العدل ، وتوضح صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور ، فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله

---

(١) ثابت لما في حديث مسلم المرفوع :

« إن هذه الأمة تبتلي في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ، ثم أقبل ﷺبوجهه علينا فقال : « **تعوذوا بالله من عذاب القبر** » .

وفي صحيح البخاري ، عن أسماء بنت ابي بكر قالت :

« قام فينا رسول الله ﷺخطيبا ، فذكر فتنة القبر التي يفتتن بها المرء » فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة .

(٢) لمن يكون من أهل العذاب ، وحكمة الله تعالى فيه إظهار ما كتمه العباد في الدنيا من كفر ، أو إيمان ، أو طاعة ، أو عصيان ليباهى الله بهم الملائكة ، أو ليفضحوا عندهم .

ومجمل القول فيه : أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، وأضيف إلى القبر لأنه الغالب ، وإلا فكل ميت أراد الله تعذيبه ناله ما أراده قبر أو لم يقبر ، ومحله الروح والبدن جميعا بإتفاق .

وهو قسمان : دائم وهو عذاب الكفار ، ومنقطع وهو عذاب العصاة .

(٣) والوزن لغة معرفة كمية بأخرى على وجه مخصوص ، والحمل على الحقيقة ممكن ، لكن نمسك عن تعيين جوهره ، ونصب الموازين بعد الحساب ، والميزان ذي كفتين: كفة للحسنات وهي من نور ، والأُخرى من ظلمة وهي للسيآت .

(٤) وفي حديث سلمان رضي الله عنه أنه قال :

« توضع الموازين يوم القيامة ، ولو وضعت فيهن السموات والارض لوسعتهن » .

وفي حديث آخر : إن الجنة توضع عن يمين العرش ، والنار عن شماله ، ويؤتى بالميزان فتنصب بين يدي الله تعالى كفة للحسنات عن يمين العرش مقابلة للجنة ، وكفة للسيآت عن يسار العرش مقابلة للنار » .

(٥) توزن فيه أعمال العباد المكلفين ، بقدرة الله ولطيف حكمته وبديع صنعته ، والممسك للميزان جبريل عليه السلام .

(٦) المثاقيل جمع مثقال ، والذر ما يرى في ضوء الشمس .

بفضل الله ، وتطرح صحائف السيئات في صورة قبيحة في كفة الظلمة فيخف بها الميزان[١] بعدل الله .

وأن يؤمن بأن الصراط حق[٢] ، وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة[٣] تزل عليه[٤] أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهوى بهم الى النار[٥] ، وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون الى دار القرار[٥] .

---

(١) ومن فوائد الوزن : إمتحان العباد بالإيمان بالغيب في الدنيا ، وجعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة ، وتعرف العباد ما لهم من الجزاء على الخير والشر ، وإدامة الحجة عليهم .

(٢) حق ثابت بالكتاب ، والسنة ، وإجماع الأمة ، والصراط لغة : الطريق الواضح لأنه يبلغ المارة ، وشرعا ، جسر ممدود على متن جهنم ، يرده الأولون والآخرون ، ذاهبين الى الجنة ، لأن جهنم بين الموقف والجنة .

(٣) ومذهب أهل السنة : بقاؤه على ظاهره مع تفويض علم حقيقته إليه سبحانه وتعالى ، خلاف للمعتزلة . ويعلق صاحب إتخاذه السادة فيقول :

« وطوله ـ الصراط ـ ثلاثة آلاف سنة صعود ، وألف هبوط ، وألف استواء ، وجبريل في أوله ، وميكائيل في وسطه ، وفي حافتيه كلاليب معلقة ، مأمورة بأخذ من أمرت به ، وفيه سبع مناظر يسأل العبد عند كل واحد عن نوع من العبادات ، ومرور العباد عليه متفاوت في سرعة النجاة وعدمها ، وهم فريقان » اهـ .

(٤) وفي نسخة أخرى : تزل به أقدام الكافرين » .

(٥) إما على الدوام والتأييد ، كهؤلاء ، وإما إلى مدة يريدها الله تعالى ، ثم ينجو كبعض عصاة المؤمنين ، ممن قضى الله عليه بالعذاب ، وهذا هو القسم الاول .

(٦) والقسم الثاني وهو المراد بقوله : وثبت عليه أقدام المؤمنين » وهم أهل رجحان الأعمال الصالحة ، والسالمون فهم من السيآت ، ممن خصهم الله بسابقة الحسنى ، وهم الذين يجوزون كطرفة العين ، وبعدهم كالبرق الخاطف ، وبعدهم كالريح العاصف ، وبعدهم كالطير ، وبعدهم كالجواد السابق ، ثم الجواز سعياً ومشياً وحبواً على تفاوت الأعمال ، يتسع الصراط ويدق بحسب انتشار النور ضيقه ، ومن هنا كان دقيقا في حق قوم وعريضا في حق آخرين وهو واحد في نفسه . ودار القرار : الجنة ، والحكمة فيه ظهور النجاة من النار ، وأن تصير الجنة أسر لقلوبهم ، وليتحسر الكافر بفوز المؤمنين . بعد اشتراكهم في العبور .

وأن يؤمن بالحوض المورود[1] : حوض محمد ﷺ، يشرب منه المؤمنين قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط[2] ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر ، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء[3] ، فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر[4] .

وأن يؤمن بالحساب[5] تفاوت الناس فيه إلى مناقش في الحساب[6] ، وإلى مسامح فيه[7] ، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب ، وهم المقربون[8] ، فيسأل

---

(١) وهو الحوض الذي يعطاه سيدنا رسول الله ﷺ في الآخرة ، وهو جسم مخصوص متسع الجوانب ، ترده هذه الامة ، وعند الإمام مسلم من حديث أنس في نزول : « إنا أعطيناك الكوثر ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة » .
وذكر الحوض في الصحيح من حديث أبي هريرة ، وأبي سعيد ، وعبيد الله بن عمرو، وحذيفة ، وأبي ذر ، وجابر بن سمرة ، وحارة بن وهب ، وثوبان ، وعائشة ، وأم سلمة ، وأسماء .
وقد خرج أحاديثه الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي في جزء استوعب فيه ، وظواهر الأحاديث أنه بجانب الجنة ، كما قاله الحافظ ابن حجر .

(٢) يشرب منه المؤمنون الذين وفوا بعهد الله وميثاقه وماتوا على ذلك لم يغيروا ولم يبدلوا .

(٣) ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما رفعه :
« حوضي ميسرة شهر زواياه سواء ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه أكثر من نجوم السماء ، من شرب منه لا يظمأ أبدا » .

(٤) وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان : « يصب فيه ميزابان يمدانه من الجنة ، أحدهما من ذهب والآخر من ورق » .

(٥) جاء ذكر الحساب في حديث عمر رفعه أخرجه البيهقي في البعث ، وهو توقيف الله عباده قبل الإنصراف من المحشر على أعمالهم ، وأول من يحاسب هذه الأُمة .

(٦) ففي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها : من نوقس الحساب عذب ، قالت قلت : أليس يقول الله تعالى ﴿ **فسوف يحاسب حسابا يسيرا** ﴾ قال ذلك العرض .

(٧) كل ذلك بكيفية مختلفة ، فمنه اليسير ، والعسير ، والسر والجهر ، والتوبيخ والفضل والعدل .

(٨) كالسبعين ألفا ، وأفضلهم أبو بكر رضي الله عنه فلا يحاسب ، عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا : « الناس كلهم يحاسبون إلا أبا بكر » .

الله تعالى من يشاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين[1] ، ويسأل المبتدعة عن السنة[2] ، ويسأل المسلمين عن الأعمال[3] .

وأن يؤمن بإخراج الموحدين من النار[4] ، بعد الإنتقام[5] حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله تعالى ، فلا يخلد في النار موحد[6] .

---

(١) ففي البخاري من حديث أبي سعيد رفعه :

« يدعي نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعد بك يا رب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ؛ فيقال لأمته فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته » .

(٢) فعند ابن ماجه من حديث عائشة :

« من تكلم في شيء من القدر سئل عنه يوم القيامة » .

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « ما من داع يدعو إلى شيء إلا وقف يوم القيامة لازماً لدعوة ما دعا اليه ، وإن دعا رجل رجلا » .

(٣) قولاً كانص أو فعلاً أو اعتقاداً مكسوبة أولاً بعد أخذها كتبها خيراً كانت أو شراً ، تفصيلاً لا بالوزن وعند أصحاب السنن الأربعة من حديث أبي هريرة : أول مما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته .

(٤) هي دار العذاب بجميع طباقها السبع ، ولا جر لها سوى بني آدم ، والأحجار المتخذة آلهة من دون الله .

(٥) ولا يدوم عذابهم مدة بقائهم ، بل يموتون بعد الدخول لحظة مّا ، يعلم الله مقدارها فلا يحيون حتى يخرجوا منها .

(٦) حتى لا يبقى في جهنم : وهي الطبقة العليا من النار ، وهي التي فيها العصاة من الموحدين ، وهذه الطبقة هي التي تخلى وأما ما عداها فلا تخلى من أهلها معذبين فيها تخليد كتخليد أهل الجنة .

أما الموحد فإنه يخرج بفضل الله تعالى ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة في حديث طويل :

« . . . حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد أن يرحمه ممن يقول لا إلـه إلا الله » .

وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء[1] ، ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى ، ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع ، أخرج بفضل الله عز وجل[2] فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في

---

(١) أخرج ابن ماجه في سننه من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه رفعه وفيه .

« يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

ثم يعلق الزبيدى على هذا الحديث فيقول : « واعلم أن الشفاعة لغة الوسيلة والطلب ، وعرفا سؤال الخير للغير ، وهنا واجبات ثلاثة يتعين إعتقادها على كل مكلف .

الاول : كونه ﷺ شافعا ؛

الثاني : كونه ﷺ مشفعا ، أي مقبول الشفاعة .

الثالث : كونه ﷺ مقدما على غيره من جميع الأنبياء والمرسلين ، والملائكة .

فيتعين إعتقاد أنه ﷺ وإن كان له شفاعات ، إلا أن أعظمها شفاعته ﷺ المختصة به ﷺ به للإراحة من طول الموقف وهي أول المقام المحمود.

ثانيها : في إدخال قوم الجنة بغير حساب ، وهي مختصة به ﷺ.

ثالثها : فيمن إستحق دخول النار أن لا يدخلها .

رابعها : في إخراج الموحدين من النار ، ويشاركه في هذه الأنبياء والملائكة والمؤمنون .

خامسها : في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها ، وجوّز النووي إختصاصها به ﷺ.

سادسها : في جماعة من صلحاء أمته ليتجاوز عنهم في تقصيرهم في الطاعات .

سابعها : فيمن دخل من النار من الكفار أن يخفف عنهم العذاب في أوقات مخصوصة ، كما في حق أبي طالب ، وأبي لهب .

ثامنها : في أطفال المشركين أن لا يعذبوا .

وإياك وإعتقاد إمتناع شفاعته ﷺ في أهل الكبائر وغيرهم لا قبل دهولهم النار ولا بعده ، مما يجب إعتقاده شفاعة غيره ﷺ من الأنبياء والمرسلين والملائكة » اهـ .

(٢) ففي الحديث الذي أخرجه الصحيحين من حديث ابي سعيد ، فيقول الله تعالى :

﴿ شفعت الملائكة ، شفعت النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق الا أرحم الراحمين ﴾ فيقبض قبضة من النار فيخرج قوماً لم يعلموا خير قط ﴾ .

قلبه مثقال ذرة من الإيمان[١] ، وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم [٢] ، وأن أفضل الناس بعد النبي ﷺ، أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، رضي الله عنهم [٣] ، وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ، ويثني عليهم كما أثنى الله عز وجل ، ورسوله ﷺ، وعليهم أجمعين[٤]

---

(١) ففي الصحيحين من حديث ابي سعيد رضي الله عنه :

يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : ﴿ أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ﴾ .

وقد استنبط الزبيدي من قوله تعالى: ﴿ وأخرجوا من كان . . . الخ ﴾ نجاة من أيقن بالإيمان وحال بينه وبين النطق به الموت ؛ أما من قدر على النطق ولم يفعل حتى مات مع إيقانه بالإيمان بقلبه فيحتمل أن يكون امتناعه منه بمنزلة إمتناعه عن الصلاة ، فلا يخلد في النار.

ويحتمل خلافه ، ورجح غيره الثاني فيحتاج الى تأويل ؛

ثم ينبغي أن يعلم أنه لا يشفع واحد ممن ذكر إلا بعد إنتهاء مدة المؤاخذة » اهـ .

(٢) ودرجاتهم ومنازلهم ، فيعطى كلا منهم ما يستحقه من التقدير والإحترام والتعظيم .

(٣) هكذا ترتيب أفضليتهم على ترتيب خلافتهم ، هكذا أجمع عليه أهل السنة إذ المسلمون كانوا لا يقدمون أحداً في الإمامة تشهيا منهم ، وإنما كانوا يقدمونه لإعتقادهم أنه أفضل وأصلح للأمة من غيره .

وفي صحيح الإمام البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال :

« كنا نخير بين الناس في زمن النبي ﷺ، فنخير أبا بكر ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان »

(٤) أما ثناء الله عز وجل عليهم ، بعمومهم وخصوصهم ، ففي آي من القرآن ، وشهدت نصوصه بعد التهم ، والرضا عنهم ببيعة الرضوان ، وكانوا حينئذ أكثر من ألف وسبعمائة ، وعلى المهاجرين والأنصار خاصة بقوله تعالى :

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾

وقوله تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين والأنصار . . . ﴾ .

وعند الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل : الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضا بعدي » ومناقب الصحابة وفضائلهم عديدة ، وحقيق على المتدين أن يستصحب لهم ما كانوا عليه في عهد رسول الله ﷺ.

فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار[1] فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به كان من أهل الحق ، وعصابة السنة[2] ، وفارق رهط الضلال وحزب البدعة .

فنسأل الله كمال اليقين ، وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته أنه أرحم الراحمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى[3] . .

---

(١) وردت به الأخبار من روايات الأئمة الكبار ، وشهدت به الآثار من السلف الأخيار .

(٢) والمراد : كان من الذين حسنت عقائدهم ، وساروا على طريقة النبي ﷺ، وطريقه أصحابه وفارقوا جماعة أهل البدعة من فرق الضلال المبتدعة ، كالمعتزلة والخوارج ، والكرامية ، والروافض بأنواعها وجميع أقسامها .

(٣) هكذا في بعض النسخ ، وفي بعضها إنتهاء الكلام إلى قوله : ﴿ أرحم الراحمين ﴾ فتكون هذه الجملة من زيادة النساخ ، وقد جرت العادة في الختم به تبركا .

الفَصل الثّاني

في وجه التدريج إلى الإرشاد
وترتيب درجات الإعتقاد

أعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم الى الصبي[١] في أول نشوه ليحفظه حفظا[٢] ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئا فشيئا[٣] ، فابتداؤه الحفظ[٤] ، ثم الفهم ، ثم الإعتقاد والإيقان والتصديق به[٥] ، وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان ؛ فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوة للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان[٦] ، وكيف ينكر ذلك

---

(١) وهو الغلام الصغير بتعليمه إياه في حال صباه .

(٢) والمراد به : يحفظه حفظاً يأمن به عن الإغفال عنه ، ويتمكن ذلك المحفوظ في باطنه حتى يكون نقشاً على الحجر ، ولا يطرأ عليه ما يخالفه .

(٣) وهذا هو التدريج والترتيب المشار إليهما .

(٤) الحفظ بضبط صورها المدركة في النفس ، وبتعهدها ورعايتها .

(٥) لما فيها ، فهذه ثلاث مراتب : **الأولى** : الفهم ، أي لمعانيها الحاصلة من ظواهر تلك الألفاظ ، **الثانية** : عقد القلب على ذلك المعنى الذي فهمه . ، **الثالثة** : التصديق بذلك بأنه حق بالمعنى الذي أراده الله ورسوله ﷺ على الوجه الذي قاله ، وإن كان لا يقف على حقيقته ؛ فالتصديق لا يكون إلا بعد التصور ، والإيمان إنما يكونُ بعد التفهيم ، ولا يعتقد صدق قائلها فيها إلا إذا فهم معاني ألفاظها ، فلذلك قدم الفهم على الإعتقاد على التصديق .

(٦) وذلك بايراد الأدلة الذي يقتضي الصدق أبدا ، لأن التصديق بالأمور الجملية ليس بمحال ، وكل عاقل يعلم أنه أريد بهذه الألفاظ معان ، وإن كل إسم فله مسمى ، إذا نطق به من أراد مخاطبة =

وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد والتقليد المحض[1] ، نعم يكون الإعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الإبتداء ، على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه ، فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي ، حتى يترشح ولا يتزلزل[2] ، وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام[3] بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره[4] ، وقراءة الحديث ومعانيه[5] ، ويشتغل بوظائف العبادات[6] ، فلا يزال إعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه[7] ، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث

= قوم قصد ذلك المسمى ، فيمكنه أن يعتقد كونه كاذباً مخبراً عنه على خلاف ما هو عليه ، ويمكنه أن يعتقد كونه صادقاً مخبراً عنه على ما هو عليه ، فهذا معقول على سبيل الإجمال يمكن أن يفهم من هذه الألفاظ أموراً جملية غير مفصلة ويمكنه التصديق بها .

(١) المحض الخالص من غير أن يشوبه شيء آخر سواه .

(٢) وفي نسخة أخرى : فلا يتزلزل

(٣) كما هو المتبادر إلى الأذهان ، إذ الكلام والجدل علم لفظي ، وأكثره إحتمال وهمي وهو عمل النفس وتخليق الفهم .

(٤) وفي نسخة أخرى : يشتغل بقراءة القرآن وتفسيره ، وهي والتلاوة مترادفان ، ومن العلماء من فرق بينهما ، وهذا الإشتغال أعم من أن يكون حفظاً من الصدر ، أو التكرار فيه .
والمراد من تفسير القرآن : معرفة معانيه ، والكشف عن ظواهر ألفاظه على قدر ما يصل إليه فهمه .

(٥) المجموع في كتب معلومة موثوق بها ، ويمضي فيها بتلقي ذلك عن الشيوخ المعروفين بحملها ، ومعرفة معانيه الظاهرة للأفهام .

(٦) وأجل هذه الوظائف : المحافظة على الفرائض بواجباتها وأركانها وسننها ، والمصنف لم يذكر الاشتغال بعلم الفقه ، لأنه حاصل من القرآن والحديث إذ كتب الحديث المؤلفة غالبها على ترتيب أبواب الفقه ، وأن يشتغل أثناء ذلك بمجالسة الأخبار الصالحين من أهل المعارف والأذواق الذين سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، وإذا ذكر الله .

(٧) الباهرة وحججه القاهرة ، وقرعها للسمع كناية عن وصولها إليه بشدة .

وفوائدها ، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها[١] ، وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم[٢] ، وسيماهم وسماعهم وهيآتهم في الخضوع لله عز وجل ، والخوف منه ، والإستكانة له[٣] ، فيكون أول التلقين كالقاء بذر في الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له[٤] ، حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ، ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء[٥] .

وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة ، فإن ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده ، وما يفسده أكثر مما يصلحه[٦] ، بل تقويته بالجدل تضاهي ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد ، رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك[٧] ويفسدها وهو الأغلب ، والمشاهدة تكفيك في هذا بيانا ، فناهيك بالعيان برهانا[٨] .

---

(١) ووظائفها اللائحة على ظاهره وباطنه ، فمن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، واطمئن قلبه بنور ذي الجلال والإكرام .

(٢) وملاحظتهم ومؤانستهم وآدابهم ، وسيماهم الظاهر المغمور بالأنوار الإلهية في حركاتهم وسكناتهم .

(٣) في خضوعهم لله سبحانه ، والخشوع لجلاله تعالى ، بسكون الجوارح ، وتلقى الواردات الإلهية ، والإستشعار بهيبته ، والتذلل له ، وشغل اللسان بذكره وحفظ القلب عن حضور ما سواه فيه .

(٤) فشواهد القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، بمنزلة الماء ، لذلك البذر ، ومنها حياته الأصلية ، إذ لولاها لذوي ، وأنوار العبادات، ومجالسة الأخبار ، بمنزلة التربية له بحفظه عما يضره .

(٥) تجتني منها ثمرات المعارف والإهتداء .

(٦) نظراً إلى ما يودع في قلبه شبهاً للخصوم ، فربما أنها لا تزول وتبقى آثارها فيتعلق قلبه بها ؛ فهذا أول إفساده له ؛ وأما ما يترتب عليه بعد ذلك فأكثر من أن يذكر .

(٧) وفي نسخة أخرى : « رجاء تقويتها ، فإن تكسير أجزائها ربما تفتتها وتكسرها . . »

(٨) أي برهاناً جلياً لا يحتاج إلى تقريره ببرهان آخر .

وقد ذكر المصنف في الجام العوام كلاماً نفيساً قال فيه : « إن لم ينصرف قلب العامي عن التفكر لتشوّفه إلى البحث فما طريقه ؟ =

فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى ، من عوام الناس ، بعقيدة المتكلمين والمجادلين ، فترى إعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ ، لا تحركه الدواهي والصواعق ، وعقيدة المتكلم الحارس إعتقاده بتقسيمات الجدل[1] ، كخيط مرسل في الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا ، إلا من سمع منهم دليل الإعتقاد فتلقفه[2] تقليدا ، كما تلقف نفس الإعتقاد تقليدا ، إذ لا فرق في التقلد بين تعلم الدليل أو تعلم المدلول[3] ، فتلقين الدليل شيء والإستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه .

ثم الصبي اذا وقع نشوه على هذه العقيدة ، إن اشتغل بكسب الدنيا ،

= ثم أجاب قائلا : طريقه أن يشغل نفسه بالعبادة وقراءة القرآن والذكر ، وإن لم يقدر فيعلم آخر لا يناسب هذا الجنس من لغة ، أو نحو ، أو حساب ، أو طب ، أو فقه ، فإن لم يمكنه فبحرفة أو صناعة ؛ ولو الحراثة أو الحياكة ، فإن لم يقدر فيلعب ، أو لهو ، فإن لم يقدر فيحدث نفسه ، هول القيامة والحشر والنشر والحساب ، وكل ذلك خير له من الغوص في هذا البحر البعيد عمقه ، العظيم خطره وضرره ، بل لو اشتغل العامي باللهو لا بالعبادات البدنية ربما كان أسلم له من أن يخوض في البحث عن معرفة الله تعالى ، فإن ذلك عاقبته الفسق ، وهذا عاقبته الشرك ، و « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

ثم استطرد رضي الله عنه يقول :

« وما أحدثه المتكلمون من تفسير وسؤال وتوجيه أشكال ، ثم إشتغاله بحله فهو بدعة وضرره في حق عموم الخلق ظاهر ، فهذا الذي ينبغي أن يتوقى ، والدليل على تضرر الخلق به المشاهدة والتجربة ، وما ثار من الفتن بين الخلق منذ نبغ المتكلمون ، وفشا صناعة الكلام مع سلامة العصر الأول عن مثل ذلك ، ودليله : أنهم ما خاضوا في ذلك ولا سلكوا مسلك المتكلمين في تقسيماتهم وتدقيقاتهم لا لعجز منهم عن ذلك ، ولو علموا أن ذلك نافع لا أطنبوا فيه وخاضوا في تحرير الأدلة خوضاً يزيد على خوضهم في مسائل الفرائض » اهـ .

(١) بتقسيمات الجدل وأنواعه ، بالأدلة العقلية الجدلية .

(٢) أي تلقاه وتلقفه .

(٣) أي المدلول الذي أقيم عليه ذلك الدليل .

لم ينفتح له غيرها[1]، ولكنه يسلم في الآخرة بإعتقاد أهل الحق[2] ، إذا لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد ، فأما البحث والتفتيش ، وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلا[3] . وإن أراد أن يكون من

---

(١) كالتجارة والفلاحة وغيرهما من الصنائع والحرف ، لم ينفتح له غيرها ، لعدم انتقاله منها إلى حالة أخرى منها .

(٢) وفي نسخة أخرى : بإعتقاد الحق . والمراد أنه سلم في الآخرة عن المؤاخذة والمعاتبة بإعتقاده الحق المطابق للواقع ، كما أشار إلى ذلك غير واحد من الأئمة .

(٣) ومن شاهد أحوال الأولين انكشف له الأمر ، يقول الإمام الغزالي رضي الله عنه في كتاب الإملاء :

« إن أهل الإعتقاد المجرد عن تحصينه بالعلم وتوثيقه بالأدلة ، ينقسمون من وجه على ثلاث حالات :

الأولى : أن يعتقد أحدهم جميع أركان الإيمان على ما يكمل عليه في الغالب ، لكنه على طريق التقليد .

الثانية : أن لا يعتقد إلا بعض الأركان مما فيه خلاف ، إذا انفرد ولم ينضف إليه من إعتقاده سواه ، هل يكون به مؤمناً أو مسلمًا ، مثل أن يعتقد وجود الواحد فقط ، أو يعتقد أنه موجود حي لا غير ، وأمثال هذه التقريرات ، ويخلو عن إعتقاد باقي المصنفات خلواً كاملاً لا يعتقد فيها حقاً ولا باطلاً .

الثالثة : أن يعتقد الوجود كما قلناه ، أو الوجود والوحدانية ، والحياة، وفي باقي الصفات ، على ما لا يوافق الحق بما هو بدعة أو ضلالة ، وليس بكفر صراح .

والذي يدل عليه العلم ، ويستنبط من ظواهر الشرع ، أن أرباب الحالة الأولى على سبيل نجاة ، ووصف إيمان وإسلام ، وأما أهل الحالة الثانية : فالمتقدمون من السلف لم يشتهر عنهم في صورة هذه المسألة ما يخرج صاحب هذه العقيدة عن حكم الإيمان والإسلام . والمتأخرون مختلفون ، وكثير خاف أن يخرج من إعتقاد وجود الله تعالى ، وإظهار الإقرار به ونبيه ﷺ من الإسلام ، ولا يبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرعيات ، وضعفاء النساء والإتباع ، هذا عقده بلا مزيد عليه .

ولو سئلوا واستكشفوا عن الله عز وجل ، هل له إرادة ، أو كلام ، أو بقاء ، أو ما شاكل ذلك ؟ وهل له صفات معنوية ليست هي هو ، ولا هي غيره ، ربما وجدوا يجهلون ذلك ولا يعقلون وجه ما يخاطبون به ، وكيف يخرج من إعتقد وجود الله تعالى ، ووحدانيته تعالى ، مع الإقرار بالنبوة من =

سالكي طريق الآخرة ، وساعده التوفيق ، حتى اشتغل بالعمل ، ولازم التقوى ، ونهى النفس عن الهوى ، واشتغل بالرياضة والمجاهدة ، انفتحت له أبواب من الهداية ، تكشف عن حقائق هذه العقيدة [1] ، بنور آلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقا لوعده عز وجل إذ قال :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والمقربين ، وإليه الإشارة بالسر الذي وقر في صدر أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حيث فضل به الخلق [3] .

= حكم الإسلام ، والنبي ﷺ ، قد رفع القتال والقتل عنهم ، فأوجب حكم الإيمان والإسلام لمن قال : لا إلـه إلا الله ، وعقد عليها ؛ وهذه الكلمة لا تقتضي أكثر من إعتقاد الوجود والوحدة في الظاهر وعلى البديهة من غير نظر ؛

ثم سمعنا عمن قالها في صدر الإسلام ولم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة ، وهيئات الأعمال البدنية ، والكف عن أذى المسلم ؛

ولم يبلغنا أنهم تدارسوا علم الصفات وأحوالها ، ولأهل الله عالم بعلم ، أو عالم بنفسه ، أو هو باق ببقاء ، أو بنفسه ، وأشباه هذه المعارف .

ولا يدفع ظهور هذا إلا معاند أو جاهل بسيرة السلف ، وما جرى بينهم ، ويدل على قوّة هذا الجانب في الشرع أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه وأبى أن يذعن إلى تعلم ما زاد على ما عنده ، لم يفت أحد بقتله ولا باسترقاقه ، والحكم عليه بالخلود في النار ، عسير جداً وخطر عظيم ، مع ثبوت الشرع ، بأن من قال : « لا إله إلا الله دخل الجنة » اهـ .

(١) وتفصح عن رموزها وأسرارها .

(٢) سورة العنكبوت (٢٩) آية (٦٩). والمراد من المعية في الآية : إن الله سبحانه معهم بالنصر والإعانة والتوفيق .

(٣) كما جاء في الحديث النبوي الصحيح : « ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ، ولا بكثرة صيام ، ولكن بسر وقر في صدره .

أما المقربون : فهم أرباب المقام الثالث في التوحيد ، وهؤلاء رأوا علامة الحدوث في المخلوقات =

وانكشاف ذلك السر[1] ، بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن ، في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى ، وفي الإستضاءة بنور اليقين[2] ، وذلك كتفاوت الخلق في أسرار الطب والفقه وسائر العلوم ، إذ يختلف ذلك بإختلاف الإجتهاد ، وإختلاف الفطرة، في الذكاء والفطنة[3] ، وكما لا تنحصر[4] تلك الدرجات فكذلك هذه[5] .

= لائحة ، وعاينوا حالات الإفتقار إلى الله عز وجل واضحة ، وسمعوا جميعها تدل على التوحيد راشدة ناصحة ، ثم رأوا الله عز وجل بإيمان قلوبهم ، وشاهدوه بغيب أرواحهم ، ولاحظوا جلاله وجماله بخفى أسرارهم ؛ وهم مع ذلك في درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم في اليقين ، وصفاء القلب . وأما الصديقون : فهم أهل المرتبة الرابعة في التوحيد ، وهؤلاء رأوا الله عز وجل ، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك فلم يروا في الدارين غيره ، ولا أطلعوا في الوجود على سواه ؛

والمريدون في الغالب لا بد لهم أن يحلو في المرتبة الثالثة ، وهي توحيد المقربين ، ومنها ينتقلون وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة .

وأما المرادون : فهم في الغالب مبتدئون بمقامهم الأخير ، وهي المرتبة الرابعة ، ومتمسكنون فيها ، ومن أهل هذا المقام يكون القطب ، والأوتاد ، والبدلاء ، ومن أهل المرتبة الثالثة ، يكون النقباء والنجباء والشهداء والصالحون .

(١) الذي سبق حضرة الصديق به في سيرة الناس وهو : رؤية الله وحده وعدم رؤية الأشياء قبله .

(٢) بنور القين ، والمعرفة والعقل ، وفي عمارة السر بمشاهدة المحبوب .

(٣) وإتقاد الباطن ، وانقسام كل منهم في الحالين كانقسام حفاظ القرآن مثلا ، فمن حافظ لبعضه ، ويكون ذلك البعض أكثر أو كثيراً منه دون كماله ، ومن حافظ لجميعه لكنه متلعثم فيه ، ومن حافظ له ماهر في تلاوته غير متوقف فيه .

(٤) وفي نسخة أخرى : فكما لا تنحصر . . . الخ

(٥) وكل على قدر حظه منه بما أتيح له من الأزل ، وبسبب اختلاف تلك الدرجات ، اختلفت أحوالهم ، والحاصل مما سبق من كلام المصنف :

أن الصبيان والعوام لا ينبغي أن يلقنوا بأكثر مما ذكر في العقيدة المختصرة ، فإن فيها مقنعاً لهم وزجراً عن الوقوع فيما يضرهم ، وفي معنى العوام كل من لا يوصف بهذه الصفات ، وهي التجرد =

مسئلة

فإن قلت: تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم ، أو هو مباح[1] ، أو مندوب إليه ؟

فاعلم أن للناس في هذا غلوا وإسرافا[2] في أطراف : فمن قائل إنه بدعة وحرام[3] ، وأن العبد إن لقي الله عز وجل بكل ذنب سوى[4] الشرك ، خير له من أن يلقاه بالكلام[5] .

ومن قائل أنه واجب ، وفرض إما على الكفاية[6] أو على الأعيان ، وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات ، فإنه تحقيق لعلم التوحيد[7] ، ونضال عن دين الله تعالى[8] .

= لطلب المعرفة والإستعداد لها والخلو عن الميل إلى الدنيا والشهوات والتعصبات للمذاهب ، وطلب المباهاة بالمعارف والتظاهر بذكرها مع العوام .

(١) ومعنى المباح : هو ما يثاب الإنسان على فعله ، ولا يعاقب على تركه .

(٢) والمراد بالغلو : التجاوز عن الحدّ ، والإسراف : الإبعاد في المجاوزة عنه .

(٣) وعليه فإنه لا يحل الإشتغال به .

(٤) وفي نسخة أخرى : بكل ذنب خلا الشرك . . . الخ

(٥) وهو قول الإمام الشافعي رضي الله عنه .

(٦) وهو قول أكثر المتأخرين من المتكلمين ، أما من قال : فرض على الأعيان ، فهذا هو أبعد الأقوال ، فإن الله سبحانه وتعالى ، لم يفرض على كل إنسان أن يكون متكلمًا جدلًا .

(٧) الذي هو متضمن على معرفة وحدانية الله تعالى ، بما يليق بذاته وصفاته .

(٨) يرد شبه المخالفين ، وإبطال براهين الزائفين ، والواجب العيني في التوحيد ما يخرج المكلف من التقليد إلى التحقيق ، وأقله معرفة كل عقيدة بدليل ولو جميلا ، والكفائي فيه ما يقتدر معه على تحقيق مسائله ، وإقامة الأدلة التفصيلية عليها ، وإزالة الشبه عنها ، إذ يجب كفاية على أهل كل قطر يشق الوصول منه إلى غيره أن يكون فيهم من هو متصف بذلك ، ولا يخفي أن حصول ذلك متوقف على تعلم علم الكلام .

هذه خلاصة وجهة نظر القائلين بوجوب تعلم علم الكلام .

وإلى التحريم ذهب[١] الشافعي ومالك واحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف .

قال ابن عبد الأعلى[٢] رحمه الله :

سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم[٣] ناظر حفصا الفرد وكان من متكلمي المعتزلة[٤] يقول :

« لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام[٥] .

---

(١) وفي نسخة أخرى : وإلى التحريم ذهب الأئمة الأربعة ، أبو حنيفة والشافعي . . . الخ

(٢) وفي نسخة أخرى : قال أبو عبد الأعلى ، وهو يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة الصوفي أبو موسى المصرى ، الفقيه ، المقرى ، ولد سنة ١٧٠ هـ وسمع الحديث عن أبن عينيه وإبن وهب والوليد بن مسلم ومنصور بن عيسى ، والشافعي ، وإختص به ؛
روى عنه مسلم ، والنسائي ، وإبن حاجة ، وأبو عوانه ، وأبو الطاهر المدني وخلق . انظر إتحاف السادة المتقين جـ٢ ص ٤٧ .

(٣) وفي نسخة أخرى : سمعت الشافعي رحمه الله تعالى يقول يوماً وقد ناظر حفصاً . . . الخ

(٤) وحفص هذا يلقب بالفرد ، تفقه على الإمام أبي يوسف ، وكان من أصحابه ، ثم مال إلى رأى المعتزلة ، وصار يناضل عنهم ، حتى صار من متكلميهم .
وقال الربيع : كان الشافعي يقول : حفص المنفرد ، ولا يقول : الفرد .

(٥) ونص هذه العبارة في نسخة أخرى هكذا :
« لأن يلقى الله تعالى العبد بكل خطيئة ما خلا الشرك ، خير له من أن يلقاه بشيء من الكلام »
وروى هذا القول عن الإمام الشافعي من وجوه ؛
أخرجه إبن أبي حاتم في كتاب المناقب له قال : سمعت الربيع قال : أخبرني من سمع الشافعي يقول : « لأن يلقى الله المرء بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء »
رواه غير واحد عن الربيع ، أنه سمع الشافعي يقول .
وقال إبن خزيمة : سمعت الربيع لما كلم الشافعي حفصاً الفرد ، فقال حفص : القرآن مخلوق فقال له الشافعي : كفرت بالله العظيم .
ورواه إبن أبي حاتم عن الربيع ، حدثني من أثق به وكنت حاضراً في المجلس فساقه .

ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه[1] .

وقال ايضاً : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ، ما ظننته قط[2] ، ولأن يبتلي العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك ، خير له من أن ينظر في الكلام[3] .

وحكى الكرابيسي ، أن الشافعي رضي الله عنه ، سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه أخزاهم الله[4] .

ولما مرض الشافعي رضي الله عنه ، دخل عليه حفص الفرد فقال له[5] من أنا . .

فقال حفص الفرد : لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه[6] .

---

(١) وهو قوله : القرآن مخلوق .

(٢) أخرجه اللالكائي من رواية عبد الرحمن بن أبي حاتم ، حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال : قال لي الشافعي :

« تعلم يا أبا موسى : لقد اطلعت من أصحاب الكلام على شيء ، ما ظننت أن مسلمًا يقول ذلك »

(٣) أخرجه أبو نعيم عبد الملك بن محمد الجرجاني ، يقول سمعت الربيع يقول سمعت الشافعي يقول وناظره رجل من أهل العراق ، فخرج إلى شيء من الكلام فقال : هذا من الكلام دعه ، قال : وسمعت الشافعي يقول : لأن يبتلي الله المرء بكل ذنب نهى الله عنه ، ما عدا الشرك به خير له من الكلام .

(٤) الكرابيسي : هو الحسين بن علي أبو علي ، كان من متكلمي أهل السنة ، أستاذاً في علم الكلام كما هو أستاذ في الحديث ، والفقه ، وكان الإمام أحمد يتكلم فيه بسبب مسألة اللفظ وهو أيضاً كان يتكلم في الإمام أحمد ، فلذلك تجنب الناس الأخذ عنه .

(٥) وفي نسخة أخرى : وقال من أنا . . .

(٦) أي من القول بخلق القرآن .

وأخرج اللالكائي في السنة ، من رواية محمد بن يحيى بن آدم المصري أخبرنا الربيع قال : سمعت أبا شعيب قال :

=

وقال ايضاً : لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الاسد[1] .

وقال أيضا إذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له[2] .

قال الزعفراني[3] قال الشافعي حكمى في أصحاب الكلام ، أن يضربوا بالجريد ، ويطاف بهم في القبائل والبشائر ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام[4] .

= « حضرت الشافعي ، وحفص الفرد سأل الشافعي ، فاحتج عليه بأن كلام الله غير مخلوق ، وكفر حفص المنفرد ، قال الربيع : ولقيته فقال أراد الشافعي قتلي .

(١) رواه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال سمعت الشافعي يقول فساقه إلا أنه قال في الأهواء بدل من الأهواء ، هكذا هو في نسخه إبن كثير .

وأخرج اللالكائي من رواية عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : قال الحسن بن عبد العزيز الجروي قال : كان الشافعي ينهى النهي الشديد عن الكلام في الأهواء .

ويقول أحدهم : إذا خالفه صاحبه قال : كفرت ، والعلم فيه إنما يقال أخطأت .

وقال إبن كثير : قال محمد بن إسماعيل الكرابيسي ، يقول : قال الشافعي :

« كل متكلم على الكتاب والسنة فهو الجد ، وما سواه فهو هذيان »

(٢) أخرجه إبن عبد البر في كتاب العلم ولفظه : قال يونس بن عبد الأعلى ، سمعت الشافعي يقول « إذا سمعتم الرجل يقول : الإسم غير المسمى ، أو الإسم المسمى ، فاشهدوا عليه أنه من أهل الكلام ولا دين له .

قال إبن السبكي : وهذا وأمثاله مما روى في ذم الكلام ، وقد روى ما يعارضه .

وللحافظ إبن عساكر في التبيين على أمثال هذه الكلمة كلام لا مزيد على حسنه .

(٣) هو الحسن بن محمد بن الصلاح ، أبو علي البغدادي .

(٤) وهذا رواه أبو ثور عن الشافعي إلا أنه فيه : وأقبل على الكلام مكان وأخذ في الكلام .

وأخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث من رواية زكريا بن يحيى البصري ، حدثنا محمد بن إسماعيل سمعت أبا ثور والحسين بن علي يقولان ، سمعت الشافعي يقول : فساقه ؛ وزاد بعد =

وقال أحمد بن حنبل :

لا يفلح صاحب الكلام ابداً ، ولا تكاد ترى أحدا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل[1] .

وبالغ في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي ، مع زهده وورعه[2] بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة[3] ، وقال له ويحك ألست تحكى بدعتهم[4] أولا ، ثم ترد عليهم ؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر

= قوله بالجريد : ويحملوا على الإبل . وقال أبو نعيم بن عدي وغيره : قال داود بن سليمان عن الكرابيسي ، سمع الشافعي يقول : « حكمي في أهل الكلام حكم عمر في ضبيغ » .

وأخرج إبن أبي حاتم عن الربيع قال : رأيت الشافعي وهو نازل من الدرجة ، وقوم في المسجد يتكلمون بشيء من الكلام فصاح فقال : إما أن تجاورونا بخير ، وإما أن تقوموا عنا » .

وهذه الآثار وغيرها تدل دلالة قاطعة على أن الإمام الشافعي كان شديد النهي عن علم الكلام .

(١) وفي نسخة أخرى : إلا وفي قلبه غل : وهو تدع الخيانة والعداوة .

(٢) وتقواه وجمعه بين علمي الظاهر والباطن والحارث المحاسبي ، هو الحارث بن أسد المحاسبي .

وكنيته : أبو عبد الله ، نشأ بالبصرة ، واستمر بها سنوات ، ثم ذهب إلى بغداد ، واستقر به المقام فيها ، ولم يؤرخ لمولده ، ولكنه توفي عام ٢٤٣ هـ .

وذكر المؤرخون أن المحاسبي حينما توفي والده لم يأخذ شيئاً من ميراثه في أبيه تورعاً ، لأن والده كان يقول القدر .

(٣) من المعتزلة والرافضة ، فإن الإمام أحمد كان يشدد النكير على من يتكلم في علم الكلام خوفاً أن يجر ذلك إلى ما لا ينبغي ؛ ولا شك أن السكوت عنه ما لم تدع إليه الحاجة أولى ، والكلام فيه عند فقد الحاجة بدعة .

وكان الحارث قد تكلم في مسائل من علم الكلام ، قال أبو القاسم النصر أباذى :

بلغني أن الإمام أحمد هجره بهذا السبب ، وقال له الإمام أحمد : لما أنكر عليه تلك المقالات وأجابه الحارث ، بأنه ينصر السنة ، ويرد على البدعة .

(٤) أي أقوالهم التي أحدثوها بدلائلها وبراهينها .

في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث[1] .

وقال أحمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة[2] .

وقال مالك رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعني أن أقوال المتجادلين تتفاوت[3] .

وقال مالك رحمه الله أيضا :

« لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء[4]، فقال بعض أصحابه في تأويله

---

(١) وفي نسخة أخرى : فيدعوهم فعلهم ذلك إلى الرأي والبحث .

والمراد من هذا : البحث في مسائل الإعتقاد ، فكأنه قصد بذلك سدّ هذا الباب رأساً ، وكل منهما من رؤساء الأئمة وهداة هذه الأمة .

والظن بالإمام الحارث المحاسبي : أنه إنما تكلم حيث دعت الحاجة ، ولكل مقصد ، والله يرحمهما .

(٢) قال الأزهري : زندقة الزنديق : أنه لا يؤمن بالآخرة ، ولا بوحدانية الخالق .

وقال غير : المشهور : أن الزنديق هو الذي لا يتمسك بشريعة ، ويقول بدوام الدهر ؛وتعبر العرب عن هذا بقولهم : ملحد أي طاعن في الأديان .

(٣) أي فلا يعتمد على تلك الأقوال ، لكونها في معرض الإزالة بما هو أقوى .

وأخرج اللالكائي في السنة من رواية الحسن بن علي الحلواني قال : سمعت إسحق بن عيسى يقول : قال مالك بن أنس :

كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدله .

وأخرج من رواية محمد بن حاتم بن بزيغ قال سمعت إبن الطباع يقول :

جاء رجل إلى مالك بن أنس فسأله عن مسألة فقال : قال رسول الله ﷺ : كذا ، فقال : أرأيت لو كان كذا ، قال مالك :

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم »

قال وقال مالك : أو كلما جاء رجل أجدل من رجل آخر ، رد ما أنزل جبريل على محمد ﷺ .

(٤) إذا كانت بدعتهم تحمل على الكفر والخروج من الدين .

إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا[١] .

وقال أبو سيف[٢] : من طلب العلم بالكلام تزندق[٣] .

وقال الحسن : لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم[٤] ولا تسمعوا منهم وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا[٥] ؛ ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه . وقالوا : ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الالفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه الشر[٦]

ولذلك : قال النبي ﷺ . .

---

(١) لما ينشأ منه من التحاسد والتباغض والعصبية والأغراض الفاسدة ، وهذا الذي ذكره المؤلف من السياقين : إنما دلالتها على المقصود بطريق المفهوم ، كما لا يخفى .
وفي كتاب السنة قال مصعب : بلغني عن مالك بن أنس أنه كان يقول : الكلام في الدين كله أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا ـ المدينة ـ ينهون عن الكلام في الدين ولا أحسب الكلام إلا فيما كان تحته عمل ، وأما الكلام في الله فالسكوت عنه .

(٢) هو يعقوب بن إبراهيم القاضي الأنصاري ، وهو الإمام المقدم من أصحاب الإمام أبي حنيفة .

(٣) وأخرج أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الخطيب بسنده يقول : سمعت أبا يوسف يقول :
« من طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب الدين بالكلام تزندق »
وأورده أيضاً الذهبي في التاريخ ، والخطيب في شرف أصحاب الحديث .

(٤) وفي نسخة أخرى « لا تجالسوا أهل الأهواء ، ولا تجادلوهم » .

(٥) من السلف الصالحين على الذي ذكر من ذم علم الكلام والنهي عن الإشتغال به وأجمعوا عليه .

(٦) أخرج البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :
« ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة سؤالهم وإختلافهم على أنبيائهم ، فما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » .
قال : قال ذلك : ثلاثاً .

« هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون هلك المتنطعون ؟» أي المتعمقون في البحث والإستقصاء[١] .

واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ[٢] ويعلم طريقه ويثني عليه وعلى أربابه[٣] .

فقد علمهم الإستنجاء وندبهم[٤] إلى علم الفرائض[٥] وأثنى عليهم[٦]

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في القدر أو أخرجه الإمام أحمد في القدر أيضاً ، وأبو داود في السنة وليس عندهما ذكره ثلاث مرات ، كلهم عن ابن مسعود رضي الله عنه رفعه .
والمعنى كما قال الزمخشري في الفائق
« أراد النهي عن التمادي والتلاحي في القرآات المختلفة ، وأن مرجعها إلى واحد من الحسن والصواب » . أهـ وقال الإمام النووي رضي الله عنه :
« فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة ، وإستعمال وحشي اللغة ، ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم » اهـ .
ويعجبني ما فصله الحافظ إبن حجر العسقلاني بقوله :
« قال بعض الأئمة : التحقيق أن البحث عما لا يوجد فيه نص قسمان :
أحدهما : أن يبحث في دخوله في دلالة النص على إختلاف وجوهها ، فهذا مطلوب لا مكروه ، بل ربما كان فرضاً على من تعين عليه .
الثاني : أن يدقق النظر في وجوه الفروق فيفرق بين المتماثلين بغرق ولا أثر له في الشرع مع وجود وصف الجمع أو بالعكس ، بأن يجمع بين متفرقين بوصف طردي مثلاً ، فهذا الذي ذمه السلف وعابه ، وعليه ينطبق خبر : هلك المتنطعون ، فرأوا أن فيه تضييع الزمان بما لا طائل تحته » اهـ .
(٢) يأمر به أصحابه ، إذا هو مأمور بتبليغ أمور الدين .
(٣) وفي نسخه أخرى : ويعظم طريقه ، ويثنى على أربابه .
(٤) وذلك فيما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن سلمان رضي الله عنه .
(٥) فيما أخرجه إبن ماجه والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه :
« تعلموا الفرائض وعلموه الناس ، فإنه نصف العلم وهو ينسى ، وهو أول شيء ينزع من أمتى »
(٦) حيث قال : خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »
وقال في إفتراق الأمم : الناجية منهم واحدة ، فقيل من هم ؟ فقال : ما أنا عليه وأصحابي .

ونهاهم عن الكلام في القدر وقال : « أمسكوا عن القدر »[1] وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله[2] عنهم ، فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم ، وهم الأستاذون والقدوة ، ونحن الأتباع والتلامذة .

وأما الفرقة الأخرى[3] فاحتجوا بأن قالوا :

إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض ، وهذه الإصطلاحات الغريبة التي لم تعهدها[4] الصحابة رضي الله عنهم ، فالأمر فيه قريب ، إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه إصطلاحات لأجل التفهيم ، كالحديث والتفسير ، والفقه ، ولو عرض [5] عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع ، الى جميع الأسئلة التي تورد على القياس ، لما كانوا يفقهونه[6] فاحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كاحداث آنية على هيئة جديدة لإستعمالها في مباح .

---

(١) أخرج الطبراني في معجمه الكبير ، عن إبن مسعود رضي الله عنه ، وعن ثوبان وإبن عدى في الكامل عن عمر بن الخطاب رفعوه :

« إذا ذكر أصحابي فامسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فامسكوا ، وإذا ذكر القدر فامسكوا » وذلك لما في الخوض في الثلاثة من المفاسد التي لا تحصى ، وقال البغوي : « القدر سرّ الله ، لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً ، لا يجوز الخوض في البحث عنه من طريق العقل ، بل يعتقد أنه تعالى خلق الخلق فجعلهم فريقين : أهل يمين خلقهم للنعيم فضلا ، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً » .

(٢) أخرج الزبيدي بسنده أنه سأل رجل علياً كرم الله وجهه عن القدر فقال :

« طريق الظلم لا تسلكه ، فأعاد فقال : بحر عميق لا تلجه ، فأعاد فقال سر الله قد خفى عليك فلا تفشه » .

(٣) وهم القائلون بوجوب الإشتغال بعلم الكلام .

(٤) وفي نسخة أخرى : لم يعهدها الصحابة . . . الخ .

(٥) وفي نسخة أخرى : فلو عرض عليهم . . . . الخ

(٦) وفي نسخة أخرى : لما كانوا يفهمونه . والمعنى : لما كانوا يفهمونه إذ لم يعهدوا ذلك ولا ألفوه .

وإن كان المحذور هو المعنى[1] فنحن لا نعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته ، كما جاء في الشرع ، فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ؟[2] .

وإن كان المحذور هو التشغب[3] والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضى إليه الكلام[4] ، فذلك محرم[5] ، ويجب الإحتراز عنه ، كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضي إليه علم الحديث والتفسير والفقه ، وهو محرم يجب الإحتراز عنه ، ولكن لا يمنع من العلم[6] لأجل آدئه إليه، وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظوراً ، وقد قال الله تعالى . .

﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾[7] .

وقال عز وجل :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[8] .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَـٰذَآ ﴾[9] - أي حجة وبرهان .

---

(١) هو المعنى المقصود لذاته .

(٢) وهو المطلوب بهذا الوجه .

(٣) أي المخاصمة ورفع الأصوات .

(٤) من إلزام مذهب الخصم ، وتكثير الآراء الوهمية فيه .

(٥) محرم إتفاقاً ولا نقول بجوازه في حال من الأحوال .

(٦) والإشتغال به ، والسعي في تحصيله .

(٧) الآية : (١١١) من سورة البقرة (٢) ، والمراد أنه طلب منهم البرهان .

(٨) الآية : (٤٢) من سورة الأنفال (٨) .

والمراد : أنه جعل الهلاك الذي هو كناية عن الإنهزام والمغلوبية والحياة التي هي كناية عن الظفر بالغلبة مقصودين على البينة .

(٩) الآية : (٦٨) من سورة يونس (١٠) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْراهِيْمَ فِي رَبِّهِ . . . ﴾[2] الى قوله :

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾

إذ ذكر سبحانه إحتاج إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصمه[3] في معرض الثناء عليه[4] .

---

(١) الآية (١٤٩) من سورة الأنعام (٦) ، ومعنى الحجة البالغة الكافية ، أو المنتهية في التوكيد والبلاغ وقيل : المراد بالحجة هنا الكلام المستقيم .

(٢) الآية : (٢٥٨) من سورة البقرة (٢) ، والمعنى : خاصمه فيه بطلب الإحتجاج على ربوبيته جل وعز والبهت : التحير والدهش ، والمراد هنا إنقطاع الحجة .

(٣) خصمه : وهو النمروذ ملك زمانه ، وكان يدعي الإلهية .

(٤) في معرض الثناء عليه والمدح له ، وهنا ناسب أن نذكر ، أن لسيدنا إبراهيم عليه السلام في الإحتجاج مقامات :

أحدها : مع نفسه وهو قوله تعالى : ﴿ **فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي** ﴾ . . الخ الآية .

وهذا طريق المتكلمين ، فإنه استدل بأفولها وتغيرها على حدوثها ، ثم إستدل بحدوثها على وجود محدثها .

وثانيها : حاله مع أبيه وهو قوله : ﴿ **يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً** ﴾ . . الخ الآيات .

وثالثها : حاله مع قومه تارة بالقول وتارة بالفعل .

أما القول فهو قوله : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون .

وأما الفعل فقوله : فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم .

ورابعها : حاله مع ملك زمانه وهو الذي ذكره المصنف ، ثم إنه عليه السلام لما استدل بحدوثها على وجود محدثها كما أخبر الله تعالى عنه في قوله : ﴿ **يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض** ﴾ عظم شأنه بذلك .

وقال عز وجل : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾[1]

وقال تعالى : ﴿ قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾[2] .

وقال تعالى : في قصة فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلعَالَمِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِيْنٍ ﴾[3] .

وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار[4] .

---

(١) الآية : (٨٣) من سورة الأنعام (٦) ، ترفع درجات من تشاء ، فهذه رفعة بعلم الحجة .

(٢) الآية : (٣٢) من سورة هود (١١) .
والمراد : أنه معلوم أن مجادلة الرسول مع الكفار لا تكون في تفاصيل الأحكام الشرعية ، فلم يبق إلا أنها كانت في التوحيد والنبوة .

(٣) الآية (٢٣) إلى الآية (٣٠) من سورة الشعراء (٢٦) .
ولتوضيح المراد نذكر أن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، ما كان يقول في الإستدلال بزيادة على دلائل إبراهيم عليه السلام ؛
وذلك لأنه حكى الله تعالى عنه في سورة طه ، أن فرعون قال له ولهارون : فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؛ وهذا هو الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام حيث قال : « الذي خلقني فهو يهديني » ثم حكى الله تعالى عن موسى في الشعراء ، أنه قال لفرعون : « ربكم ورب آباكم الأولين » ، وهذا هو الدليل الذي عّول عليه إبراهيم عليه السلام في قوله : « ربي الذي يحيي ويميت » .
فلما لم يكتف فرعون بذلك وطالبه بدليل آخر قال موسى : « رب المشرق والمغرب » ، وهذا هو الذي عوّل عليه إبراهيم عليه السلام في قوله : « فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » .
ثم إن موسى عليه السلام ، لما فرغ من تقدير دلائل التوحيد ذكر بعده دلائل النبوة فقال : « أولو جئتك بشيء مبين » .
وهذا يدل على أنه عليه السلام فرع بيان النبوة على بيان التوحيد والمعرفة .

(٤) وفي نسخة أخرى : « محاجة الكفار »
والمراد أنه مملوء من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل ألتوحيد ، وإثبات الصانع ، والمعاد =

فعمدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1]

وفي النبوة : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[2] .

وفي البعث : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنْشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[3] ، إلى غير ذلك من الآيات والأدلة[4].

= وإرسال الرسل ، وحدوث العالم ، فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلك ، إلا وهو في القرآن بأفصح عبارة ، وأوضح بيان ، وأتم معنى وأبعده عن الإيراد والأسئلة ، وقد إعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين .

(١) الآية (٢٢) من سورة الأنبياء (٢١)

(٢) الآية : (٢٣) من سورة البقرة (٢)

(٣) الآية : (٧٩) من سورة يس (٣٦) .

(٤) وحاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة فالقرآن والأخبار مشتملة عليه ، وما خرج عنها فهو إما مجادلة مذمومة ، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق ، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها توهمات . ويعجبني ما ذكره الإمام الفخر الرازي في كتابه : « أقسام اللذات ، إذ يقول :

« لقد تأملت الكتب الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطريق ، طريق القرآن ، إقرأ في الأثبات : « إليه يصعد الكلم الطيب » ، « الرحمن على العرش استوى »

وإقرأ في النفي : « ليس كمثله شيء »

« ومن جرب مثل تجربتي ، عرف مثل معرفتي » أهـ

ويعلق الإمام إبن القيم على هذا فيقول :

« وهذا الذي أشار إليه بحسب ما فتح له من دلالة القرآن بطريق الخبر ، وإلا فدلالته البرهانية العقلية التي يشير إليها ، ويرشد إليها ، فتكون دليلاً سميعاً عقلياً ، أمر تميز به القرآن ، وصار العالم به من الراسخين في العلم ، وهو العلم الذي يطمئن إليه القلب ، وتسكن عنده النفس ، ويزكو به العقل ، وتستنير به البصيرة ، وتقوى به الحجة ، ولا سبيل لأحد من العالمين ، إلى قطع =

ولم تـزل الـرسـل صـلوات الله عليـهم ، يحـاجـون المنكـريـن ويجادلونهم[1] ، قال تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[2] .

فالصحابة رضي الله عنهم أيضاً ، كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة ، وكانت الحاجة إليه قليلة في زمانهم[3] .

وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق علي بن ابي طالب رضي الله

= من حاج به ، بل من خاصم به فلحت حجته ، وكسر شبهة خصمه ، وبه فتحت القلوب ، وإستجابت لله ولرسوله ، ولكن أهل هذا العلم لا تكاد الأعصار تسمح منهم إلا بالواحد بعد الواحد ، فدلالة القرآن سمعية عقلية قطعية يقينية ، لا تعترضها الشبهات ، ولا تتداولها الإحتمالات ، ولا ينصرف القلب عنها بعد فهمها أبداً » اهـ

(١) أولهم آدم عليه السلام ، وقد أظهر الله الحجة على فضله بأن أظهر علمه على الملائكة ، وذلك محض الإستدلال ، ومحاجة نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام ، ولسيدنا سليمان عليه السلام مقامان أحدهما : في إثبات التوحيد ، والآخر في إثبات النبوة .

وعيسى عليه السلام فإنه أول ما تكلم شرح أمر التوحيد فقال : إني عبد الله ، وشهادة حاله كانت دالة على صدق مقالته ، وقد دلت على التوحيد والنبوة وبراءة أمه راداً بذلك على اليهود الطاعنين فيها .

أما نبينا ورسولنا ﷺ فمحاجته مع الكفار أظهر من أن يحتاج فيه إلى مزيد تقرير كالدهرية ، ومثبتي الشريك على إختلاف الأنواع ، ونافي القدرة ، والطاعنين في أصل النبوة ، وخاصته في نبوته ، ﷺ بجميع أنوعه ، ومنكري الحشر .

(٢) الآية : (١٢٥) من سورة النحل (١٦) .

(٣) وفي نسخة أخرى : (كانوا يجادلون عند الحاجة ، وكانت الحاجة إليه قليلة في زمانه) والمراد من هذه العبارة أنه : لم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول ، ولكن لما تغير الآن حكمه ، إذ حدثت البدع الصارفة ، عن مقتضى القرآن والسنة لفقت لها شبهاً ، ورتبت لها كلاماً مؤلفاً ، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه ، وكذلك قوله تعالى : **﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾** .

والمقصود : أن مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه ، وكذا مناظراته ﷺ وأصحابه لخصومهم وإقامة الحجج عليهم لا ينكر ذلك إلا جاهل مفرط في الجهل .

عنه ، إذ بعث ابن عباس رضي الله عنهما الى الخوارج[١] فكلمهم فقال : ما تنقمون على إمامكم ؟

قالوا : قاتل ولم يسب ولم يغنم[٢] .

فقال : ذلك في قتال الكفار ، أرأيتم لو سبيت عائشة رضي الله عنها في يوم الجمل ، فوقعت عائشة رضي الله عنها ، في سهم أحدكم ، أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب ؟[٣] فقالوا : لا ، فرجع منهم إلى الطاعة بمجدلته الفان[٤] .

وروى أن الحسن ناظر قدريا فرجع عن القدر .

وناظر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية[٥] .

---

(١) وهم الحرورية الذين خرجوا على علي رضي الله تعالى عنه .

(٢) يعني : إن كان قتاله حقاً فلم ترك السبي والغنيمة ونهى عن ذلك ؟

(٣) حيث قال الله تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم . . . ﴾

(٤) وهذه القصة أوردها المؤلف مختصرة ، وهي بطولها في كتاب الحلية لأبي نعيم ، كما أخرجها أيضاً بتمامها الزبيدي في إتحاف السادة المتقين جـ ٢ ص ٥٥ .

(٥) أخرج الزبيدي في إتحاف السادة : أنه سأله رجل من الشام الإمام علي بن أبي طالب عن مسيره إليه ، أكان بقضاء الله وقدره ؟

فقال علي رضي الله عنه :

« والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما قطعنا وادياً ، ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقدر » .

فقال الشامي : عندي أحتسب عناك ، ما أرى لي من الأجر شيئاً .

فقال علي : بلى أيها الشيخ ، قد عظم لكم الأمر على مسيركم وأنتم سائرون وعلى منصرفكم وأنتم منصرفون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ، ولا إليها مضطرين . فقال الشيخ : فكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا ، وعنهما كان مسيرنا . فقال علي : لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدراً حتماً ، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، والأمر والنهي ، من

وناظر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يزيد بن عميرة في الإيمان ، فقال عبد الله :لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة ،فقال له[1] يزيد بن عميرة : يا صاحب رسول الله هذه زلة منك ، وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ، ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة ، فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة ، فقال إبن مسعود : صدقت والله إنها مني زلة[2] .

فينبغي أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا ، وعند الحاجة[3] لا بطريق التنصيف والتدريس وإتخاذه صناعة[4] ، فيقال اما قلة خوضهم فيه فإنه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان[5] .

وأما القصر فقد كان الغاية إفحام الخصم ، واعترافه وإنكشاف الحق وإزالة الشبهة[6] فلو طال إشكال الخصم أو لجاجة لطال لا محالة إلزامهم[7] ، وما كانوا

= الله تعالى ، ولما كانت تأتي محمدة من الله لمحسن ، ولا مذمة لمسيء ، ولما كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء ، والمسيء بعقوبة الذنب أولى من المسحن ، تلك فعالة عبدة الأوثان ، وجنود الشيطان ، وخصماء الرحمن إن الله لم يعص مغلوباً ولم يطع مكرهاً ، ولم يرسل هزلا ، ولم ينزل القرآن عبثاً ، ولم يخلق السموات والأرض وعجائب الأمور باطلا ، فويل للذين كفروا .
فقال الشيخ : ما القضاء والقدر اللذان ما وطئنا موطئاً إلا بهما ، فقال علي : الأمر من الله والحكم فنهض الشيخ وهو مسرور . جـ ٢ ص ٥٦

(١) وفي نسخة أخرى : لقلت إني من أهل الجنة ، فقال إبن عميرة يا صاحب رسول الله . . . الخ

(٢) فرجع رضي الله عنه إلى قوله معترفاً على نفسه ، وهذا من إنصافه وميله إلى الحق الذي جبل عليه .

(٣) عند الحاجة إليه من دفع معاند أو إرشاد ضال .

(٤) يتميز بها عن غيره وإليها ينتسب .

(٥) أي الآراء المحدثة إنما ظهرت فيا بعد .

(٦) جمله وإزالة الشبهة لا توجد في النسخة الأخرى .

(٧) بدفع كل إشكال إشكال ، وأيضاً فإنهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة =

يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها[١] .

وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه ، فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضاً ، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على الندور[٢] ،أما إدخاراً ليوم وقوعها وإن كان نادراً ، أو تشحيذا للخواطر[٣] ، فنحن أيضا نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوان شبهة ، أو هيجان مبتدع ، او لتشحيذ الخاطر[٤] أو لادخار الحجة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والإرتجال[٥] كمن يعد السلام قبل القتال ليوم القتال . فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين[٦] التحقيق في حكم الجدل .

فإن قلت : فما المختار عندك[٧] فيه فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ ، بل لا بد فيه من تفصيل .

= محمد ﷺ ، وإلى إثبات الألهية مع الأصنام ، وإلى إثبات البعث مع منكريه ، ثم ما زادوا في هذه القواعد التي هي أمهات العقائد على أدلة القرآن ، فمن اتبعهم في ذلك قبلوه ، ومن لم يقنع قتلوه ، وعدلوا إلى السيف والسنان بعد إفشاء أدلة القرآن ، وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية ، وترتيب المقدمات واستنباطها وتحرير طرق المجادلة .

(١) ولا بقاعدة معلومة ، وإنما هو بحسب الوارد كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ، ومنبع التشويش ، وأن من لا تقنعه أدلة القرآن فلا يقنعه إلا السيف والسنان ، فما بعد بيان الله بيان .

(٢) وفي نسخة : (لا تتفق إلا مع البدور)

(٣) وفي نسخة أخرى : أو تشحيذاً للخاطر ، وفي نسخة ثالثة : أو لتشحيذ الخاطر .

(٤) العبارة التي ذكرها المصنف من أول قوله : « فنحن أيضاً نرتب طرق المجادلة . . . » إلى قوله أو لتشحيذالخاطر ، لا توجد في الأصل ، وإنما هي زيادة في نسخة أخرى .

(٥) يقال : بدهه بدها إذا بغته ، وسميت البديهة لأنها تبغت وتسبق ، والأرتجال اتيان الكلام من غير روية ولا فكر .

(٦) أي في الإحتجاج لكل منهما على جواز الإشتغال به وعدمه .

(٧) وفي نسخة أخرى : فما المختار فيه ، وفي نسخة ثالثة : فما المختار منه ، والمعنى : ما الذي تختاره وتذهب إليه .

فاعلم أولاً أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة ، وأعني بقولي لذاته أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسكار والموت . وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ، ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الإضطرار ، وإباحة تجرع الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ، ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر[1] وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الخيار ، والبيع وقت النداء[2] ، وكأكل الطين ، فإنه يحرم لما فيه من الأضرار . وهذا ينقسم إلى ما يضر قليله وكثيره[3] ، فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذي يقتل قليله وكثيره ، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل ، فإن كثيرة يضر بالمحرور ، وكأكل الطين[4] وكان إطلاق التحريم على الطين والخمر ، والتحليل على العسل ، التفات إلى أغلب الأحوال .

فإن تصدى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن والإلتباس أن يفصل ، فنعود إلى علم الكلام[5] ونقول: إن فيه منفعة وفي مضرة ، فهو بإعتبار منفعته في وقت الإنتفاع حلال او مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال[6] وهو بإعتبار مضرته في وقت الإستضرار ومحله حرام .

أما مضرته فإثارة الشبهات ، وتحريك العقائد ، وإزالتها عن الجزم

---

(١) وكان هذا إجواب عن سؤال مقدر يقول القائل : كيف يجوز إطلاق القول فيها بالحرمة مع أنهما قد يباحان في وقت ؟

فأجاب بأن ذلك نادر ولا حكم للنادر .

(٢) يعني وقت الأذان ، فكل منها ورد النهي عنهما في عدة أحاديث .

(٣) وهو أنواع كثيرة ما بين حيواني ونباتي ومعدني .

(٤) فإنه كذلك كثيرة يضر بالبدن .

(٥) إذ هو المقصود لذاته من هذا البحث .

(٦) وذلك بإعتبار مسيس الحاجة الشديدة وأشد منها .

والتصميم ، فذلك مما يحصل في الإبتداء[1] ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه[2] ويختلف فيه الأشخاص ، فهذا ضرره في الإعتقاد الحق .

وله ضرر آخر في تأكيد إعتقاد المبتدعة للبدعة ، وتثبيته في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم[3] ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب[4] الذي يثور من الجدل ، ولذلك ترى المبتدع العامي يمكن أن يزول إعتقاده باللطف في أسرع زمان[5] ، إلا إذا كان نشؤه في بلد يظهر فيها الجدل والتعصب ، فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره[6] ، بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولي على قلبه ويمنعه من إدراك الحق[7] حتى لو قيل له[8] : هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء[9] ، ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك ، لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه[10]، وهذا هو الداء العضال الذي استطار في البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب . فهذا ضرره .

---

(١) في إبتداء الأمر .

(٢) فإن المدلول إذا لم يصمم به لعروضه شبهة ، فالدليل عليه بطريق الأولى

(٣) وفي نسخة أخرى : في تأكيد إعتقاد المبتدعة وتثبيتها في صدورهم . . . الخ

(٤) يقصد بهذا التعصب للمذهب ، وطلب المباهاة بالمعارف والتظاهر بذكرها مع العوام .

(٥) لعدم رسوخه في قلبه .

(٦) لتمكنها فيه ورسوخها .

(٧): من إدراك الحق الصحيح ، ومن وصوله إلى قلبه .

(٨) وفي نسخه أخرى : وقيل له ، والمعنى : أنه لو قيل له بعد العجز عن إيصال ذلك إلى فهمه .

(٩) يكشف الله الغطاء ، والحجاب عن فهمك .

(١٠) وذلك إذا اعلم منه رجوعه إلى الحق .

وأما منفعته ، فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه[1] وهيهات ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف[2] ، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف[3] ، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى[4] ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فأسمع هذا ممن خبر الكلام[5] ثم قلاة بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التغلل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود[6] .

---

(١) وفي نسخه أخرى : على ما هي عليها ؛ والمراد : وهو مقام الكشف والمشاهدة وعمارة السر بأنوار اليقين ، وحصول العلم المضارع للضرورى .

(٢) ومن أين للنازل على المنازل كما يقولون ؟

(٣) إذ أكثره عمل النفس وتخليق الفهم .

(٤) والحشوى : هو من يتتبع ظواهر الأحاديث ، قال البوسى في حاشيته الكبرى : نسبة إلى الحشاء ، أى الجانب والطرف سموا بذلك لقول الحسن البصري : وكان أوائلهم يجلسون إليه بين يديه ، ثم وجد كلامهم ساقطاً ردوا هؤلاء الى حشاء الحلقة ، أي جانبها أو بسكون الشين من الحشو لقولهم بذلك في القرآن حيث زعموا أن في الكتاب والسنة ما لا معنى له .

(٥) ومعنى خبر الكلام أي سيره ودخل فيه وخرج ؛ وألف فيه عدة تآليف ، ومعنى قلاه : أبغضه وتركه .

(٦) كما ذكر رضي الله عنه ذلك في كتابه النفيس المنقذ من الضلال فقال في أوله :

« ولم أزل في عنفوان شبابي عند ما راهقت البلوغ قبل العشرين إلى الآن ، وقد أناف سني على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مضلة ، وأهم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ومسن ومبتدع إلى أن قال : وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور ، أي أول أمري غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلتي لا باختياري وحيلتي ، حتى إنحلت عني رابطة التقليد ، ثم إبتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علمًا وافياً بمقصوده غير واف بمقصودي » أهـ

ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ، ولكن على الندور في امور[1] جلية تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام ، بل منفعته شيء واحد وهو حراسة العقيدة التي ترجمناها على العوام ، وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل[2] ، فإن العامي ضعيف يستفزه جدل المبتدع ، وإن كان فاسداً ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه ، والناس متعبدون بهذه العقيدة التي قدمناها ، إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم ، وأجمع السلف الصالح[3] عليها ، والعلماء يتعبدون[4] بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة ، كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات[5] الظلمة والغصاب .

---

(١) وفي نسخة أخرى : وفي أمور جليلة . . .

(٢) وفي هذه المناسبة للامام الغزالي كلام نفيس جداً ذكره في كتاب الإملاء يقول فيه :

« إن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط لم يفارقوا إعتقاد العوام ، وإنما حرسوها بالجدل عن الإنخرام فهم حراس نواحي الشرع من أهل الإختلاس والقطع .

(٣)وقد وضح معنى هذا المؤلف في كتابه المنقذ من الضلال فقال :

« وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدع ، فقد ألقي الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله ﷺ عقيدة الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمقدماته القرآن والأخبار » .

(٤) وفي نسخة أخرى : والعلماء متعبدون . . .

(٥) وفي نسخة أخرى : بحفظ أموالهم عن تقحمات الظلمة ، والغصاب ، ومعنى الغصاب : جمع غاصب وهو الذي يأخذ المال قهراً .

ويعلق الإمام الغزالي على هذا تعليقاً موضحاً لما يريده هنا فيقول :

« ولما كان أكثر خوض المتكلمين في إستخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً لم يكن الكلام في حقي كافياً ولا لدائي الذي أشكوه شافياً نعم لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة تشوف المتكلمون إلى مجاوزه الزب عن الشبهة بالبحث عن حقائق الأمور وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى فلم يحصل منه

واذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في إستعمال الدواء الخطر ، إذ لا يضعه إلا في موضعه وذلك في وقت الحاجة ، وعلى قدر الحاجة[١] .

وتفصيله أن العوام المشتغلين[٢] بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التي اعتقدوها مهما تلقنوا الإعتقاد الحق الذي ذكرناه[٣] ، فإن تعليمهم الكلام ضرر محض في حقهم إذ ربما يثير لهم شكا[٤] ، ويزلزل عليهم الإعتقاد ، ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح[٥] .

وأما العامي المعتقد للبدعة فينبغي أن يدعي إلى الحق بالتلطف لا[٦] بالتعصب ، وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر في القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث الممزوج بفن من الوعظ والتحذير ، فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع[٧] على شرط المتكلمين[٨] ، إذ العامي إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى إعتقاده[٩] .

= بالكلية ما يمحو ظلمات الحيرة في إختلاف الخلق فلا أبعد أن يكون حصل ذلك لغيري بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات » اهـ

(١) فإنه إذا لم يصادف الوقت والقدر كان عين الضرر ، وهذا لا تبينه إلا المهرة في الفن .

(٢) والصناعات وجميع أنواع الإكتسابات .

(٣) من قبل ؛ ويكتفي به معهم على هذا القدر ولا يعلمون المناظرة والجدال .

(٤) أي يبعث من الكلام يتعلق بفهمه .

(٥) أي بإزالة ذلك الشك العارض في قلبه لرسوخه فيه وعدم التفاته الى ما نزيله أو نظر فيه ولم يفهم كنهه هذا حال أرباب الحرف .

(٦) يدعي باللطف والرفق واللين في المحاورة ، دون تعصب وسوء القول .

(٧) وفي نسخة أخرى : أنفع من الجدل المصنوع .

(٨) فإنه يخبط الذهن ويشوشه .

(٩) بمعنى أنه يستميلهم إليه على طريق الإستدراج .

فإن عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضا يقدرون على دفعه[١] . فالجدل مع هذا ومع الأول[٢] حرام ، وكذا من وقع في شك[٣]، إذ يجب إزالته باللطف والوعظ ، والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام[٤] .

واستقصاء[٥] الجدل إنما ينفع في موضع واحد وهو أن يفرض عامي إعتقد البدعة بنوع جدل سمعه ، فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى إعتقاد الحق ، وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية[٦] ، فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه[٧] منها إلا دواء الجدل . فجاز أن يلقى إليه .

وأما في بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب[٨] فيقتصر فيها على ترجمة الإعتقاد الذي ذكرناه ، ولا يتعرض للأدلة[٩]، ويتربص وقوع شبهة[١٠] فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة[١١].

---

(١) يتحدون على دفعه ، ورد ما أورده .

(٢) وهو من إعتقد البدعة ، أما مع العامي فلزلزلة إعتقاده، وأما مع المبتدع فلتعصبه .

(٣) وفي نسخه أخرى : وكذا من وقع له شك .

(٤) بكلام جلي يفهمه ولا يكلف نفسه تدقيق الفكر وتحقيق النظر .

(٥) وفي نسخة أخرى : والإستقصاء بالجدل ؛ في تفسير وسؤال وتوجيه وإشكال ثم الإشتغال بحله .

(٦) وذلك : بعدم ميل قلبه إليها ، وإنما يستأنس بالمجادلة .

(٧) فقد صار إلى حالة لا يفعه فيها دواء لعلاجه منها ، إذ أن هذه الحالة أصبحت عنده لا تعالج إلا بعلاج الجدل ، فيلقى إليه الدواء لهذا الداء بالقدر المحدود ، حتى يهيىء الله له قبول ما يكون فيه الشفاء التام من هذا الداء .

(٨) بل يكونون على مذهب واحد ، فإن غالب التعصبات إنما يثور من إختلاف المذاهب .

(٩) لا يتعرض للأدلة العقلية ، أو مطلقا .

(١٠) عرضت له على جزئي من جزئيات الإعتقاد .

(١١)وذلك بشرط أن لا يوغل فيه غاية الإيغال، وإن إقتصر على أدلة القرآن الكريم ، أو السنة الشريفة المطهرة ، كفى وشفى .

فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا ، فلا بأس أن يعلموا القدر الذي أودعناه كتاب الرسالة القدسية[1] ليكون ذلك سببا لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم[2] .

وهذا مقدار مختصر ، وقد أودعناه هذا الكتاب لإختصاره[3] .

فإن كان فيه ذكاء ، وتنبه بذكائه لموضع[4] سؤال ، أو ثارت في نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذي ذكرناه في كتاب الإقتصاد في الإعتقاد وهو قدر خمسين ورقة[5] ، وليس فيه خروج عن النظر في قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين[6] .

فإن أقنعه ذلك كفّ عنه[7] ، وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة ، والداء غالبا والمرض ساريا ، فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه[8] ، وينتظر قضاء الله

---

(١) الآتي ذكرها في الفصل الثالث من هذا الكتاب ، وقد سماها المؤلف بالرسالة القدسية ، لكونه أنه ألفها رضي الله عنه وكان حين تأليفها بمجاورته للقدس الشريف

(٢) ومعنى ذلك : إن فرص وقوعها ، فإن ما في الرسالة القدسية من الأدلة القرآنية ، والأدلة النبوية والأدلة العقلية ، كناية في الرد على المخالفين .

(٣) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب والذي سيأتي بعون الله تعالى فيها بعد ، منه .

(٤) إن كان فيه ذكاء وتوقد ذهن بالإستطلاع على الغوامض ، يرد عليه .

(٥) وهو مؤلف نفيس ، للإمام الغزالي رضي الله عنه ، وقد يكون هذا الكتاب أزيد من خمسين ورقة ، أو أقل بحسب الخطوط والمساطر ، وهو كتاب جليل قيم نفيس بقيمه ما فيه من علم ، وقد شرحه غير واحد من الأئمة العلماء ، وعلماء الأئمة .

(٦) بل إن الأدلة المذكورة فيه دائرة بين أدلة قرآنية ، وأدلة من الأحاديث النبوية الصحيحة ، وأدلة عقلية معتمدة ، وليس فيها تعرض للمباحث العويصة ، أو المجادلات المردودة .

(٧) ولم يدعه يخوص في المطولات .

(٨) إذ أن علم الكلام راجع إلى علم معالجة المرض بالبدع ، كما ذكر ذلك من قبل الإمام الغزالي في كتابه الجام العوام .

تعالى فيه ، إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه[1] ، أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له[2] .

فالقدر الذي يحويه ذلك الكتاب[3] وجنسه من المصنفات هو الذي يرجى نفعه[4] .

فأما الخارج منه فقسمان :

(أحدهما) بحث عن غير قواعد العقائد ، كالبحث عن الإعتمادات وعن الأكوان[5] ، وعن الإدراكات ، وعن الخوض في الرؤ ية : هل لها ضد يسمى المنع أو

(١) والمراد بقوله : بتنبيه من الله سبحانه ، إن هذا التنبيه الإلهي، قد يكون بنفث يلقيه الله في روعه ، أو بالهام منه سبحانه ، أو غير ذلك مما هو خاص بأسرار الله تعالى .

(٢) ورب قائل يقول : إذ فرضنا أن عامياً مجادلاً ليس مقلداً ، ولا يقنعه التقليد ، ولا أدلة القرآن ولا الأقاويل الجلية المقنعة ، فماذا يصنع به ومعه ؟

فنقول : هذا مريض مال طبعه من صحة الفطرة الأصلية ، فينظر في شمائله ، فإن وجد اللجاج والجدل غالبا عليه وعلى طبعه ، لم نجادله ، وطهرنا وجه الأرض منه ، إن كان يجالنا من أصل الإيمان . وإن تفرسنا بالقرائن مخايل الرشد والقبول لوجوزنا به من الكلام الظاهر الى تدقيق الأدلة عالجنا بما قدرنا عليه من ذلك ، وداويناه بالجدال المسدد ، والبراهين الجلية .

وليس المقصود من كلامنا هذا فتح الباب في الكلام مع الكافة ، فإن الأدوية تستعمل في حق المرض وهم الأقلون ، وما يعالج به المريض بحكم الضرورة يجب عليه أن يوقى عنه الصحيح ، والفطرة الصحيحة الاصلية تعد لقبول الإيمان دون المجادلة ، وتحرير حقائق الأدلة ، وليس الضرر في إستعمال الداء مع الأصحاء بأقل من الضرر في إهمال المداواة مع المرضى ، فليوضع كل شيء في محله .

(٣) يريد به كتاب الإقتصاد في الإعتقاد .

(٤) يرجى نفعه للسالك في سبيل الحق .

(٥) كقول أبي هاشم : إن الموجب لهوىّ التقبل هو الإعتماد ، دون الحركة ، ذكره في مسألة التولد . والأكوان : جمع كون وهو إستحالة جوهر مّا هو أشرف منه ، ويقابله الفساد وهو إستحالة جوهر مّا إلى ما هو دونه ، ولهم في الكون إطلاقات أخر . =

العمى ، وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى ، أو ثبت لكل مرئي يمكن رؤ يته منع بحسب عدده[١] إلى غير ذلك من الترهات المضلات .

والقسم الثاني : زيادة تقرير[٢] لتلك الأدلة في غير تلك القواعد ، وزيادة أسئلة وأجوبة[٣] ، وذلك أيضاً إستقصاء لا يزيد إلا ضلالاً وجهلا في حق من لم يقنعه ذلك القدر ، فرب كلام يزيده الأطناب[٤] والتقرير غموضا .

ولو قال قائل : البحث عن حكم الإدراكات والإعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر ، والخاطر آلة الدين[٥] كالسيف آلة الجهاد ، فلا بأس بتشحيذه[٦] ، كان كقوله لعب الشطرنج يشحذ الخاطر ، فهو من الدين أيضاً ، وذلك هوس ، فإن

= ولهم عن الإدراكات إطلاقات أيضاً ، في ثبوتها ونفيها .

ومذهب أهل السنة : الإدراكات كلها من فعل الله سبحانه وأنه ليس شيء منها فعلا للإنسان ولا كسبا له .

(١) هكذا سياق العبارة في غالب النسخ ، وفي بعضها : أو يثبت بكل مرئي .

وفي بعضها : وإن كان كل واحد هو منع جميع ما لا يرى ، أو ثبت لكل مرئي ، فذلك يمكن رؤ يته منع بحسب عدده ، واعلم أن الممنوع بوجود الصمم والعمى معنيان : هما إدراكان للمسموع والمرئي وانهما غير ذاته ؛

فإن قالت المعتزلة : العمى والصمم مانعان له عن أن يكون مدركا ، قيل : ما معنى منعهما عن كونه مدركا هل هو منع عن نفسه ، أو عن معنى سواه ، ولا يجوز أن يكون منعا عن نفسه ، فوجب أن يكون المنع إنما وقع عن معنى سواه ، وهو إدراك إذ لا يجوز أن يكون المنع منعا لا عن شيء .

(٢) وفي نسخة أخرى : زيادة تقدير .

(٣) وشبه تنبعث من الأفكار ، وفي نسخة أخرى : إسقاط كلمة أسئلة .

(٤) والأطناب : هو أداء المقصود بأكثر من العبارة المتعارفة .

(٥) أصل الخاطر لما يتحرك في القلب من رأى أو معنى ، ثم سمى محله بإسم ذلك وهو من الصفات الغالبة ، فبالخاطر تنكشف أسرار أحكام الدين كما أن السيف تتم به أمور المجاهدين .

(٦) والمعنى : فلأى شيء يمنع من الخوض في القسم الأول مع كونه مفيدا من وجه .

الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ، ولا يخاف فيها مضرة ، فقد عرفت بهذا القدر : المذموم والقدر المحمود من الكلام ، والحال التي يذم فيها ، والحال التي يحمد فيها ، والشخص الذي ينتفع به ، والشخص الذي لا ينتفع به .

فإن قلت مهما اعترفت بالحاجة إليه في دفع المبتدعة ، والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة[1] ، فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات ، كالقيام بحراسة الأموال ، وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما[2] ، وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك ، والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم ، ولو ترك بالكلية لا ندرس[3] ، وليس في مجرد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة ما لم يتعلم ، فينبغي أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضاً من فروض الكفايات ، بخلاف زمن الصحابة رضي الله عنهم ، فإن الحاجة ما كانت ماسة اليه[4] .

فاعلم أن الحق أنه لا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم ، مستقل بدفع شبه المبتدعة التي ثارت في تلك البلدة ، وذلك يدوم بالتعليم[5] ، ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير ، فإن هذا مثل الدواء[6] ، والفقه مثل

---

(١) أي دنت وقرب وقوعها .

(٢) من المناصب العامة والخاصة أيضا .

(٣) إنه لو ترك بالكلية ، لا ندرس بالمرة وانمحى أثره ؛

ولقائل يقول : لا يحتاج إلى نشره وتعليمه ، بل يكتفي منه في رد شبه المبتدعة بما ركز في الجبلة والطباع فأجاب المؤلف بقوله : وليس في مجرد الطباع . . . الخ .

(٤) إما لعدم ظهور البدع في زمانهم ، أو لإكتفائهم بما أشرق الله من أنوار المشاهدة في صدورهم ، فكانت الأمور الخفية بالنسبة إلينا جلية عندهم .

(٥) ويحفظ بالنشر والافادة .

(٦) والاشارة في كلمة هذا الى علم الكلام ، فهو كالدواء الذي لا يحتاج إليه في كل وقت وينتفع به آحاد الناس ويستضربه الآخرون .

أما الفقه : فهو مثل الغذاء للأبد ان الذي لا يستغنى عنه بحال في إقامة ناموس الابدان .

الغذاء ، وضرر الغذاء لا يحذر ، وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر .

فالعالم ينبغي أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال .

(إحداها) التجرد للعلم والحرص[١] عليه ، فإن المحترف يمنعه الشغل عن الإستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت[٢] .

(الثانية) الذكاء والفطنة والفصاحة[٣] ، فإن البليد لا ينتفع بفهمه[٤] ، والقدم لا ينتفع بحلجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه .

(الثالثة) أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى[٥]، ولا تكون الشهوات غالبة عليه[٦] ، فإن الفاسق بأدنى شبهة ينخلع عن الدين ، فإن ذلك يحل عنه الحجر ويرفع السد الذي بينه وبين الملاذ ، فلا يحرص على إزالة الشبه بل يغتنمها ليتخلص

---

(١) والاستعداد لطلب المعرفة ، والحرص عليه بالإكباب على درسه وتعلمه .

(٢) وذلك لعدم إستعداده لذلك .

(٣) والذكاء : وهو سرعة الإدراك، وحدة الفهم ، وقيل : هو سرعة إقتراح النتائج .

وأما الفطنة : فهي سرعة هجوم على حقائق معان مما تورده الحواس عليها .

وأما الفصاحة : فهي ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود .

(٤) البليد : هو المتحير في أمره الذي لا يوصف بذكاء ولا فطنه ، فهو لا ينتفع بفهمه بل هو دائما حيران في أمره .

أما القدم : فهو البطيء الفهم .

(٥) الصلاح : وهو ضد الفساد ويختصان في أكثر الإستعمال بالأفعال ؛ وقوبل في القرآن الكريم تارة الفساد ، وأخرى بالسيئة .

أما الديانة : فهي التمسك بأمور الدين ؛ والتقوى : وهي تجنب القبيح خوفا من الله تعالى وقيل : التقوى هي الإمتثال لما أمر الله به ، والإجتناب لما نهى الله عنه .

(٦) وفي معنى الشهوات النفسية : التعصبات للمذاهب ، والمباهات بالمعارف .

من أعباء التكليف ، فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه[1] .

وإذا عرفت هذه الإنقسامات إتضح لك أن هذه الحجة المحمودة في الكلام إنما هي من جنس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب ، المقنعة للنفوس ، دون التغلغل في التقسيمات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس ، وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها للتلبيس . فإذا قابله مثله في الصنعة قاومه[2] . وعرفت أن الشافعي وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه

---

(١) وقد ذكر الإمام الغزالي رضي الله عنه في كتاب الجام العوام ما يشرح هذا ويوضحه فقال : « التحدث في هذا العلم للعالم إنما يكون على أربعة أوجه :

إما أن يكون مع نفسه ، أو مع من هو مثله في الإستبصار ، أو مع من هو مستعد للإستبصار بذكائه وفطنته وتجرده لطلب معرفة الله أو مع العامي »

فإن كان قاطعا ، أي لا ظانا ، أي غير حاكم مع نفسه بموجب ظنه حكما جازما فله أن يحدث نفسه به ، ويحدث من هو مثله في الإستبصار، وهو متجرد لطلب المعرفة مستعد لها ، خال عن الميل إلى الدنيا والشهوات والتعصبات للمذاهب ، وطلب المباهاة بالمعارف ، والتظاهر بذكرها مع العوام ، فمن اتصف بهذه الصفات فلا بأس بالتحدث معه ، لأن الفطن المتعطش إلى المعرفة للمعرفة لا لغرض يحبك في صدره ، أشكال الظواهر ، وربما يلقيه في التأويلات الفاسدة لشدة شرهه عن الفرار عن الظواهر ومقتضاها ، ومنع العلم أهله ظلم كبته الى غير أهله .

وأما العامي : فلا يحدث به ، وفي معنى العامي كل من لا يوصف بالصفات المذكورة ؛ والمظنون : فيحدث به مع نفسه إضطرار فإن ما ينطوي عليه الذهن من ظن وشك وقطع لا تزال النفس تحدث به ولا قدرة على الخلاص منه ، ولا منع منه ، ولا شك في منع التحدث به مع العوام ، بل هو أولى بالمنع من المقطوع ، أما تحدثه به مع من هو في مثل درجته في المعرفة أو مع المستعد له فيه نظر .

فيحتمل أن يقال هو جائز إذ لا يزيد على أن يقول : أظن كذا وهو صادق ؛ ويحتمل المنع ، لأنه قادر على تركه ، وهو بذكره متصرف بالظن في صفة الله تعالى ، أو في مراده من كلامه ، وفيه خطر ، وإباحته إنما تعرف بنص أو إجماع أو قياس على منصوص ، ولم يرو شيء من ذلك ، بل ورد قوله تعالى : ﴿ **ولا تقف ما ليس به علم** ﴾ .

(٢) وفي الجام العوام للإمام الغزالي بسط هذا المعنى فإرجع إليه إن شئت .

والتجرد له لما فيه من الضرر الذي نبهنا عليه[1] ، وأن ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما من مناظرة الخوارج ، وما نقل عن علي رضي الله عنه من المناظرة في القدر وغيره ، كان من الكلام الجلي الظاهر[2] وفي محل الحاجة ، وذلك محمود في كل حال[3] .

نعم : قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقلتها ، فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك[4] . فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها ، وحكم طريق النضال عنها وحفظها .

فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه ، وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة ، فلا مفتاح له إلا المجاهد[5] ، وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعالى[6] وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات ، وهي[7] رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لنفحاتها[8] بقدر

---

(١) فإن أواهم محمولة على نهي المتعصب في الدين ، أو القاصر عن تحصيل اليقين أو القاصد إفساد عقائد المسلمين ، أو الخائض فيما لا يفتقر إليه من غوامض المتفلسفين ، وإلا فلا يتصور من شريف تلك الحضرات وقوع المنع فيما هو أصل الواجبات واساس المشروعات .

(٢) الذي لا يحتاج إلى فتح باب الجدل .

(٣) غير مذموم عند الرجال .

(٤) ولأجل ذلك ما خاض فيه الأولون إلا قليلا لعدم حدوث البدع في زمانهم فلم يحتاجوا إلى إبطالها وإفحام منتحلها .

(٥) المشار إليه في قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

(٦) بحيث لا يخطر في خاطره خاطر لسواه .

(٧) أي تلك الحالة الحاصلة من هذه الأمور .

(٨) لما ورد في الحديث النبوي الصحيح : « **تعرضوا لنفحات الله ، فإن لله نفحات** » .

الرزق ، وبحسب التعرض[1] وبحسب قبول المحل وطهارة القلب[2] ، وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله .

مسألة : الحقيقة[3] والشريعة .

فإن قلت : هذا الكلام[4] يشير الى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار ، وبعضها جلي[5] يبدو أولاً ، وبعضها خفي يتضح بالمجاهدة[6] والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسر الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب ، وهذا يكاد يكون مخالفا للشرع ، إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلن ، بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه[7] .

فاعلم أن إنقسام هذه العلوم الى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة ، وإنما ينكرها القاصرون[8] ، الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئا وجمدوا عليه[9] ، فلم يكن لهم ترق الى شأو العلا[10] ، ومقامات العلماء والأولياء[11] ، وذلك ظاهر من أدلة الشرع .

---

(١) جملة : وبحسب التعرض » ساقطه من النسخ الأُخرى .

(٢) وإتساعه لقبول تلك النفحات الواردات

(٣) جملة الحقيقة والشريعة ساقطه من الأصل .

(٤) والمراد به : الكلام الذي تقدم ذكره ، ظاهره يشير الى العلوم المحمودة ، وأن لها ظواهر وأسرار .

(٥) ظاهر لكل الناس .

(٦) يتضح بالمجاهدة ، والرياضة ومكابدة النفس .

(٧) كلمة فيه لا توجد في الأصل .

(٨) وفي نسخة أخرى : وإنما ينكرها القاصرون في المعارف .

(٩) أي استمروا على ذلك القدر اليسير إذ التعليم في الصغر كالنقش على الحجر .

(١٠) أي غايته وأمده .

(١١) والأولياء الصالحين ، فهؤلاء إذا ورد عليهم شيء من أفراد تلك المقامات أول وهلة قاموا بالإنكار عليه ، بالغوا وشددوا ، وهذه الحالة تسببت لكثير من علماء الظاهر بسبق الإنكار على علماء الباطن وتبديهم ، وإخراجهم من جادة الشريعة وهم معذورون لجمودهم على ما لقنوا .

قال ﷺ : « إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلعاً »[١] .

وقال علي رضي الله عنه وأشار إلى صدره : إن ها هنا علوماً جمة لو وجدت لها حملة[٢] .

وقال ﷺ « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدرعقولهم »[٣].

وقال ﷺ «ما حدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم »[٤] .

---

(١) قال العراقي في المغني : «أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه » اهـ .
والحديث أورده أيضا ابن الأثير في نهايته في موضوعين قال : في «حدد» : حديث في صفة القرآن له حد ، أي غاية ، وحد كل شيء منتهى أمره ؛
وقال في « طلع » وعليه علامة السيد المهملة : أي أن هذا الحديث من كتاب ابي موسى المديني لكل حرف حدّ ، ولكل حدّ مطلع ، أي لكل حدّ مصعد يصعد إليه من معرفة علمه ، والمطلع مكان الإطلاع من موضع عال .
قال : ويجوز أن يكون مطلع كمصعد زنة ومعن .
وقال المصنف في آخر كتابه مشكاة الأنوار : حديث للقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع .
ويعلق الزبيدي على كلام الغزالي فيقول : وربما نقل هذا عن علي موقوفا .

(٢) أخرجه ابو نعيم في كتاب الحلية بطوله من طريقين .

(٣) هذا الحديث أخرجه أبو بكر بن الشخير من حديث عمر ولفظه .
«نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم »
وأخرجه أبو داود من حديث عائشة بلفظ : « أنزلوا الناس منازلهم . . . »

(٤) رواه العقيل في الضعفاء ، وابن السنى ، وأبو نعيم في الرياء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ولفظه :
« ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم » .
وللإمام مسلم في مقدمة صحيحة موقوفا على ابن مسعود رضي الله عنه وله شاهد يقويه ، أخرجه البخاري موقوفا على علي ورفعه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق ابي نعيم ولفظه :
« كلموا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله » .

وقال الله تعالى : ﴿ وتِلْكَ ٱلأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ ٱلْعَالِمُونَ ﴾[1] .

وقال ﷺ : « ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العالمون بالله تعالى »[2] الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم .

وقال ﷺ :

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا »[3] .

---

(١) الآية : (٤٣) من سورة العنكبوت (٢٩) .

(٢) الحديث رواه ابو عبد الرحمن السلمي في الأربعين ، من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف ولفظه بتمامه :

« إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا أهل المعرفة بالله تعالى ، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى ، فلا تحقروا عالماً أتاه الله تعالى علما منه ، فإن الله عز وجل لم يحفره إذ أتاه إياه » اهـ .

ومعناه : أنهم إذا علموه لا ينكر عليهم إلا أهل الغرة بالله تعالى .

(٣) جاء الحديث بلفظ : لو علمتم ما أعلم ، كذا في النسخ الكثيرة ، وفي بعضها لو تعلمون وهو نسخه الحافظ العراقي ، وهو نص الجماعة المخرجين لهذا الحديث .

والمراد من قوله « ما أعلم » من إنتقام الله من أهل الجرائم وأهوال القيامة .

وقوله ﷺ : « **لضحكتم قليلا** » أي كان ضحككم على القلة ؛ وقيل معناه : لما ضحكتم أصلا ، وهذا هو المناسب للسياق ، لأن لو حرف إمتناع لإمتناع .

« ولبكيتم كثيرا » قدم الضحك لكونه من المسرة، وفيه من أنواع البديع مقابلة الضحك بالبكاء ، والقلة بالكثرة ، ومطابقة كل منهما بالآخر .

والحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأنس ، وأخرجه أيضاً الإمام أحمد ، والترمذي والنسائي ، وابن ماجه كلهم عن أنس .

وأخرجه الحاكم في المستدرك من رواية يوسف بن حبان عن مجاهد عن أبي ذر رفعه بزيادة : « ولما ساغ لكم الطعام والشراب » وقال على شرطهما ولم يخرجاه .

وتعقبه الذهبي بأنه منقطع . =

فليت شعري إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه ، أو لمعنى آخر ، فلم لم يذكره لهم ، ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم(١) ؟

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّـذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْـرُ بَيْنَهُنَّ ﴾(٢) .

لو ذكرت تفسيره لرجمتموني ؛ وفي لفظ آخر : لقلتم إنه كافر .

= ورواه أيضاً من طريقه ابن عساكر في التاريخ بتلك الزيادة .

وأخرج الحاكم أيضاً في كتاب الرقاق ؛ والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء رفعه : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا ، ولخرجتم الى الصعدات تجأرون لا تدرون تنجون أو لا تنجون » ؛ وقال الحاكم صحيح ، وأقره الذهبي .

وقال الهيثمي رواه الطبراني من طريق ابنة ابي الدرداء عن أبيها ولم أعرفها وبقية رجاله رجال الصحيح .

وأخرج الحاكم أيضاً في الأهوال عن أبي هريرة رفعه :

« لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا ، يظهر النفاق وترفع الأمانة ، وتقبض الرحمة ، ويتهم الأمين ، ويؤتمن غير الأمين ، أناخ بكم الشر الجور ، الفتن كأمثال الليل المظلم » وقال صحيح ، وأقره الذهبي .

(١) وينكشف ذلك بتسليم أصلين :

الاول : أن النبي ﷺ أفاض إلى الخلق ما أوحى الله إليه ، وأنه ما كتم شيئا من الوحي ، فلذلك كان رحمة للعالمين ، فما ترك شيئا مما يقربهم الى رضا الله تعالى إلا ولهم عليه ، وأمرهم به ، ولا مما يسخط الله إلا حذرهم ونهاهم عنه في العلم والعمل جميعا .

الثاني: أن أعرف الناس بمعاني كلامه وأحراهم بالوقوف على كنه درك أسراره الذين شاهدوا الوحي والتنزيل وصحبوه ولازموه متشمرين لتلقي ما يقوله بالقبول للعمل به أولا ، والنقل إلى من بعدهم ثانياً ، والتقرب إلى الله بسماعه وحفظه ونشره وهم الذين حضهم رسول الله ﷺ على السماء والفهم والحفظ والأداء فقال: «نضر الله أمر أسمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها الحديث . . » .

(٢) الآية : (١٢) من سورة الطلاق . (٦٥) .

وقال ابو هريرة رضي الله عنه حفظت من رسول الله ﷺوعاءين أما أحدهما فبثثته وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم .

وقال ﷺ : « **ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسر وقر في صدره** »[1] رضي الله عنه .

ولا شك في أن ذلك السر[2] كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج منها ، وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره .

وقال سهل التستري رضي الله عنه : للعالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر ، وعلم باطن لا يسعه أظهاره إلا لأهله ، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد[3] .

وقال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر[4] .

وقال بعضهم : للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل

---

(١) حديث ما فضلكم أبو بكر . . . أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من قول ابي بكر بن عبد الله المزني وذكر العراقي معقبا عليه فقال : لم أجده مرفوعا .

(٢) كلمة السر غير موجودة في الأصل .

(٣) هكذا أورده صاحب القوت ، عن سهل إلا أنه قال : وعلم هو سر بين الله وبين العالم هو حقيقة إيمانه لا يظهره لأهل الظاهر ولا لأهل الباطن .

(٤) ذكر هذا صاحب قوت القلوب في الباب الثالث والثلاثين في آخر أخبار الصفات ونصبه :

« وحقيقة علم التوحيد باطن المعرفة وهو سبق المعروف إلى من به تعرف بصنعة مخصوصة بحبيب مغرب مخصوص ولا يسع معرفة ذلك الكافة وإنشاء سر الربوبيه كفر »

وقال بعض العارفين :

« من صرح بالتوحيد ، وأفشى الوحدانية فقتله أفضل من إحياء غيره » اهـ .

العلم ، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام[1] ، وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة في حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق ، بل الصحيح أنه لا تناقض فيه ، وأن الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، وملاك الورع النبوة[2] .

مسألة :

فإن قلت : هذه الآيات[3] والأخبار يتطرق إليها تأويلات ، فبين لنا كيفية إختلاف الظاهر والباطن ، فإن الباطن إن كان مناقضا للظاهر ففيه إبطال الشرع ، وهو قول من قال إن الحقيقة خلاف الشريعة ، وهو كفر ، لأن الشريعة عبارة عن الظاهر[4] ، والحقيقة عبارة عن الباطن[5] ، وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو ،

---

(١) وفي نسخة أخرى : (للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف بطل العلم ، وللعلم سر لو ظهر لبطلت الأحكام » .
ثم زاد صاحب الغوت فقال : « فقوام الإيمان وإستقامة الشرع بكتم السرية وقع التدبير ، وعليه إنتظم الأمر والنهي والله غالب على أمره » اهـ .

(٢) وسر الالوهية الذي بمعرفته يستحق النبوة من وصل إلى الله باليقين الذي لولاه لم يكن نبيا، لا يخلو: إما أن يكون إنكشافه من الله تعالى مما يطلع على القلوب من الأنوار التي كانت غائبة عنها ، بأن كانت القلوب ضعيفة طرأ عليها من الدهش والإصطلام والحيرة والتيه ما يبهر العقول ويفقد الإحساس ، ويقطع عن الدنيا وما فيها وذلك لضعفه ، ومن انتهى إلى هذه الحالة فتبطل النبوة في حقه أن يعرفها ، أو يعقل ما جاء من قبلها إذ قد شغله عنها ما هو أعظم لديه منها ، وربما كان سبب موته لعجزه عن حمل ما يطرأ عليه .
وإما أن يكون إنكشافه من عالم به على جهة الخبر عنه ، فتبطل النبوة في حق المخبر حيث نهى عن الافشاء فأفشى وأمر أن لا يتحدث فلم يفعل ، فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبي ﷺ فيها ، فلهذا قيل في ذلك بطلت النبوة في حقه بإخباره .

(٣) القرآنية الكريمة ، والاخبار الواردة من طريق الثقات .

(٤) أي ظاهر الأحكام المتلقاة عن لسان الشرع .

(٥) وهو العلم المستفاد من باطن هذه الأحكام .

فيزول به الإنقسام[1] ، ولا يكون للشرع سر لا يفشى ، بل يكون الخفي والجلي واحدا .

فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطبا عظيما ، وينجر إلى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة[2] ، وهو غرض هذه الكتب ، فإن العقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقينها بالقلوب والتصديق بعقد القلب عليها[3] ، لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها ،فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلق[4]، ولولا أنه[5] من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ، ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه في الشطر الأول من الكتاب .

وإنما الكشف الحقيقي[6] هو صفة سر القلب وباطنه ، ولكن إذا بحر الكلام إلى تحريك خيال في مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز في حله[7] .

فمن قال : إن الحقيقة تخالف الشريعة ، أو الباطن يناقض الظاهر ، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان ، بل الأسرار التي يختص بها المقربون يدركها ، ولا يشاركهم الأكثرون في عملها ، ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام[8] .

---

(١) يزول به إنقسام العلوم إلى خفية وجليه .

(٢) الذي نحن الآن بصدده .

(٣) وربطه عليها ، أشار بذلك إلى معناها اللغوي .

(٤) وفي نسخة أخرى : لم يكلف به كافة الناس » والمراد منه : وإلا وقعوا في حرج عظيم »

(٥) أي مجموع ما ذكر من العقائد .

(٦) الكشف الحقيقي الذي هو معرفة الأشياء على ما هي عليها .

(٧) كلام مختصر في حله ، والكشف عن فطانه .

(٨) بالحصر والإستقصاء ، وما عداها مما تسبق إليه الأذهان ، راجع إليها عند التأمل التام ، والتفكير السليم .

القسم الأول ـ أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكل أكثر الأفهام عن دركه ، فيختص بدركه الخواص[1] ، وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله[2] ، فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك ، وإخفاء سر الروح .

و« كف رسول الله ﷺ عن بيانه » من هذا القسم[3] فإن حقيقته مما تكل الأفهام عن دركه ، وتقصر الأوهام عن تصور كنهه[4] .

ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفا لرسول الله ﷺ، فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ، ومن لم يعرف نفسه ، فكيف يعرف ربه سبحانه[5] ؟

ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفاً لبعض الأولياء والعلماء[6] ، وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدبون بآداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه[7] ، بل في صفات الله

---

(١) من عباد الله سبحانه الذين اختصهم الله لقربه ، وجعلهم من أهل الإختصاص، وهم المفتوح عليهم باب الواردات الإلهية .

(٢) الذي ليس من أرباب ذلك الدرك .

(٣) أخرج الإمام البخاري والإمام مسلم من حديث عبد الله بن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال : فأمسك النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئا .
وقال ابن عباس : قالت اليهود للنبي ﷺ: أخبرنا ، ما الروح ؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد وإنما الروح من أمر الله ولم يكن نزل إليه شيء ؛ فلم يجبهم ، فأتاه جبريل عليه السلام بالآية :
﴿ وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُّمْ مِّنَ العلم إلا قَليلاً ﴾ .

(٤) ولذلك إختلف فيه الإختلاف الكثير .

(٥) وعليه يخرج قولهم : من عرف نفسه فقد عرف ربه .

(٦) الأولياء العارفين بما ألقى في روعهم بالنفث والإلهام، والعلماء الراسخين بما لهم من يقين صادق وعلم ثابت نافع .

(٧) حيث أنه ﷺ أمسك وسكت عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالى ووحيه وهو ﷺ، معدن العلم ، وينبوع الحكمة ، لا يسوغ لغيره الخوض فيه ، والإشارة إليه ؛ لما تقاضت النفس الإنسانية المتطلعة إلى الفضول المتشوفة إلى المعقول المتحركة بوضعها إلى كل ما أمرت بالسكوت فيه ، والمستورة =

عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ، ولم يذكر رسول الله ﷺ منها إلا الظواهر للأفهام : من العلم ، والقدرة ، وغيرهما ، حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم، إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علمًا وقدرة، فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة ، ولو ذكر من صفاته ، ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه(١) ، بل لذة الجماع إذا ذكرت للصبي أو العنين(٢) لم يفهمها إلا بمناسبة إلى لذة المطعوم الذي يدركه ، ولا يكون ذلك فهما على التحقيق(٣) ، والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والاكل(٤) .

= بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه ، وأطلقت عنان النظر في مسارح الفكر وخاضت غمرات ماهية الروح تاهت في النية ، وتنوعت آراؤها فيه ، ولم يوجد الإختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالإختلاف في ماهية الروح ، ولو لزمت النفوس حدها معرفة بعجزها كان ذلك أجد ربها وأولى .

(١) فيؤدي ذلك إلى نفرة الناس عن قبوله ، والمبادرة بالإنكار، والقول بأن هذا عين المحال وبهذا وقعوا في التعطيل في حق الكافة إلا الأقلين ، وقد بعث رسول الله ﷺ داعياً للخلق إلى سعادة الآخرة ، ورحمة للعالمين ، فكيف ينطق بما فيه هلال الأكثرين .

(٢) والعنين : هو الذي لا يقدر على إتيان النساء ، أو لا يشتهين .

(٣) كما ينبغي فإن اللذة التي تحصل من الجماع خلاف اللذة التي تحصل من إستعمال السكر مثلا .

(٤) وللإمام الغزالي في كتابه المقصد الأسني كلام نفيس قال فيه :

« وإنما غاية هذا الوصف إيهام وتشبيه ومشاركة في الإسم لكن يقطع التشبيه بأن يقال : ليس كمثله شيء ، فهو حي كالإحياء ، وقادر لا كالقادرين ؛ كما يقال الوقاع لذيذ كالسكر ولكن تلك اللذة لا تشبه هذه البتة ، ولكن تشاركها في الإسم ، وكان إذا عرفنا أن الله تعالى حي عالم قدير ، فلم نعرف أولا إلا بأنفسنا إذ الأصم لا يتصور أن يفهم معنى قولنا : إن الله سميع ، ولا الاكمه معنى قولنا إن الله بصير، وكذلك إذا قال القائل كيف يكون الله عالما بالأشياء؟ فنقول له: كما تعلم أنت أشياء فلا يمكنه أن يفهم شيئا إلا إذا كان فيه ما يناسبه فيعلم أولاً ما هو منصف به ، ثم يعلم غيره بالمناسبة إليه، فإذا كان لله تعالى وصفه وخاصية ليس فينا ما يناسبه ويشاركه ولو في الإسم لم يتصور فهمه البتة ، فما عرف أحد إلا نفسه ، ثم قايس بين صفات الله تعالى وبين صفات نفسه ، وتتعالى صفات الله وتتقدس عن أن تشبه صفاتنا » اهـ .

وبالجملة فلا يدرك الإنسان إلا نفسه وصفات نفسه مما هي حاضرة له في الحال أو مما كانت له من قبل ، ثم بالمقايسة إليه يفهم ذلك لغيره ، ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتا في الشرف والكمال ، فليس في قوة البشر إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها[1] من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكمل وأشرف ، فيكون معظم تحويمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الجلال[2] ولذلك قال ﷺ .

« لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[3] .

---

(١) وفي نسخه أخرى : من الفعل والعلم والقدرة وغيره من الصفات .
والمراد من قوله من الصفات : الصفات التي يتوهم فيها الإشتراك .

(٢) ولا ينبغي أن يظن أن المشاركة بكل وصف توجب المماثلة ، ذلك أن الضدين يتماثلان وبينهما غاية البعد الذي لا يتصور أن يكون بعد فوقه ، وهما متشاركان في أوصاف كثيرة إذا السواد يشارك البياض في كونه عرضا وفي كونه مدركا بالبصر وأمور أخر سواه ، أفترای من قال : إن الله تعالى موجود لا في محل ، وأنه سميع بصير عالم مريد متكلم حي قادر فاعل ، وللإنسان أيضاً كذلك ، فقد شبه قائل هذا إذ لا أقل من إثبات المشاركة في الوجود وهو موهم للمشابهة بل المماثلة عبارة عن المشاركة في النوع والماهية ، فيكون العبد رحيًا صبوراً شكوراً ، لا يوجب المماثلة ولا لكونه سميعاً بصيراً عالماً قادراً حياً فاعلاً .

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها ، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك في سنجوده .
وفي رواية أخرى كما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه أيضاً بسنده عن أبي هريرة عن عائشة رضي الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول :
اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعناك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .
وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد أيضا عن أبي أسامة ، ثم قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في تخريج أحاديث الأذكار : « وفي السند لطيفة : وهي رواية صحابي عن صحابي : أبو هريرة عن عائشة .

وليس المعنى أني أعجز عن التعبير عما أدركته ، بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك جلاله [١] ولذلك قال بعضهم [٢] : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل .

وقال الصديق رضي الله عنه : الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته[٣] .

ولنقيض عنان الكلام عن هذا النمط ، ولنرجع الى الغرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن إدراكه ، ومن جملته الروح ، ومن جملته بعض صفات الله تعالى . .

ولعل الإشارة إلى مثله في قوله ﷺ:

« إن لله سبحانه سبعين حجاباً من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره »[٤] .

---

(١) يقول أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتابه النفيس « المقصد الأسني » .

« ولم يرد به أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه في العبارة عنه بل معناه إني لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيتك وإنما أنت المحيط بها وحدك ، فإذا لا يحيط مخلوق من ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة ، وأما إتساع المعرفة فإنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته » اهـ .

(٢) وهو أبو القاسم الجنيد رحمه الله تعالى ورضي عنه .

(٣) يقول الإمام الغزالي رضي الله عنه .

« نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه وأنهم لا يمكنهم معرفته وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية الا الله تعالى ، فإذا إنكشف لهم ذلك إنكشافاً برهانياً فقد عرفوه » .

(٤) ذكر الحافظ العراقي في كتاب المغنى : قال في هذا الحديث :

« أخرج أبو الشيخ بن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة :

« بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجاباً من نور » وإسناده ضعيف وفيه أيضاً من =

القسم الثاني ـ من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصديقون[1] عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا يكل الفهم عنه ، ولكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ، ولا يضر بالأنبياء والصديقين[2] .

وسر القدر الذي منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم[3] ، فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضراً ببعض الخلق ، كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش[4] وكما تضر رياح الورد بالجعل[5] ، وكيف يبعد هذا وقولنا أن الكفر والزنا والمعاصي والشرور كله[6] بقضاء الله تعالى وارادته ومشيئته حق في نفسه وقد أضر

= حديث أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ، لجبريل : ﴿ **هل ترى ربك ؟** ﴾ قال : إن بيني وبينه لسبعين حجاباً من نور .

وفي المعجم الكبير للإمام الطبراني من حديث سهل بن سعد :

« دون الله تعالى سبعون ألف حجاب من نور وظلمة » .

ولمسلم من حديث أبي موسى :

« حجابه من النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »

ولابن ماجه . . . كل شيء أدركه بصره »

ولأبي منصور التميمي كلام نفيس جداً قال فيه :

« كل خبر ذكر فيه الحجاب فإنه يرجع معناه إلى الخلق لأنهم هم المحجوبون عن رؤية الله عز وجل ، وليس الخالق محجوباً عنهم لأنه يراهم ولا يجوز أن يكون مستوراً بحجاب لأن ما ستره عن غيره فساتره أكبر منه ، وليس لله عز وجل حدّ ولا نهاية فلا يصح أن يكون بغيره مستوراً .

ودليله قوله عز وجل : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ، ولم يقل إنه محجوب عنهم .

(١) ومن على قدمهم من الأولياء العارفين والعلماء الراسخين .

(٢) لرسوخ قدمهم ، وعدم تزلزلهم في المعرفة الحقيقية .

(٣) وقد أنكر ﷺ على قوم يتكلمون في القدر ويسألون عنه ، وقال أبهذا أمرتم ؟

(٤) جمع خفاش ، وهو طائر معروف .

(٥) بضم الجيم وفتح العين نوع من الخنافس يدحرج العذرة .

(٦) وفي نسخة أخرى : المعاصي والشرور بقضاء الله تعالى . . الخ فكلمة « كله » زائدة .

سماعه بقوم ، إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ، ونقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم[1] .

وقد ألحد ابن الراوندي[2] وطائفة من المخذولين بمثل ذلك[3] وكذلك سر القدر ولو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزا إذا تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم[4] .

ولو قال قائل : إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوماً[5] ، ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفا من الضرر ، فلعل المدة إليها بعيدة فيطول الأمد[6] ، وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل إكتراثها[7] ، ولعلها

---

(١) نسبوا ذلك إلى فعل العبد وتخليقه فرارا مما أوهموا فيه وتوهموه ، وسموا أنفسهم بأهل العدل في التوحيد وهم بعيدون عن العدل .

(٢) وهو رجل من مشهوري الملاحدة ، وله كتاب أيضاً في بيان معتقد المعتزلة وكلامه محشو بالكفريات ، يتناشده الناس ، ورواند التي نسب إليها، هي قرية بقاشان من أعمال أصبهان وأصلها شيعة . انظر إتحاف السادة جـ ٢ ص ٧٤ .

(٣) وهم الذين على قدمه في سوء الإعتقاديات، وهؤلاء بما فيهم الرواندي على مثل ما عليه المعتز لهم حيث زعم جمهورهم أن المعاصي كلها كانت من غير مشيئة الله فيها ؛ وزعم البغداديون منهم أن الله تعالى لم يخلق لأحد شهوة الزنا ولا شهوة شيء من المعاصي ، كما زعموا أنه ما خلق لأحد إرادة المعصية .

وزعم البصريون منهم أنه خالق الشهوات للإنسان الزنا والمعاصي ، ولا يجوز أن يخلق إرادة الزنا والمعصية .

(٤) ويصرفه عنهم بأول وهلة فلذلك جاء الأمر بالكتمان في بعض الحقائق دون بعض .

(٥) وفي نسخة أخرى : لكان ذلك مفهوماً .

(٦) فتقسوا قلوبهم ، وتضل عقولهم .

(٧) قل إكتراثها في أمور الآخرة .

كانت قريبة في علم الله سبحانه ، ولو ذكرت لعظم الخوف[١] وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا[٢] ؛

فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالاً لهذا القسم[٣] .

القسم الثالث ـ أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحاً لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكنى عنه على سبيل الإستعارة والرمز[٤] ، ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب ، وله مصلحة في أن يعظم وقع ذلك الأمر في قلبه ، كما لو قال قائل : رأيت فلانا يقلد الدر في أعناق الخنازير ، فكنى به عن إفشاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها ، فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر[٥] للفظ ، والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الإنسان لم يكن معه در[٦] ، ولا كان في موضعه خنزير ، تفطن لدرك السر والباطن[٧] ، فيتفاوت الناس في ذلك[٨] ومن هذا قال الشاعر :

رجلان خياط وآخر حائك متقابلان على السماك الأعزل

لا زال ينسج ذاك خرقة مدبر ويخيط صاحبه ثياب المقبل

---

(١) وامتلأت الصدور من الرهبة .

(٢) وبطل نظامها ، فلأجل هذه النكتة أخفي أمرها .

(٣) وهو القسم الثاني ، في أن أصل ذلك مفهوم لا يكل الفهم عنه ، ولكن ذكره مضر بالأكثرين .

(٤) يعني بذلك الإشارة والإستعارة ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه مع طرح ذكر المشبه من البين .

(٥) وفي نسخة أخرى : إلى فهمه ظاهره ، والمعنى : ظاهره الذي هو تقليد الدر في أعناق الخنازير حقيقة .

(٦) والمراد بالدر : هو الجوهر المعروف .

(٧) فوجده أراد بالدر العلم والحكمة ، وأراد بالخنزير الجهال والبلداء ، وأراد بالتعليق البث والإفادة .

(٨) وفي نسخة أخرى بذلك ، ومن هنا جاء التفاوت في فهوم الناس .

فإنه عبر عن سبب سماوي في الإقبال والإدبار برجلين صانعين[1] ؛ وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن عين المعنى أو مثله ، ومنه[2] قوله ﷺ .

﴿ إن المسجد لينزوي من النخامة[3] كما تنزوي الجلدة على النار ﴾[4] .

وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة . ومعناه أن روح المسجد كونه معظما[5] ، ورمى النخامة فيه تحقير له ، فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لإتصال أجزاء الجلدة . وكذلك قوله ﷺ[6]

«أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار »[7] .

---

(١) وهما : الخياط والحائك .

(٢) وفي نسخة أخرى : ومثله قوله ﷺ . . . .

(٣) والنخامة هي : ما يلقيه الإنسان من فمه أو أنفه .

(٤) قال العراقي : هذا الحديث لم أر له أصلاً في المرفوع ، وإنما هو في قول أبي هريرة ، رواه إبن أبي شيبة في مصنفه .

ورواه كذلك عبد الرزاق موقوفاً على أبي هريرة .

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً : أن رسول الله ﷺرأى نخامة في المسجد في القبلة ، « **فقال ما بال أحدكم مستقبل ربه فينخع أمامه أيحب أحدكم أن يستقبل فينخع في وجهه** » .

(٥) معظمًا في القلوب لكونه محل التقرب إلى الله تعالى .

(٦) فيما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه رفعه .

(٧) وأخرجه أيضاً أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، كلهم في كتاب الصلاة .

وفي رواية أخرى : ألا يخشى أحدكم إذا رفع رأسه ، أي من السجود ، فهو نص فيه .

وعند أبي داود زيادة والإمام ساجد وهو دليل على التخصيص ، وألحق به الركوع لكونه في معناه ، وإنما نص على السجود لمزيد مزية فيه ، إذ المصلي أقرب ما يكون من ربه فيه ، وهو غاية الخضوع المطلوب .

وذلك من حيث الصور لم يكن قط ولا يكون ، ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله ، بل بخاصيته وهي البلادة والحمق[1] . .

ومن رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه حمار في معنى البلادة والحمق وهو المقصود دون الشكل الذي هو قالب المعنى ، إذ من غاية الحمق أن يجمع بين الإقتداء وبين التقدم فإنهما متناقضان[2] .

وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر ، إما بدليل عقلي أو شرعي . .

أما العقلي[3] فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله ﷺ :

«قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»[4] . .

« إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين فلم[5] نجد فيها أصابع ، فعلم أنها كناية عن

---

(١) وهو المقصود المراد من الحديث .

(٢) وفي حكمه الذي يسبق الإمام في حركاته كلها ، ولكن النص إنما أتى فيمن يرفع قبله ، وهذا الذي إرتضاه المصنف في تقرير معنى الحديث هو صحيح لا غبار عليه ، وعلم منه أنه كبيرة للتوعد عليه بأشنع العقوبات وأبشعها وهو المسخ المعنوي ، ولكن لا تبطل صلاته عند الشافعية ، وأبطلها أحمد ، كالظاهرية ، ويجوز أن يحمل معنى الحديث على الحقيقة على ما هي عليه الاكثر من وقوع المسخ في هذه الأمة ، ولا يلزم من الوعيد الوقوع .

وقال صاحب الغيض : ليس للتقدم على الإمام سبب إلا الإستعجال ودواؤه أن يستحضر بأنه لا يسلم قبله .

ويروى عن جابر بن سمرة رفعه : أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه في الصلاة أن لا يرجع إليه بصره ، أخرجه الإمام مسلم ، وابن ماجه .

(٣) وهو الذي يكون مستنده من طريق العقل .

(٤) أخرجه الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٥) وفي نسخة أخرى : لم نجد فيها أصابع .

القدرة التي هي سر الأصابع وروحها الخفي ، وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعاً في تفهم تمام الإقتدار[1]، ومن هذا القبيل في كنايته عن الإقتدار قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[2] .

فإن ظاهره ممتنع ، إذ قوله : (كن) إن كان خطاباً للشيء قبل وجوده فهو محال ، اذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل[3] ، وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين[4] ، ولكن لما كانت هذه الكتابة أوقع في النفوس في تفهيم غاية الإقتدار عدل إليها[5] .

وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ، ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ الآية[6] وإن معنى الماء ها

---

(١) فيقال : فلان يلاعب فلاناً على أصبعه ، أو البلدة الفلانية في أصبع الأمير ، فعلى العامي وغير العامي أن يتحقق قطعاً ، ويقيناً أن النبي ﷺ، لم يرد بذلك اللفظ جسماً وهو عضو مركب من لحم ودم ، لأن ذلك على الله تعالى محال وهو عنه مقدس .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النحل .

(٣) فالإمتثال فرع عن فهم الخطاب ، وفهم الخطاب فرع عن أهليته له ، وذلك فرع عن الوجود ، فما لا يوجد كيف يخاطب .

(٤) وهو إيجاد شيء مسبوق بمادة .

(٥) أي الكناية فهذا هو الدليل العقلي .

(٦) من سورة الرعد (١٧) وتمامها : فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

هنا هو القرآن[١] ، ومعنى الأودية هي القلوب ، وأن بعضها احتملت شيئاً كثيراً[٢] ، وبعضها قليلاً[٣] ، وبعضها لم يحتمل[٤] ، والزبد مثل الكفر والنفاق[٥] ، فإنه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فإنه لا يثبت[٦] والهداية التي تنفع الناس تمكث[٧] . وفي هذا القسم تعمق جماعة[٨] فأولوا ماورد في الآخرة من الميزان والصراط وغيرهما ، وهو بدعة[٩] ، إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية ، وإجراؤه على الظاهر غير محال ،

---

(١) الذي أنزله على رسوله ، فالتشبيه لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم .

(٢) لإتساعه كواد عظيم يسع ماء كثيراً .

(٣) كواد صغير إنما يسع ماء قليلاً .

(٤) شيئاً كالوادي الذي فيه قبعان وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والعلم حين تخالط القلوب بشاشته .

(٥) والشبهات الباطلة فتطفو على وجه القلب ، فالقرآن أو العلم يستخرج ذلك الزبد كما يستخرج السيل من الوادي زبداً يعلو فوق الماء ، وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء .

(٦) في أرض الوادي ولا يستقر كذلك الكفر والشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم المستنبط من القرآن ربت فوق القلوب ، وطفت فلا تستقر فيه ، بل تجفي وترمي .

(٧) تمكث في القلب وتستقر ، كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء ، ثم ضرب الله سبحانه لذلك مثلاً آخر ، فقال :

﴿ ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾

يعني أن ما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها ، فإنه يقذف ويلقي فيه ويستقر الجوهر الخالص وحده ، وضرب سبحانه مثلاً لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ، ومثلاً بالنار ، لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق ، فآيات القرآن تحيى القلوب كما تحيي الأرض بالماء ، وتحرق خبثها وشبهاتها وشواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقي فيها وتميز زبدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبرة والعلم ، قال الله تعالى :

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾

(٨) من المبتدعة وتجاوزوا عن الحدود .

(٩) وهذا التأويل الذي أولوه في مثل هذه الأمور بدعة قبيحة ، لم يقل بها أحد من الثقات .

فيجب إجراؤه على الظاهر[1] .

القسم الرابع ـ أن يدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلاً بالتحقيق والذوق بأن يصير حالاً ملابساً له ، فيتفاوت العلمان[2] ويكون الأول كالقشر والثاني كاللباب ، والأول كالظاهر .

والثاني كالباطن ، وذلك كما يتمثل للإنسان في عينه شخص في الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم ، فإذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقه بينهما ، ولا يكون الاخير[3] الأول بل هو إستكمال له . فكذلك العلم والإيمان ـ والتصديق ، إذ قد يصدق الإنسان بوجود العشق والمرض[4] والموت قبل وقوعه، ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع ، بل للإنسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال[5] متفاوتة وإدراكات متباينة .

« الاول » تصديقه بوجوده قبل وقوعه . .

« والثاني » عند وقوعه . .

« والثالث » بعد تصرمه[6] فإن تحققك بالجوع بعد زواله يخالف التحقق به قبل الزوال[7] . وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقاً فيكمل فيكون ذلك كالباطن

---

(١) وبذلك يسد باب التأويلات في مثل ذلك .

(٢) فالعلم الأول إجمالي ، والثاني : تفصيلي هبة بدليل أو تجربة .

(٣) وفي نسخة أخرى : ولا يكون الآخر ضد الأول ، لعدم منافاة أحدهما الآخر في أوصاف الخاصة .

(٤) والعشق هو الأفراط في المحبة ، والمرض : خروج البدن عن الإعتدال الخاص ، والموت : وهو صفة وجودية خلقت ضد الحياة .

(٥) وفي نسخة أخرى : بل الإنسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال .

(٦) وفي نسخة أخرى : الأول تصديقه بوجوده قبل وقوعه ، والآخر عند وقوعه ، والآخر بعد تصرمه .

(٧) فالإدراك الذي يحصل في الأول غير الذي يحصل في الثاني .

بالإضافة إلى ما قبل ذلك[١] ، ففرق بين علم المريض بالصحة[٢] وبين علم الصحيح بها .

ففي هذه الأَقسام الأَربعة تتفاوت الخلق ، وليس في شيء منها باطن يناقض الظاهر ، بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر . والسلام .

القسم الخامس ـ أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال[٣] ، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقاً[٤] ، والبصير بالحقائق[٥] يدرك السر فيه . وهذا كقول القائل : قال الجدال للوتد : لم تشقني ؟

قال : سل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي . فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا

---

(١) وهو الحاصل عن غير تحقيق وذوق .

(٢) في البدن ، وهي حالة طبيعية تجري أفعاله معها على المجرى الطبيعي .

(٣) فلسان المقال هي الجارحة وله نغمة مخصوصة يميزها السمع كما أن له صورة مخصوصة يميزها البصر ، ولسان الحال ما أنبأ عن حال قام به ولو لم يكن نطقاً .

(٤) وفي نسخة أخرى : يقف على الظاهر ويعتقده نطقاً بالحقيقة .

والمراد من هذا : أن قاصر الفهم ، فهمه مقصور على تلقفه وجامد عليه .

والنطق في العرف العام الأصوات المقطعة التي يظهرها اللسان وتعيها الآذان ، ولا يقال إلا للإنسان ، ولا يقال لغيره إلا على سبيل التبع .

يقول الإمام الغزالي رضي الله عنه :

« والنطق أشرف الأحوال وأجل الأوصاف وهو أصل الكلام والقول وماهيته تصور النفس صور المعلومات وقدرة النفس على الإستماع لغيرها بما ينتج في العقل بأي لغة كانت ، وبأي عبارة اتفقت .

(٥) أي المتبصر بمعرفة حقائق الأشياء ، كما هي .

وَلِلأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[1] .

فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقدر لهما حياة[2] وعقلاً ، وفهمًا للخطاب ، وخطاباً هوصوت وحرف تسمعه السماء والارض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان : أتينا طائعين والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال ، وأنه أنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين الى التسخير[3]

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[4] . .

فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول[5] سبحان الله ، ليتحقق تسبيحه ، والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان ، بل كونه مسبحا بوجوده ، ومقدسا بذاته ، وشاهدا بوحدانية الله سبحانه ، كما يقال :

وفي كـل شـيء لـه آيـة   تـدل عـلى أنـه الـواحـد[6]

وكما يقال : هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ، ولكن بالذات والحال . وكذلك : ما من شيء إلا

---

(١) الآية (١١) من سورة فصلت (٤١) .

والمراد من هذا : الإتيان هو المجيء مطلقاً ، وقيل بسهولة والطوع الإنقياد ويضاده الكره وطائعين ، بمعنى منقادين ، لم يمتنعا عليه مما يريدهما به .

(٢) وفي نسخة أخرى : حياة مخلوقة ، وفي نسخة : ثالثة : بزيادة الأرض والسماء بدون لهما .

(٣) والإنقياد والتسخير سياقة الشيء إلى الغرض المختص به .

(٤) الآية : (٤٤) من سورة الإسراء (١٧) .

(٥) وفي نسخة أخرى حتى يقولوا : سبحان الله .

(٦) وهو قول أبي العتاهية وأوله :

واعـجـبـا كـيـف يـعـصـى الإلـه   أم كـيـف يـجـحـده الـجـاحـد

وفي كـل شـيء لـه آيـة   تـدل عـلى أنـه الـواحـد

وهو محتاج في نفسه إلى موجد يوجده[1] . ويبقيه ويديم أوصافه ويردده في أطواره . .

فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس[2] ، يدرك شهادته ذوو البصائر دون ـ الجامدين على الظواهر[3] وذلك قال تعالى :

﴿ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[4] .

وأما القاصرون[5] فلا يفقهون أصلا .

وأما المقربون[6] والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكماله[7] ، إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه ، ويدرك كل واحد[8] بقدر عقله وبصيرته وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم[9] المعاملة .

فهذا الفن أيضاً مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه ، وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر[10] .

---

(١) أي يخرجه من العدم إلى الوجود .

(٢) وفي نسخة أخرى : فهي بحالها تشهد لخالقها بالنقد بالتقديس ، والمعنى أنه هذه الأشياء تشهد لخالقها بالتنزيه ، والضمير راجع إلى الأشياء ، وفي بعض النسخ فهو بحاجته يشهد لخالقه .

(٣) فهؤلاء لاحظ لهم في إدراك تلك الشهادة .

(٤) الآية (٤٤) من سورة الإسراء (١٧) .
والمراد : ليس في وسعكم أن تعرفوا حقيقة ذلك ، وأصل الفقه فهم الأشياء الخفية ، وقيل : هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، فهو أخص من مطلق الفهم .

(٥) القاصرون عن نيل الكمال .

(٦) إلى الله تعالى وهم فوق أهل اليمين .

(٧) وكنه الشيء حقيقته ونهايته .

(٨) من أهل هذه المراتب ، نصيبه الذي أعطيه

(٩) وفي نسخة أخرى : لا تليق بعلم المعاملة ، والمعنى : بل هو من علم المكاشفة

(١٠) بخلاف الأقسام الأربعة المتقدمة .

وفي هذا المقام لأرباب المقامات إسراف[١] وإقتصاد : فمن مسرف في رفع الظواهر انتهى الى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها ، حتى حملوا قوله تعالى :

﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾[٢]

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[٣]

وكذلك المخاطبات التي تجرى من منكر ونكير[٤] ، وفي الميزان والصراط والحساب[٥] ، ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم .

﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾[٦].

زعموا أن ذلك كله بلسان الحال وغلا آخرون في حسم الباب[٧] ، منهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه حتى منع تأويل قوله :(كن فيكون)[٨] وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بعدد كون كل مكون[٩] ،

---

(١) إسراف : مجاوزة الحدود ، وإقتصاد : الوقوف على مقام بين مقامين .

(٢) سورة يس (٣٦) آية (٦٥) .

(٣) الآية (٢١) سورة فصلت (٤١) ، وتمامها : « وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » .

(٤) حين حلول الإنسان في القبر وتلك المخاطبة أول فتانات القبور .

(٥) وفي الميزان : ذي الكفتين ووزن الأعمال ، وفي الحساب : وتطاير الصحف في اليمين أو الشمال .

(٦) الآية (٥٠) من سورة الأعراف (٧) .

(٧) أي في سد باب التأويل مطلقاً وهم من السلف .

(٨) وهذا يعني سد باب التأويل على الإطلاق هو المفهوم من ظاهر مذهبه كما نقله الثقات عنه .

(٩) وقد ذكر أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الحنبلي في كتابه تحرير الأصول ، وتهذيب المنقول :

« أن الكلام عند الإمام أحمد بن حنبل وجميع أصحابه ليس مشتركاً بين العبارة ومدلولها بل هو الحروف =

حتى سمعت بعض أصحابه يقول :

إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ : قوله ﷺ . .

« الحجر الأسود يمين الله في أرضه »[1] .

وقوله ﷺ . .

« قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن »[2] .

وقوله ﷺ : **« إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن »**[3] .

= المسموعة ، فهو حقيقة فيها مجاز في مدلولها ؛

ونقل عن بعض العلماء أن مذهب أحمد ، أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء ، وكيف شاء ، وهو يتكلم به بصوت يسمع » اهـ

(١) الحديث أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ :

الحجر يمين الله في الأرض »

وأخرج الخطيب ، وإبن عساكر ، عن جابر رفعه :

« الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده »

قال إبن الجوزي في مسنده إسحاق بن بشير كذبه إبن شيبة وغيره .

وقال الدارقطني هو في عداد من يضع .

وأخرج الديلمي عن أنس رفعه : الحجر يمين الله ، فمن مسحه فقد بايع الله »

وفي مسنده علي بن عمر السكري ضعفه البرقاني ، وأيضاً العلاء بن سلمة الرواس .

قال الذهبي : متهم بالوضع ؛

ثم إن معنى قوله : « يمين الله » أي هو بمنزلة يمينه ، ولما كان كل ملك إذ أقدم الوافد قبل يمينه والحاج أول ما يقدم يسن له تقبيله ، فإذا نزل منزل يمين الكعبة .

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمرو .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه :

« . . . . وأجد نفس ربكم من قبل اليمين » ورجاله ثقات .

ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر .

والظن بأحمد[1] بن حنبل رضي الله عنه ، أنه علم ان الإستواء ليس هو الإستقرار والنزول ليس هو الإنتقال ، ولكنه منع من التأويل حسمًا للباب ، ورعاية لصلاح الخلق[2] ، فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق ، وخرج الأمر عن الضبط ، وجاوز[3] حد الإقتصاد اذ حد ما جاوز الإقتصاد لا ينضبط ، فلا بأس بهذا الزجر .

ويشهد له سيرة السلف ، فإنهم كانوا يقولون أمروها[4] كما جاءت ، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الإستواء[5] : الإستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ،

= وأخرجه أيضاً الحافظ العراقي في كتاب المغني وقال رجاله ثقات .

(١) والحسن الحسن بالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، حسبما يقتضي جلالة قدره ، ورفعته في معرفة العلوم .

(٢) كما يشهد لذلك حاله مع الكرابيسي ، وقوله فيه وكذلك هجرة الحارث المحاسبي على ما سبق الإيمان إلى شيء من ذلك .

(٣) مرتبة الإقتصاد إذ حد الإقتصاد لا ينضبط بقاعدة .

(٤) أي الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة ، روى الحسن بن إسماعيل الضراب في مناقب مالك من طريق الوليد بن مسلم قال .

سألت مالكاً والأوزاعي وسفيان وليثا ، عن هذه الأحاديث التي فيها ذكر الرؤ ية والصورة والنزول ، فقالوا : أوردوها كما جاءت .

وقال عبد الله بن أحمد في كتاب السنة له في باب ما جحدته الجهيمة من كلام الله مع موسى بن عمران عليه السلام ، سألت أبي عن قوم يقولون لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت .

قال أبي : بلى تكلم بصوت هذه الأحاديث تمرونها كما جاءت .

وقال إبن اللبان : قد كان السلف الصالح ، نهو الناس عن إتباع أرباب البدع ، وعن الإصغاء إلى آرائهم وحسموا مادة الجدال في التعرض بالآي المتشابهة سداً للذريعة واستغناء عنه بالمحكم وأمروا بالإيمان وبأمراره ، كما جاء من غير تعطيل ولا تشبيه » .

(٥) في قوله تعالى : ﴿ ثم استوى العرش ﴾ ، وفي قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وقد جاء ذكره في ست آيات فقال مالك . . . .

والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة[1] .

وذهبت طائفة إلى الإقتصاد ، وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه ، وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ، ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية[2] .

وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية ، وأولوا كونه سميعا بصيرا[3] ، وأولوا المعراج ، وزعموا أنه لم يكن بالجسد ، وأولوا عذاب القبر ، والميزان ، والصراط ، وجملة من أحكام الآخرة ، ولكن أقروا بحشر الأجساد ، وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ المحسوسة ،

وهذا القول من مالك جاء بألفاظ مختلفة وأسانيد متنوعة ، وقد أورده المصنف هكذا في آخر لجام العوام ، وأورده إبن اللبان في كتابه بلفظ : إنه سئل كيف إستوى فقال :

« كيف غير معقول ، والإستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »

وقال اللالكائي في كتاب السنة أخبرنا علي بن الربيع بسنده ، عن مهدي بن جعفر بن عبد الله قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال له : يا أبا عبد الله : الرحمن على العرش إستوى ، كيف إستوى ؟ قال : فما رأيت مالكاً وجد من شيء كموجدته من مقالاته وعلاه الرخصاء يعني العرق وأطرق القوم وجعلوا ينتظرون ما يأتي منه ، فقال : فسرى عنه ، فقال : الكيف غير معقول ، والإستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإني أخاف أن تكون ضالاً ، وأمر به فأخرج » وقد ورد بعدة روايات أخرى ، وجمع معظمها صاحب إتحاف السادة المتقين انظر جـ ٢ منه ص ٨١ .

(٢) أي فرقة الأشاعرة عامة ، وهذا القول لأبي الحسن الأشعري ، وأن له قولاً ثانياً ، وهو أن تمر أخبار الصفات ، كما جاءت وإليه مال في الإبانة ، وتبعه الباقلاني ، وإمام الحرمين والمصفف .

(٣) فقال أصحاب أبي هاشم الجبائي معنى قولنا للحي أنه سميع بصير يفيد أنه حي يصح أن يسمع المسموع إذا وجد ، ويصح أن يرى المرئي إذا وجد ومتى وجد المسموع أو المرئي ولم تكن بالحي آفة مانعة من إدراكهما وجب أن يكون سامعاً للمسموع ، ورائياً للمرئي من غير حصول معنى هو سمع أو بصر فيه .

وبالنار[١] واشتمالها على جسم محسوس محرق يحرق الجلود ويذيب الشحوم[٢] .

ومن ترقيهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا كل ما ورد في الآخرة وردوه إلى الام عقلية وروحانية ، ولذات عقلية ، وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس ، وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس . وهؤلاء هم المسرفون .

وحد الإقتصاد بين هذا الإنحلال كله وبين جمود الحنابلة[٣] دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأُمور بنور الهي لا بالسماع . ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأُمور[٤] على ما هي عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة : فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه[٥] ، وما خالف أولوه[٦] . فأما من يأخذ معرفة هذه الأُمور من السمع المجرد ، فلا يستقر له[٧] فيها قدم ، ولا يتعين له موقف ، والأليق بالمقتصر على السمع المجرد مقام احمد بن حنبل رحمه الله[٨] .

---

(١) إلا أنهم قالوا ليست موجودة الآن ، وإنما توجد يوم الجزاء .

ولا قائل بخلق الجنة دون النار ، فثبوتها ثبوتها ، وقد أجمع العلماء على أن التأويل في أكثر أمور

(٢) الآخرة من غير ضرورة الحاد في الدين .

(٣) ووقوفهم على السمع المجرد .

(٤) بواسطة ذلك النور ، واتضحت الأشياء على ما هي عليها .

(٥) وفي نسخة أخرى : اقروه

(٦) بما يقتضيه أسلوب اللغة العربية .

(٧) وفي نسخة أخرى : فلا يستقر له قدم .

(٨) وهو طريقة السلف ، وقد ذكر المصنف في إلجام العوام :

« إنها تتضمن سبعة أمور : التقديس ، ثم التصديق ، ثم الإعتراف بالعجز ، ثم السكوت ، ثم الكف ، ثم الإمساك ، ثم التسليم لأهل المعرفة ، ثم بين ذلك بقوله :

التقديس : فهو تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها .

وأما التصديق فهو الإيمان بما قاله ﷺ ، وأن ما ذكره حق على الوجه الذي قاله وأراده .

وأما الإعتراف بالعجز فهو أن يقر بأن معرفة مراده ليس على قدر طاقته ، وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته .

=

والآن فكشف الغطاء عن حد الإقتصاد في هذه الامور داخل في علم المكاشفة والقول فيه يطول[1] ، فلا نخوض فيه ؛ والغرض بيان موافقة الباطن الظاهر وأنه غير مخالف له ، فقد انكشفت بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة[2] .

وإذا رأينا أن نقتصر بكافة العوام[3] على ترجمة العقيدة التي حررناها، وانهم لا يكلفون غير ذلك في الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى في الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة[4] المختصرة من غير تعمق، فلنورد في هذا الكتاب تلك اللوامع ، ولنقتصر فيها على ما حررناه لأهل القدس ، وسميناه الرسالة القدسية[5] في قواعد العقائد ، وهي مودعة في هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب .

= وأما السكوت : فأن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه ويعلم أن سؤاله عنه بدعة . وأما الإمساك : فهو أن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتبديل بلغة أخرى والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ ، وعلى ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والتصريف والصيغة.
وأما الكف : فأن يكف باطنه من البحث والتفكر والتصرف فيه .
وأما التسليم لأهله فإن يعتقد أن ذلك إن خفي عليه لعجزه فقد لا يخفى على الرسل عليه السلام ، أو على الصديقين والأولياء ، فهذه سبعة وظائف لا ينبغي أن يظن بالسلف الخلاف في شيء منها .

(١) إذ هو بحر لا ساحل له وقف لديه الفحول وتحيرت فيه العقول .

(٢) جملة : «أمور كثيرة» زيادة عن نسخة الأصل .

(٣) وقد دخل فيهم أكثر العلماء ممن لم يتصف بصفات الخواص التي ذكرت .

(٤) الأدلة العقلية والنقلية ، وقد سمي إمام الحرمين شيخ المصنف كتابه لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة نظراً إلى هذا .

(٥) على ما حرره لأهل القدس الشريف حين وفد عليه زائراً ومجاوراً ، وذلك في أيام سياحته ، وتركه علائق الدنيا ، وخروجه من بغداد .
وسمي هذه الرسالة ، بالرسالة القدسية ، أسماء إلا على مسماه ، وسبب هذه التسمية لكون تأليفها كان حين مجاوزة المؤلف بالقدس الشريف

الفَصل الثَالِث

من كتاب قواعـد العقائـد في لوامـع الأدلة
للعقيدة التي ترجمناها بالقدس

بسم اللّه الرحمن الرحيم[١]. الحمد لله الذي ميز عصابة[٢] السنة بأنوار اليقين ، وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين[٣]، وجنبهم زيغ الزائغين

---

(١) الباء للإستعانة متعلقة بمحذوف تقديره أؤلف ونحوه ، وهو يعم جميع أجزاء التأليف فيكون أولى من افتتح ونحوه ، لايهام قصرا التبرك على الافتتاح فقط كما حققه البرهان اللقاني .

والله علم على الذات الواجب الوجود ، والرحمن المنعم بجلائل النعم ، كمية أو كيفية ، والرحيم : المنعم بدقائقها كذلك ؛

وقدم الأول لدلالته على الذات ، ثم الثاني لإختصاصه به، ولأنه أبلغ من الثالث فقدم عليه ليكون له كالتتمة والرديف .

(٢) وفي نسخة أخرى : عصابة أهل السنة ؛ والتمييز مبالغة في الميز ، وهو عزل الشيء وفصله عن غيره وذلك يكون في المشتبهات ، كقوله تعالى : ليميز الله الخبيث من الطيب ؛ وفي المختلطات نحو قوله : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » .

وتمييز الشيء إنفصل عن غيره ويستعمل تمييز الأشياء في تفريقها بعد معرفتها . والعصابة بالكسر الجماعة من الناس ، والسنة الطريقة المسلوكة ، والمراد بها طريقة النبي ﷺ خاصة ، والمراد بأهل السنة هم الفرق الأربعة : المحدثون ، والصوفية ، والأشاعرة ، والماتريديه .

(٣) قال إبن السكيت : الرهط والعشيرة بمعنى ، وقال الأصمعي في كتاب المصادر : الرهط ما فوق العشرة إلى الأربعين .

ونقله إبن فارس أيضاً ، والحق الثابت الذي لا يسوغ إنكاره سواء كان قولاً أو فعلاً أو عقيدة ، أو ديناً أو مذهباً .

وضلال الملحدين[١] ، ووفقهم للإقتداء بسيد المرسلين ، وسددهم للتأسي بصحبه الأكرمين ، ويسر لهم إقتفاء آثار السلف الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين[٢] ، ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج[٣] المبين ، فجمعوا بالقبول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول[٤] ، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول لا اله الا الله محمد رسول الله ليس له طائل ولا محصول ، إن لم تتحقق الاحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول ، وعرفوا أن كلمتي الشهادة على إيجازها تتضمن[٥] إثبات ذات الاله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات

= المراد بدعائم الدين : أركانه ، جمع دعامة بالكسر ، وهي ما يشد به الحائط إذا مال يمنعه السقوط ، والدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول .

(١) الزيغ الميل عن الإستقامة والخروج عن نهج الحق ، والمراد بالزائغين : هم أهل البدع القبيحة الذين أحد توافق العقائد بمجرد التشهي ما يؤدي إلى تشبية أو تعطيل .

والمراد بضلال الملحدين : غوايتهم ، والملحد المائل عن الحق ، والإلحاد ضربان : إلحاد إلى الشرك بالله ، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب ، فالأول ينافي الإيمان ويبطله ، والثاني يوهي عراه ولا يبطله ، والإلحاد في أسمائه تعالى على وجيهن : أحدهما أن يوصف بما لا يصح وصفه به والثاني أن تتأول أوصافه على ما لا يليق به .

(٢) القوي الذي لا ينقطع بمن تعلق به واستمسك ، وبهذا المعنى جاءت صفة القرآن في الحديث ، وفيه تلميح الرد على المعتزلة والفلاسفة فإنهم تصرفوا في الألفاظ بمقتضى عقولهم ، فأولوا وبدلوا .

(٣) وفي بعض النسخ بالنهج وهو الطريق الواضح المسلوك ، والمعنى سيروا في سير الأولين ونحلهم التي انتحلوها ، فما وافق الكتاب والسنة وآثار السلف أخذوا به ، وما خالف تركوه .

(٤) يعني القضايا التي قضى بها الشرع ، ونقل لنا ذلك الثقات ، والقضية قول يصح أن يقال لقائله صادق أو كاذب فيه ، وفيه تلميح إلى رفع شأن أهل النظر والبحث في العقائد على مقتضى الكتاب والسنة حيث جمعوا بين العقل والنقل .

(٥) سائر العقائد الدينية المذكورة فيما بعد إجمالاً وتفصيل ذلك أن معنى الألوهية إستغناء الإله عن كل ما سواه ، وافتقار كل ما عداه إليه ، فدخل فيه إثبات ذات الإله ، وإثبات صفاته ، كلها السبعة ولوازمها ، وإثبات أفعاله .

=

صدق الرسول ، وعلموا[1] أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهي أربعة ، ويدور[2] كل ركن منها على عشرة أصول :

الركن الأول : في معرفة ذات الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول ، وهي :

العلم بوجود الله تعالى ، وقدمه ، وبقائه ، وأنه ليس بجوهر ، ولا جسم ولا عرض ، وأنه سبحانه ليس مختصا بجهة ولا مستقراً على مكان ، وأنه يرى[3] ، وأنه واحد .

الركن الثاني : في صفاته ، ويشتمل على عشرة أصول ، وهو :

العلم بكوه حياً ، عالماً ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلمًا ، منزهاً عن حلول الحوادث ، وأنه قديم الكلام ، والعلم ، والإرادة[4] .

الركن الثالث : في أفعاله تعالى ، ومداره على عشرة أصول ، وهي : أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى[5] ، وأنها مكتسبة للعباد ، وأنها مرادة لله تعالى وأنها مكتسبة

= دخل تحت قولنا محمد رسول الله : إثبات صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والأمانة والتبليغ وأضدادها وحملتها إثنان وستون عقيدة

(١) وفي نسخة أخرى : فعلموا أن بناء الإيمان . . .

(٢) وفي نسخة أخرى : يدور كل ركن على عشرة أصول . .

(٣) وفي نسخة أخرى : وأنه مرئي وأنه واحد .

والمعنى أن كل واحد من هذه العشرة يذكر في أصل مستقل ، وما يتفرع منها من المسائل فهي راجعة إليها .

(٤) فهذه العشرة هي كونه حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً ، قديم العلم والإرادة والكلام ؛ وقوله منزهاً عن حلول الحوادث غير معدود في هؤلاء .

(٥) لا خالق سواه سبحانه ، وإنها وإن كانت كذلك لا يخرجها عن كونها مكتسبة للعباد ، وأنها وإن كانت كسباً للعباد فلا تخرج عن أن تكون مرادة لله تعالى .

للعباد ، وأنها مرادة لله تعالى ، وأنه متفضل بالخلق والإختراع وأن له تعالى تكليف ما لا يطاق ، وأن له إيلام البريء ولا يجب عليه رعاية الأَصلح وأنه لا واجب إلا بالشرع ، وأن بعثه الأَنبياء جائز وأن نبوة نبينا محمد ﷺ ثابتة مؤيدة بالمعجزات[1] .

الركن الرابع : في السمعيات[2] ، ومداره على عشرة أصول ، وهي :

إثبات الحشر ، والنشر ، وسؤال منكر ونكير ، وعذاب القبر ، والميزان ، والصراط ، وخلق الجنة والنار ، وأحكام الإمامة[3] ، وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم ، وشروط الإمامة ، وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم ، وشروط الإمامة[4] .

---

(١) بالمعجزات الباهرة ، ثم إن هذه الأركان الثلاثة التي تقدم ذكرها في الإلهيات والنبوات .

(٢) وهي المتلقاة من السمع بما أخبر به ﷺ .

(٣) وفي نسخة أخرى : وأحكام الإمام ، والمراد الحق فيه ذكر الخلفاء الأربعة ، وإمامة أبي بكر رضي الله عنه بنص أو اختيار .

(٤) بعد الإسلام والتكليف ، وأنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة حكم بإنعقادها فهذه عشرة فصار المجموع أربعين عقيدة ، هذا على طريق الإجمال ، أما على طريق التفصيل فقد شرع المصنف في بيان ذلك فقال : فإما الركن الأول . . . . .

الركن الأول

في معرفـــة ذات الله تعالـى
ومداره على عشرة أصول

فأما الركن الأول من أركان الإيمان في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى ، وإن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول .

الأصل الأول : العلم بوجوده تعالى ومعرفة وجوده [1] تعالى

وأول ما يستضاء به من الأنوار ، ويسلك من طريق الإعتبار، ما أرشد إليه

---

(١) وعبارة ابن الهمام في المسايرة : العلم بوجوده تعالى ، وهو سهل ، لأن العلم والمعرفة لغة شيء واحد ؛
واعلم أن الالهيات المبحوث فيها عن الاله جل وعز أنواع ثلاثة :
الاول : فيما يجب لله عز وجل ، **الثاني** : فيما يستحيل في حقه تعالى : **الثالث** : فيما يجوز في حقه تعالى .
النوع الاول : فيما يجب له تعالى ، فمما يجب له تعالى عشرون صفة وهل صفاته تعالى تنحصر في هذه العشرين أم لا ، والصحيح أنها تابعة لكمالاته وكمالاته لا نهاية لها لكن العجز عن معرفة ما لم ينصب لنا عليه دليل عقلي ولا نقلي ولا نؤاخذ به بفضل الله تعالى ، ومفهومه .
أن ما قام عليه الدليل نؤاخذ بتركه وهي هذه العشرون صفة ، ومعنى كمالاته لا نهاية لها ، هل هو بإعتبار علمنا ، أو بإعتبار علم الله تعالى ؟ أما بإعتبار علمنا فظاهر لنقصه وضعفه وأما بإعتبار علم الله فمعناه علمها على ما هي عليه من عدم النهاية .
ويحتمل أن تكون لا نهاية لها بإعتبار لغة العرب ، لأن العرب إذ أكثر الشيء يحكمون عليه بعدم النهاية ، وإن كان في نفسه متناهيا ،
ويحتمل أن تكون حكم عليها بعدم النهاية مراعاة للنفسية والسلبية ، لأنها لا نهاية لها . وأما المعاني =

القرآن [١] ، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان [٢] . وقد قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَاداً [٣] ، وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً [٤] ، وخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً [٥] ، وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاساً [٦] ، وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً [٧] ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً [٨] ، وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ، وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ [٩] مَآءً ثَجَّاجاً ، لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ، وَجَنَّاتٍ [١٠] أَلفَافاً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ، وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [١١] .

= والمعنوية فهي متناهية ، لأن كل ما دخل في الوجود فهو متناه ، فتضم ما يتناهى وهي المعاني والمعنويه إلى ما لا يتناهى وهي النفسية والسلبية ، وتحكم على الجميع بعدم النهاية .

(١) وفي نسخة أخرى : ما أرشد الله به عباده في القرآن . . .

(٢) أرشدهم فيه بالآيات الدالة على وجوده تعالى .

(٣) أي كالمهد للصبي مصدر سمي به ما يمهد ليقوم عليه .

(٤) للأرض ، ولولاها لما استقرت .

(٥) قطعا من الإحساس والحركة إستراحة للقوى الحيوانية ، وإزاحة لكلالها .

(٦) غطاء يستتر بظلمته من أراد الإختفاء .

(٧) وقت معاش تنقلبون لتحصيل ما تعيشون به ، أو حياة تبعثون فيها عن نومكم .

(٨) سبع سموات أقوياء محكمات لا يؤثر فيها مرور الدهر .

(٩) المعصرات : السحابة المتكافئة أو الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب أو الرياح ذوات الأعاصير .

(١٠) أي ملتفة بعضها ببعض ،ففي كل ذلك تذكير ببعض ما يعانيه الإنسان من عجائب صنعه الدالة على وجوده وكمال قدرته .

والآيات (٦ ـ ١٦) من سورة النبأ (٧٨) .

(١١) الآية (١٦٤) من سورة البقرة (٢) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً ، وَٱللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ، أَأَنتُمْ ، تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [2] .

فليس يخفى على من معه أدنى مسكه [3] من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات ، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات ، وبدائع فطرة الحيوان والنبات [4] ، إن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبره ، وفاعل يحكمه ويقدره [5] ، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها

---

(1) الآية ١٥ - ١٨ من سورة نوح (٧١) .

(2) الآية : ٥٨ - ٧٣ من سورة الواقعة ، (٥٦) وتمامها :
﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ، أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ، ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ ، لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ، إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ، أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ ، ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ، أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ، ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِئُونَ ، نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾

(3) بضم الميم : العقل يقال ليس له مسكة أي عقل ، وليس به مسكة أي قوة .

(4) وسائر ما اشتملت عليه الآيات .

(5) وعلى هذا درجت كل العقلاء إلا من لا عبرة بمكابرته وهم بعض الدهرية ، وإنما كفروا بالإشراك بأن دعوا مع الله إلهاً آخر كالمجوس بالنسبة إلى النار والوثنيين بسبب الاصنام والصابئة بسبب الكواكب حيث عبدوها من دون الله تعالى وكفروا أيضاً بنسبة بعض الحوادث إلى غيره تعالى ، كهؤلاء أيضاً فإن المجوس ينسبون الشر إلى أهرش ، والوثنيين ينسبون بعض الآثار إلى الأصنام والصابئين ينسبون بعض الآثار إلى الكواكب تعالى الله عما يشركون ، والكل معترفون بأن خلق السموات والأرض والألوهية الأصلية لله تعالى .

مقهورة تحت تسخيره ، ومصرفه بمقتضى تدبيره ، ولذلك قال الله تعالى :

﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [١] .

ولهذا بعث الأنبياء صلوات ، الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد [٢] ليقولوا : « لا إلـه إلا الله» ، وما أمروا أن يقولوا :

لنا إلـه وللعالم اله ، فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ نشوهم وفي عنفوان شبابهم [٣] ولذلك قال عز وجل :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [٤] .

وقال تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [٥] .

---

(١) آية (١٠) من سورة إبراهيم (١٤) وتمامها :

﴿ . . . يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُوٓاْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

(٢) ولم يسمع منهم إلا ذلك ، والمراد من التوحيد هنا عدم التشريك في الإلوهية وخواصها ، كتدبير العالم ، واستحقاق العبادة ، وخلق الأجسام .

(٣) وفي نسخة أخرى : وفي عنفوان شبيبتهم .

ثم استدل على هذا الإعتراف بدليل آخر من القرآن الكريم فقال : ولذلك قال عز وجل : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السَّمَـٰوَات ﴾ .... الخ . .

(٤) الآية : (٢٥) من سورة لقمان (٣١) وتمامها :

﴿ . . . قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(٥) الآية (٣٠) من سورة الروم (٣٠) .

فإذا في فطرة [١] الإنسان وشواهد القرآن ما يغنى عن إقامة البرهان [٢] ، ولكنا على سبيل الإستظهار والإقتداء بالعلماء النظار ، نقول من بديهة العقول [٣] أن الحادث لا يستغني في حدوثه عن سبب يحدثه والعالم حادث ، فإذا لا يستغني في حدوثه عن سبب .

أما قولنا : إن الحادث لا يستغني في حدوثه عن سبب فجلى [٤] ، فإن كل حادث مختص بوقت يجوز في العقل تقدير تقديمه وتأخيره ، فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتقر بالضرورة إلى المخصص [٥] .

وأما قولنا : العالم حادث [٦] ، فبرهانه إن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة

---

(١) يعني ما ركز فيه من قوته على معرفة التوحيد .

(٢) والبرهان هو الدليل القاطع فهو أخص من الدليل الواضح ؛ وقال الراغب : البرهان أوكد الأدلة وهو ما يقتضي الصدق أبداً لا محالة ، ودلالة تقتضي الكذب أبداً ، ودلالة إلى الصدق أقرب ودلالة إلى الكذب أقرب ، ودلالة لهما على السواء .

(٣) ترتيب إثبات وجود الواجب بمقدمتين ، إحداهما العالم حادث ، الثانية أن الحادث لا يستغني في حدوثه عن سبب لا يستغني عن سبب يحدثه ، ويرجح وجوده على عدمه .

(٤) يعني ضروري ومعلوم أن ما كان جلياً ضرورياً لا يستدل لإثباته، وإنما ينبه عليه .

(٥) لأن كلا من تقدمه على ذلك الوقت وتأخره ووقوعه فيه أمر ممكن فلا بد من مرجح لوقوعه في ذلك الوقت على تقدمه وتأخره ، لأن الترجيح من غير مرجح محال .
ونقل ابن التلمساني في شرح لمع الأدلة ما نصه :
وقد يدعي بعض الأصحاب أن افتقار الترجيح إلى مرجح ضروري ، والصحيح أنه قريب من الضروري .

(٦) والمراد : هو ما سوى الله تعالى من الموجودات جواهر كانت أو أعراضاً، فالجوهر ما له قيام بذاته بمعنى أنه لا يفتقر إلى محل يقوم به ، والعرض ما يفتقر إلى محل يقوى به ، وقد يعبر بعضهم بدل الجواهر بالأجسام وعليه جرى المصنف وهما في اللغة بمعنى ، وإن كان الجسم أخص من الجوهر إصطلاحاً ، لأنه المؤلف من جوهرين أو أكثر على الخلاف في أقل ما يتركب منه الجسم على ما بين في المطولات ، والجوهر يصدق بغير المؤلف وبالمؤلف .

والسكون ، وهما حادثان ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ففي هذا البرهان ثلاث دعاوي [١] :

الأولى : قولنا : إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون ، وهذه مدركة بالبديهة والإضطرار ، فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار ، فإن من عقل جسماً لا ساكناً ولا متحركاً ، كان لمتن الجهل راكباً وعن نهج العقل ناكباً [٢] .

الثانية : قولنا : إنهما حادثان ، ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد [٣] البعض ، وذلك مشاهد في جميع الأجسام ما شوهد منها وما لم يشاهد [٤] ، فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته [٥] ، وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز حركته ، وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه ، فالطارىء منهما حادث لطريانه ، والسابق حادث لعدمه [٦]، لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه ، على ما سيأتي بيانه وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس [٧] .

---

(١) جمع دعوى وهو قول يطلب به الإنسان إثبات حق .

(٢) أي معرضاً، وهذا السياق للمصنف مأخوذ من سياق شيخه إمام الحرمين في الرسالة النظامية الدعوى .

(٣) وفي نسخة أخرى : دون البعض .

والمراد : أن المصنف استدل عليها بطريقين أشار إلى الاول منهما بقوله : يدل على ذلك تعاقبهما ، أي كون كل واحد منهما يعقب الآخر ، أي يخلفه في محله عند ذهابه ، ووجود البعض منهما دون البعض ، وانقضاؤهما ، وذهاب كل منهما عند وجود الآخر .

(٤) وفي نسخة أخرى : وذلك مشاهد في جميع الأجسام وما لم يشاهد .

(٥) كالجبال مثلاً، فالعقل قاض بجواز الحركة فيها بزلزلة مثلاً، وكذا قاض عليها بقلبها ذهباً أو فضة أو نحاساً أو حديداً .

(٦) والمعنى : تجويز ما ذكر من الحركة والقلب تجويز عروض الحوادث على محلها ومحل الحوادث حادث .

(٧) وأن وجوده مقتضى ذاته فلا يتخلف عنها الدعوى .

الثالثة : قولنا : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ،

وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها [١] ، ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهي النوبة إلى وجود الحادث الحاضر في الحال [٢] وإنقضاء ما لا نهاية له [٣] محال ، ولأنه لو كان للفلك دورات لا نهاية لها لكان يخلو عددها عن أن تكون شفعاً أو وتراً ، أو شفعاً ووتراً جميعاً ، أو لا شفعاً ولا وتراً ، ومحال أن تكون شفعاً ووتراً جميعاً ، أو لا شفعاً ولا وتراً ، فإن ذلك جمع بين النفي والإثبات ، إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر ، وفي نفي أحدهما إثبات الآخر ، ومحال أن يكون شفعاً ، لأن الشفع يصير وتراً بزيادة واحد ، وكيف يعوز ما لا نهاية له [٤] واحد ؟

ومحال أن يكون وتراً إذ الوتر يصير شفعاً بواحد ، فكيف يعوزها واحد مع أنه لا نهاية لأعدادها ، ومحال أن يكون لا شفعاً ولا وتراً ، اذ له نهاية ، فتحصل من هذا أن العالم لا يخلو عن الحوادث وما لا يخلو من الحوادث فهو إذا حادث ، وإذا ثبت حدوثه كان إفتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة[٥] . .

---

(١) مرتبة كما يقول الفلاسفة في دورات الإخلال ، أي حركاتها اليومية .

(٢) لأن الحركة اليومية المعينة مشروط وجودها بانقضاء ما قبلها ، وكذلك الحركة التي قبلها مشروطة بمثل ذلك .

(٣) ووقع في نسخة أخرى ما لا أول له بدل ما لا نهاية له .

والمراد أنك إذا لاحظت الحادث الحاضر ، ثم انتقلت إلى ما قبله فلاحظته على الترتيب لم تغض إلى نهاية ودخول ما لا نهاية له من الحوادث في الوجود محال وإن لم يكن عدم إفضائك إلى نهاية لكان لتلك الحوادث أول وهو خلاف المفروض .

(٤) وفي نسخة أخرى : يعوزها واحد .

(٥) وذلك الموجود هو الله سبحانه المقصود بالإسم الذي هو الله ، فالله إسم للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال الذي يستند إليه إيجاد كل موجود .

الأصل الثاني القدم (١)

العلم بأن الله تعالى قديم لم (٢) يزل ، أزلي ليس لوجوده أول بل أول كل شيء وقبل كل ميت وحي(٣) .

وبرهانه أنه لو كان حادثاً ولم يكن قديماً لافتقر هو أيضاً إلى محدث (٤) ، وافتقر محدثه إلى محدث ، وتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية ، وما تسلسل لم يتحصل ، أو

= وقال إمام الحرمين : حدوث الجواهر بني على أصول :

منها : إثبات الأعراض، ومنها : إثبات حدوثها ، ومنها إستحالة تعري الجواهر منها .

ومنها : إثبات إستحالة حوادث لا أول لها ، ومنها : أن ما لا يسبق الحوادث حادث .

(١) لما فرغ المصنف من ذكر الصفة النفسية التي هي الوجود من جملة الصفات العشرين وهو القسم الأول شرع في ذكر الصفات السلبية ، فأشار إلى أولها وهو القدم .

(٢) وأما بقية صفات السلب التي ذكرها المتأخرون ولاء في كتبهم ، وهي :
البقاء ، ومخالفته للحوادث ، وقيامه بنفسه ، والوحدانية ؛ فإنها تؤخذ من سياق المصنف على طريقة المتقدمين مفرقة على طريق التلويح ، والإشارة من غير ترتيب . ثم القدم هي صفة سلبية على الأصح ، فهي عبارة عن سلب العدم السابق على الوجود ، هذا معنى القدم في حقه تعالى وفي حق صفاته ؛ ومعنى أزلي : نسبة إلى الأزل وهو القديم كما في الصحاح والتهذيب ، فهو حينئذ بمعنى القديم .

(٣) والمراد : أنه سبحانه لم يسبق وجوده عدم ، يعني أن القدم في حقه تعالى بمعنى الأزلية التي هي كون وجوده غير مستفتح .
وللإمام الغزالي في الإقتصاد تعليق نفيس يقول فيه :
« ليس تحت لفظ القديم يعني في حق الله تعالى سوى إثبات موجود ، ونفي عدم سابق ، . فلا تظنن أن القدم معنى زائد على ذات القديم فيلزمك أن تقول ذلك المعنى أيضا قديم بقدم زائد عليه ، ويتسلسل إلى غير نهاية .

(٤) وبيانه أنه لو لم يكن قديماً لكان حادثاً لوجوب إنحصار كل موجود في القدم والحدوث فمهما انتفى أحدهما تعين الآخر ، والحدوث على الله عز وجل مستحيل ، لأنه يستلزم له محدث ، لأن لكل حادث لا بد له من محدث فينقل الكلام إلى ذلك المحدث فإن كان قديماً فهو المراد بمسمى كلمة الجلالة ، وإن لم يكن قديماً كان حادثاً .

ينتهي إلى محدث قديم هو الأول ، وذلك هو المطلوب الذي سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه [١] .

الأصل الثالث البقاء :

العلم بأنه تعالى مع كونه أزلياً أبدياً ليس لوجوده آخر [٢] ، فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن [٣] ، لأن ما ثبت قدمه إستحال عدمه [٤] .

وبرهانه : أنه لو إنعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده [٥] ، ولو جاز أن ينعدم شيء يتصور دوامه بنفسه لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب [٦] ،وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده لأن ذلك المعدم لو كان قديماً لما تصور

---

(١) وفي نسخة أخرى : ومبدئه .

(٢) يعني : يستحيل أن يلحقه عدم ، وهذه الصفة هي الصفة الثانية من الصفات السلبية على الأصح المعبر عنها بالبقاء ، وهو عبارة عن سلب العدم اللاحق للوجود ، هذا معنى البقاء في حقه تعالى وحق صفاته ؛
ويطلق البقاء بمعنى آخر وهو مقارنة الوجود لزمانين فصاعداً وهذا محال في حقه تعالى لما عرف من إستحالة تقييد وجوده بالزمان .

(٣) فهو الأول: وهو دليل كونه سبحانه أزلياً، والآخر : وهو دليل كونه تعالى أبدياً وهو الظاهر والباطن : وهو في كتابه العزيز .

(٤) وهذا القول مبني على المشهور من أن القديم أخص من الأزلي .

(٥) ينعدم بنفسه : بأن يكون إنعدامه أثراً لقدرته، أو ينعدم بمعدم يضاده ، فيمتنع وجوده معه .

(٦) وقرره ابن الهمام بوجه آخر فقال :
لأنه لما ثبت أنه الموجد الذي استندت إليه كل الموجودات ، ثبت عدم إستناد وجوده إلى غيره فيلزم أن يكون وجوده له من نفسه ، أي اقتضت ذاته المقدسة إقتضاءً تاماً، فإذا ثبت أن وجوده مقتضى ذاته المقدسة إستحال أن تؤثر ذاته عدمها لأن ما بالذات يعني ما تقتضيه الذات إقتضاءً تاماً لا يتخلف عنها .
وقد تختصر العبارة عن ذلك فيقال لأنه واجب الوجوب لا يقبل الإنتفاء بحال فيلزم بقاؤه كما يلزم =

الوجود معه [1] ، وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه ، فكيف كان وجوده في القدم ومعه ضده[2]؟ فإن كان الضد المعدم حادثاً كان محالاً إذ ليس الحادث في مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم في مضادته للحادث حتى يدفع وجوده ، بل الدفع أهون من القطع ، والقديم أقوى وأولى من الحادث [3] .

الأصل الرابع : التنزه عن كونه جوهراً

العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز[4] ، بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز

وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ، ولا يخلو من أن يكون ساكنا فيه أو متحركا عنه[5] فلا يخلو عن الحركة او السكون وهما حادثان ، وما

= عدمه ، وإليه أشار ابن التلمساني ، ومنهم من قال في برهان بقائه تعالى انه لو لحقه العدم لزم أن يكون من جملة الممكنات التي يجوز عليها الوجود والعدم ، وكل ممكن لا يكون وجوده إلا حادثاً تعالى الله عن ذلك ، ويلزم الدور أو التسلسل فتبين أن وجوب القدم يستلزم وجوب البقاء وهو المطلوب .

(١) يعني أن الضد المقتضى نفيه إما قديم أو حادث ، ولا يجوز أن يكون الضد قديماً، لأنه لو كان قديماً لما تصور الوجود معه ، لأنه يلزم إنتفاء وجود الباري تعالى مع ذلك الضد من الإبتداء أصلاً لان التضاد يمنع الإجتماع بين الشيئين اللذين اتصفا به

(٢) فهذا محال لما مرّ من أن التضاد يمنع الإجتماع.

(٣) وقرر هذا البرهان ابن التلمساني في شرح اللمع بأبسط من ذلك فقال :

« عدم الشيء متى كان جائزاً قديماً يكون معدوما لانتفاء ما يوجد أو لوجود ما ينفيه وكل ما يتوقف وجوده عليه فهو شرط في وجوده، فلو انعدم لعدم ذلك لم يخل ذلك إما أن يكون حادثاً أو قديماً ولا جائز أن يكون القديم مشروط بشرط حادث لما فيه عجن تقدم المشروط على الشرط وإن كان قديماً ، فالقول في عدمه كالقول في عدم المشروط .

(٤) يعني يختص بالكون في الحيز خلافاً للنصارى ، وقوله يتحيز صفة كاشفة لا مخصصة ، لأن من شأن الجوهر الإختصاص بحيزه وحيز الجوهر عند المتكلمين هو الفراغ المتوهم الذي يشغله الجوهر .

(٥) لأنه لا ينفك عن أحدهما .

يخلو عن الحوادث فهو حادث[1] ، ولو تصور جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم ، فإن سماه مسم جوهراً ولم يرد به المتحيز[2] كان مخطئا من حيث اللفظ لا من حيث المعنى[3] .

الأصل الخامس : التنزه عن الجسمية

العلم بأن تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر ، إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر، وإذ بطل كونه جوهراً مخصوصاً بحيز بطل كونه جسمًا[4]، لأن كل جسم مختص بحيز[5] ومركب من جوهر ، فالجوهر يستحيل خلوه عن الإفتراق والإجتماع ، والحركة والسكون ، والهيئة والمقدار[6] .

---

(١) والحكم بحدوثه ثابت بما قدمنا في الأصل الأول من الدليل ، وقد علم من إستحالة كونه تعالى جوهراً إستحالة لوازم الجوهر عليه تعالى من التحيز ولوازمه كالجهة .

(٢) يعني أنه قال : لا كالجواهر في التحيز ولوازمه من إثبات الجهة والإحاطة ونحوهما .

(٣) فإنه لم يرد إطلاق لفظ الجوهر عليه تعالى لا لغة ولا شرعاً ، وفي إطلاقه إيهام نقص تعالى الله أن يتطرق إليه نقص ، فإن الجوهر يطلق على الجزء الذي لا يتجزأ ، وهو أحقر الأشياء مقدراً .
قال النسفي في شرح العمدة : وقالت النصارى وإبن كرام : يجوز إطلاقه على الله تعالى ، لأنه اسم للقائم بالذات ، والله تعالى قائم بالذات فيكون جوهراً .
ويعلق الإمام الزبيدي على هذا فيقول :
« الجوهر في اللغة عبارة عن الأصل ، وسمي الجزء الذي لا يتجزأ جوهراً ، لأنه أصل المركبات والله تعالى ليس بأصل للمركبات فلم يكن جوهراً ، ولأن الجوهر هو المتحيز الذي لا ينقسم ، ولا يخلو عن الحركة والسكون فيكون حادثاً لما مر ، ولفظ الجوهر ينبيء عن القائم بالذات لغة بل ينبيء عن الأصل ، وتحديد اللفظ بما لا ينبيءُ عنه لغة ، وإخراج ما ينبيء عنه لغة عن كونه حداً له جهل فاحسن » اهـ

(٤) أي إبطال كونه جوهراً يستقل بإبطال كونه جسمًا .

(٥) وهو الفراغ المتوهم الذي يشغله شيء ممتد أو غير ممتد .

(٦) فهذه لوازم توجد في الجسمية زيادة عن الجوهر .

وهذه سمات الحدوث[1] ، ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الالهية للشمس والقمر ، أو لشيء آخر من أقسام الأجسام ، فإن تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسمًا من غير إرادة التأليف من الجواهر[2] ، كان ذلك غلطا في الاسم ، مع الإصابة في نفي معنى الجسم[3] .

الأصل السادس : التنزه عن كونه عرضا

العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل[4] ، لأن العرض ما يحل في الجسم ، فكل جسم فهو حادث لا محالة ، ويكون محدثه موجوداً قبله ، فكيف يكون حالاً في الجسم ، وقد كان موجوداً في الأزل وحده وما معه

---

(١) فإن كلا منها ينافي الوجوب الذاتي لإقتضائها الإحتياج .

وقال السبكي : لو كان تعالى جسمًا لكان مركباً ، ولو كان مركباً لكان مفتقراً ضرورة أن كل مركب متوقف ، وكل متوقف مفتقر ، ولو كان مفتقراً لكان ممكناً ، وقد فرض واجب الوجود هذا خلف .

بهذا الإستدال ثبت أن العالم بجميع أجزائه محدث ، والأجسام من العالم فيكون محدثاً ، وإلا لم يجب أن يكون قديماً أزلياً ، فيمنع أن يكون جسمًا ضرورة .

(٢) وقال لا كالأجسام يعني في لوازم الجسمية كبعض الكرامية والحنابلة حيث قالوا : هو جسم بمعنى موجود ، أو بمعنى أنه قائم بنفسه .

(٣) وإمتناع إطلاق كل من الجسم والجوهر ظاهر على قول القائلين بالتوقيف ، وأما على القول بجواز إطلاق المشتق مما ثبت سمعاً إتصافه بمعناه وما يشعر بالجلال ، ولم يوهم نقصاً ، وإن لم يرد توقيف كما ذهبت إليه المعتزلة ، وأبو بكر الباقلاني مخطأ أيضاً ، لأنه لم يوجد في السمع ما يسوغ إطلاقه ، ولأن شرطه بعد السمع أن لا يوهم نقصاً فيكتغون حيث لا سمع بدلالة العقل على إتصافه تعالى بمعنى ذلك اللفظ .

(٤) والمراد بالحلول هنا الإستقرار ومنه حلول الجوهر ، أو الجسم في الحيز ، وإستدل له من وجهين الأول ما تضمنه قوله : لأن العرض يحل في الجسم ، وفي الإقتصاد للمصنف هو ما يحتاج إلى الجسم أو الجوهر في تقومه ، أي في قيام ذواته وتحققها .

غيره ، ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده[1] ؟

ولأنه عالم قادر مريد خالق[2] ، وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لا تعقل الا لموجود[3] قائم بنفسه ، مستقل بذاته ، وقد تحصل من هذه الأُصول أنه موجود[4] قائم بنفسه ، ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض[5] ، وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام[6] فإذا لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء[7] ، بل الحي القيوم[8] الذي ليس كمثله شيء[9] ، وأني يشبه المخلوق خالقه ، والمقدور

(١) كما ثبت بالأدلة السابقة ، فيستحيل وجوده قبله ضرورة إستحالة وجود ما يتوقف وجوده على شيء قبل ذلك الشيء ، والله تعالى قبل كل شيء وموجده . .

ويعلق النسفي في شرح العمدة على هذا فيقول :

« العرض يستحيل بقاؤه لأنه لو كان باقياً : فإما أن يكون البقاء قائمًا به وهو محال ، لأن العرض لا يقوم بالعرض بإتفاق المتكلمين ، والبقاء عرض ، لأن العرض عبارة عن أمر زائد على الذات ولم يصح وحده ، ولم يوجد بخلاف إتصال السواد باللوفية لأنها ليست بزائدة على ذاته بل هي داخلة في ماهيته أو قائمًا بغيره فيكون الباقي ذلك الغير لأن العرض وما يستحيل بقاؤه لا يكون قديماً لأن القديم واجب الوجود لذاته لما مر فيكون مستحيل العدم » اهـ

(٢) أي موصوف بالعلم والقدرة والإرادة والخلق .

(٣) وفي نسخة أخرى : لموجد .

(٤) واجب الوجود ، قديم لا أول له ، باق لا آخر له .

(٥) ولا حال في شيء ولا يحله شيء .

(٦) وذكر الجواهر يغني عن الأجسام لأن الأجسام جواهر مؤلفة .

(٧) لا يشبهه شيء من خلقه والمشابهة تتحقق من الطرفين ، إذ العالم جواهر وأعراض والله تعالى خالقها كلها .

(٨) لما ثبت أن الله سبحانه وتعالى لا يشبه شيئاً من خلقه ، أشار إلى ما يقع به التفرقة بينه وبين خلقه بما يتصف به تعالى دون خلقه ، فمن ذلك أنه قيوم لا ينام إذ هو مختص بعدم النوم والسنة دون خلقه فإنهم ينامون ، وأنه تعالى حي لا يموت لأن صفة الحياة الباقية مختصة به دون خلقه فإنهم يموتون .

(٩) أي ليس مثله يناسبه ويزاوجه والمراد من مثله ذاته المقدسة .

مقدره ، والمصور مصوره ، والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه ؟؟ فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشابهته[١] .

الأصل السابع ـ العلم بأن الله تعالى منزه الذات عن الإختصاص بالجهات[٢] .

فإن الجهة[٣] إما فوق، وإما أسفل، وإما يمين، وإما شمال: أو قدام، أو خلف[٤] وهذه الجهات هو الذي خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان[٥] إذ خلق له طرفين : أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلاً ، والآخر يقابله ويسمى رأساً ، فحدث إسم الفوق لما يلي جهة الرأس[٦] وإسم السفل لما يلي

---

(١) إن أهل الإسلام قد أطلقوا جميعاً القول بأن صانع العالم لا يشبه شيئاً من العالم ، وإنه ليس له شبه ولا مثل ولا ضد وإنه سبحانه موجود بلا تشبيه ولا تعطيل .
ثم إختلفوا بعد ذلك فيما بينهم :
فمنهم من إعتقد في التفصيل ما يوافق إعتقاده في الجملة ولم ينقض أصول التوحيد على نفسه بشيء من فروعه وهم المحققون من أهل السنة والجماعة أصحاب الحديث وأهل الرأي الذين تمسكوا بأصول الدين في التوحيد والنبوات ، ولم يخلطوا مذاهبهم بشيء من البدع والضلالات المعروفة بالقدر والإرجاء والتجسيم والتشبيه والرفض ونحو ذلك ، وعلى ذلك أئمة الدين جميعهم في الفقه والحديث والإجتهاد في الفتيا والأحكام ، كمالك والشافعي وأبي حنيفة والأوزاعي والثوري وفقهاء المدينة ، وجميع أئمة الحرمين وأهل الظاهر ، وكل من يعتبر خلافه في الفقه .

(٢) يعني ليست ذاته المقدسة في جهة من الجهات الست ولا في مكان من الأمكنة .

(٣) وهي منتهى الإشارة ومقصد المتحرك بحركته من حيث حصوله ، فهي من ذوات الأوضاع المالية ومرجعها إلى نفس الأمكنة أو حدودها وأطرافها ، وهي تنقسم بحسب المشير إلى ستة ، وأشار إلى ذلك بقوله : إما فوق ، وإما أسفل . . . الخ

(٤) وقد تنحصر في قسمين بإعتبار وسط كرة العالم ومحويها فما كان إلى نقطة مركز العالم ووسطه فهو سفل وما كان إلى محيطه ومحويه فهو جهة علو ، وهذا لا يكاد يختلف ، ومن ثم إدعى فيها إنها جهتان على الحقيقة حقيقة وطبعاً كما قرر في محله .

(٥) يعني حادثة بإحداث الإنسان ونحوه مما يمشي على رجلين .

(٦) ومعنى الفوق ما حاذى رأسه من جهة السماء .

جهة الرجل حتى ان النملة التي تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق في حقها تحتا وإن كان في حقنا فوقا[1] ، وخلق للإنسان اليدين وأحداهما أقوى من الاخرى في الغالب ، فحدث إسم اليمين للأقوى[2] ، وإسم الشمال لما يقابله[3] ، وتسمى الجهة التي تلي اليمين يميناً ، والاخرى شمالاً ، وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك إليه ، فحدث إسم القدام للجهة التي يتقدم إليها بالحركة ، وإسم الخلف لما يقابلها : فالجهات حادثة بحدوث الإنسان[4] ، ولو لم يخلق الإنسان بهذه الخلقة ، بل خلق مستديراً كالكرة ، لم يكن لهذه الجهات وجود ألبتة ،[5] فكيف كان في الازل مختصا بجهة والجهة حادثة[6] ؟ أو كيف صار مختصاً بجهة بعد أن لم يكن له : أبـان خلق العالم فوقه ، وتعالى عن أن يكون له فوق ، إذ تعالى أن يكون له رأس ، والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس ، أو خلق العالم تحته ، فتعالى عن أن يكون له تحت ، إذ تعالى عن ان يكون له رجل والتحت عبارة عما يلي الرجل ، وكل ذلك مما يستحيل في العقل[7] ولأن المعقول من

---

(١) ومعنى الفوق فيما يمشي على أربع أو على بطنه بالنسبة إليهما ما يحاذي ظهره من فوقه فهي كلها إضافية .

(٢) أي اليمين ما يحاذي أقوى يديه غالباً .

(٣) وإنما قيده بالغالب فإن في الناس من يساره أقوى من اليمين ولكنه نادر .

(٤) فقبل خلق العالم لم يكن فوق ولا تحت إذ لم يكن ثم حيوان فلم يكن ثم رأس ولا رجل ولا ظهر ، وهي مع ذلك إعتبار به لا حقيقة لا تتبدل .

(٥) يعني لم توجد واحدة من هذه إذ لا رأس ولا رجل ولا يمين ولا شمال ولا ظهر ولا وجه .

(٦) وهو تعالى كان موجوداً في الأزل ولم يكن شيء من الموجودات لأن كل موجود سواه حادث .

(٧) فهذا طريق الإستدلال، قال أبو منصور التميمي :

وأما حالة كونه في جهة فإن ذلك كإحالة كونه في مكان لأن ذلك يوجب حدوث كونه ومحاذاة مخصوصة فيه وذلك دليل على حدوث ما حل فيه ، فلذلك أحلنا إطلاق إسم الجهة على الله تعالى .

كونه مختصاً بجهة أن مختص بحيز اختصاص الجواهر ، أو مختص بالجواهر اختصاص العرض ، وقد ظهر إستحالة كونه جوهراً أو عرضاً[1] ، فاستحال كونه مختصاً بالجهة ، وإن أريد بالجهة[2] غير هذين المعنيين ، كان غلطاً في الإسم مع المساعدة على المعنى[3] ، ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذياً له ، وكل محاذ لجسم ، فإما أن يكون مثله أو أصغر أو أكبر ، وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر ، ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر[4] .

---

(١) أو جسمًا إذ الحيز مختص بالجوهر والجسم وقد مر تنزيه سبحانه عنهما ، وأما العرض فلا إختصاص له بالحيز إلا بواسطة كونه حالاً في الجوهر ، فهو تابع لإختصاص الجوهر ، ولما ظهر بطلان الجوهرية والجسمية .

(٢) وقال النسفي في شرح العمدة : الصور والجهات مختلفة وإجتماعها عليه تعالى مستحيل لتنافيها في أنفسها وليس البعض أولى من البعض لإستواء الكل في إفادة المدح والنقص وعدم دلالة المحدثات عليه ، فلو إختص بشيء منها لكان تخصيص مخصص ، وهذا من أمارات المحدث » اهـ

وقال السبكي : صانع العالم لا يكون في جهة لأنه لو كان في جهة لكان في مكان ضرورة إنها المكان أو المستلزمة له ولو كان في مكان لكان متحيزاً ، ولو كان متحيزاً لكان مفتقر إلى حيزه ومكانه فلا يكون واجب الوجود ، وثبت أنه واجب الوجود وهذا خلف وأيضاً فلو كان في جهة فإما في كل الجهات وهو محال وشنيع ، وإما في البعض فيلزم الإختصاص المستلزم للإفتقار المنافي للوجوب » اهـ

(٣) ولكن ينظر فيه أيرجع ذلك المعنى إلى تنزيه سبحانه عما لا يليق بجلاله فيخطأ من أراد في مجرد التعبير عنه بالجهة لإيهامه بما لا يليق ، ولعدم وروده في اللغة أو يرجع إلى غيره فيرد قوله صوناً عن الضلالة ، ثم نبه المصنف على طريق ثالث في الإستدلال بقول : ولأنه لو كان فوق العالم . . .

(٤) جل جلاله ، وقد ذكر المصنف في كتابه الجام العوام :

اعلم أن الفوق إسم مشترك يطلق لمعنيين : أحدهما نسبة جسم إلى جسم بأن يكون أحدهما أعلم والآخر أسفل يعني أن الأعلى من جانب رأس الأسفل وقد لا يكون بهذا المعنى فيقال الخليفة فوق السلطان والسلطان فوق الوزير ، والأول يستدعي جسمًا حتى ينسب إلى جسم .

والثاني لا يستدعيه فليعتقد المؤمن أن الأول غير مراد وأنه على الله تعالى محال فإنه من لوازم الأجسام أو لوازم أعراض الأجسام .

فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء ، فهو لأنها قبلة الدعاء[١] ، وفيه أيضاً إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء ، وتنبيها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء ، فإنه تعالى فوق كل موجود بالقهر والإستيلاء[٢] .

الأَصل الثامن : الإستواء .

العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذي أراد الله تعالى بالإستواء[٣] ،

---

(١) كما أن البيت قبلة الصلاة يستقبل بالصدر والوجه ، والمعبود بالصلاة والمقصود بالدعاء منزه عن الحلول بالبيت والسماء ؛ وقد أشار النسفي أيضاً فقال :

ورفع الأيدي والوجوه عند الدعاء تعبد محض كالتوجه إلى الكعبة في الصلاة ، فالسماء قبله الدعاء كالبيت قبلة الصلاة .

(٢) ويدل لذلك قوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده لأن ذكر العبودية في وصف من الله فوقه يؤكد إحتمال فوقية القهر والإستيلاء .

وذكر الإمام ناصر الدين بن المنير المالكي في كتابه المنتقي في شرف المصطفى :

لما تكلم على الجهة وقرر نفيها قال : ولهذا أشار مالك رحمه الله تعالى في قوله ﷺ : « **لا تفضلوني على يونس بن متى** » فقال مالك : إنما خص يونس بالتنبيه على التنزيه ، لأن ﷺ ، رفع إلى العرش ، ويونس عليه السلام هبط إلى قاموس البحر ونسبتهما مع ذلك من حيث الجهة إلى الحق جل جلاله ، نسبة واحدة ، ولو كان الفضل بالمكان لكان عليه السلام أقرب من يونس بن متى وأفضل ولما فهي عن ذلك .

ثم أخذ الإمام ناصر الدين يبدي مبدىء أن الفضل بالمكانة لأن العرش في الرفيق الأعلى فهو أفضل من السفلى فالفضل بالمكانة لا بالمكان .

(٣) هذا الأصل معقود لبيان أنه تعالى غير مستقر على مكان ، كما قدمه صريحاً في ترجمة أصول الدين الأول ونبه عليه هنا بالجواب عن تمسك القائلين بالجهة والمكانة ؛

فإن الكرامية يثبتون جهة العلو من غير إستقرار على العرش .

والحشوية وهم المجسمون مصرحون بالإستقرار على العرش ، وتمسكوا بظواهر : منها قوله تعالى : ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾. =

وهو الذي لا ينافي وصف الكبرياء ، ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء ، وهو الذي أريد بالإستواء إلى السماء حيث قال في القرآن :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾[1] وليس ذلك إلا بطريق القهر

= ومنها : حديث الصحيحين : ينزل ربنا كل ليلة الحديث . . .

وأجيب عنه بجوار إجمالي هو كالمقدمة للأجوبة التفصيلية ، وهو أن الشرع إنما ثبت بالعقل فإن ثبوته يتوقف على دلالة المعجزة على صدق المبلغ ، فإنما تثبت هذه الدلالة بالعقل ، فلو أتى الشرع بما يكذبه العقل وهو شاهده لبطل الشرع والعقل معاً .

ويعلق الشيخ الزبيدي على هذا فيقول :

« إذا تقرر هذا فنقول : كل لفظ يرد في الشرع مما يستند إلى الذات المقدسة بإن يطلق إسمًا أو صفة لها وهو مخالف للعقل ، ويسمى المتشابه لا يخلو : إما أن يتواتر أو ينقل آحاداً ، والآحاد إن كان نصاً لا يحتمل التأويل قطعنا بإفتراء ناقلة أو سهوه أو غلطة ، وإن كان ظاهراً فظاهره غير مراد ، وإن كان متواتراً فلا يتصور أن يكون نصاً لا يحتمل التأويل ، بل لا بد وأن يكون ظاهراً ، وحينئذ نقول الإحتمال الذي ينفيه العقل ليس مراداً منه ، ثم إن بقي بعد إنتفائه إحتمال واحد تعين أنه المراد بحكم الحال ، وإن بقي إحتمالان فصاعداً فلا يخلوا إما أن يدل قاطع على واحد منها أو لا ، فإن دل حمل عليه ، وإن لم يدل قاطع على التعيين ، فهل يعين بالنظر والإجتهاد دفعاً للتحبط عن العقائد أولا خشية الإلحاد في الأسماء والصفات الأول مذهب الخلف ، والثاني مذهب السلف .

وأما الأجوبة التفصيلية فقد أجيب عن آية الإستواء بأنا نؤمن بأنه تعالى إستوى على العرش مع الحكم بأنه ليس كإستواء الأجسام على الأجسام من التمكن والمماسة والمحاذاة لها لقيام البراهين القطعية بإستحالة ذلك في حقه تعالى ، بل نؤمن بأن الإستواء ثابت له تعالى بمعنى يليق به تعالى .

(١) آية ١١ من سورة فصلت وتمامها : فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طاعين .

وقال أيضاً : ثم إستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات »

وفي سورة طه : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ .

وفي الأعراف ، ويونس ، والرعد ، والسجدة ، والحديد : ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ .

وفي الفرقان : ﴿ **ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً** ﴾ .

والإستيلاء[1] ، كما قال الشاعر[2] :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطل الى تأويل . .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُم ﴾[3] إذ حمل ذلك بالإتفاق على الإحاطة والعلم[4] ، وحمل قوله ﷺ :

« **قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن** »[5] على القدرة

---

(١) يعني قهره على العرش ، واستيلاؤه ، وهذا أجرى عليه بعض الخلق ، وأقتصر عليه المصنف هنا ، وهذا يعني كونه المراد أنه الإستيلاء ، فعند الماترية أمر جائز الإرادة ، أي يجوز أن يكون مراد الآية ولا يتعين كونه المراد خلافاً لما دل عليه كلام المصنف من تعيينه إذ لا دليل على إرادته عيناً ، فالواجب عيناً ما ذكر من الإيمان به مع نقي التشبيه وإذا خيف على العامة لقصور إفهامهم عدم فهم الإستواء إذا لم يكن بمعنى الإستيلاء إلا بالإتصال ونحوه من لوازم الجسمية وإن لا يقفوا تلك اللوازم ، فلا بأس بصرف فهمهم إلى الإستيلاء صيانة لهم من المحذور ، فإنه قد ثبت إطلاقه وإرادته لغة .

(٢) وهو البعيث كما قاله إبن عباد أو الأخطل كما قاله الجوهري في بشر بن مروان .
كذا نسبه الصاحب إسماعيل بن عباد في كتابه نهج السبيل .

(٣) الآية : ٤ من سورة الحديد .

(٤) قال أبو نصر القشيري في التذكرة الشرقية ، فإن قيل : أليس الآ يقول : **﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾** فيجب الأخذ بظاهره .
قال الزبيدي : الله يقول أيضاً : وهو معكم أين ما كنتم . ويقول تعالى : **﴿ ألا إنه بكل شيء محيط ﴾** .
فينبغي أيضاً أن تأخذ بظاهر هذه الآيات حتى يكون على العرش ، وعندنا ومعنا ومحيطاً بالعالم محدقاً به بالذات في حالة واحدة والواحد يستحيل أن يكون بذاته في حالة بكل مكان ؛
قالوا : قوله تعالى : **﴿ وهو معكم ﴾** يعني بالعلم ، وبكل شيء محيط إحاطة العلم .
قلنا : وقوله تعالى : على العرش إستوى قهر وحفظ وأبقى .

(٥) رواه مسلم في صحيحه وفيه أيضاً : « أن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع للرحمن يقلبها كقلب واحد يصرفه كيف شاء .

والقهر[1] ، وحمل قوله ﷺ : «**الحجر الأسود يمين الله في أرضه**»[2] على التشريف والإكرام[3] ، لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال ، فكذا الإستواء ، لو ترك على الإستقرار والتمكن لزم منه[4] ، كون المتمكن جسمًا مماساً للعرض ، اما مثله أو أكبر منه أو أصغر ، وذلك محال ، وما يؤدي إلى المحال فهو محال[5] .

---

(١) مجاز بعلاقة أن اليد في الشاهد محل لظهور سلطان القدرة والقهر فحسن إطلاق اليد وإرادة القدرة والقهر قصداً للمبالغة إذ المجاز أبلغ .

(٢) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام بلفظه ، وروى إبن ماجه نحو أمن معناه من حديث أبي هريرة رفعه من فاوض الحجر الأسود فإنما يفاوض يد الرحمن .

(٣) والمعنى أنه وضع في الأرض للتقبيل والإستسلام تشريفاً له ، كما شرفت اليمين وأكرمت بوضعها ، للتقبيل دون اليسار في العادة فاستعير لفظ اليمين للحجر لذلك أو لأن من قبله أو استلمه فقد فعل ما يقتضي الإقبال عليه والرضا عنه وهما لازمان عادة لتقبيل اليمن ؛
والحاصل أن لفظ اليمين استعير للحجر للمعنين أو لأحدهما ثم أضيف إضافة تشريف وإكرام .

(٤) المحال ويتأمل بعض الأيات والأخبار دون بعض على حكم التمني والتشهي ليس في الشرط والمقصود من هذه المعارضة إنه يعرف أن الخصم يضطرّ إلى التأويل ، فلتكن التأويلات على وفق الأصول .

(٥) وفي نسخة أخرى : وما يؤدي إلى المحال محال .
وتحقيق ذلك أنه تعالى لو إستقر على مكان أو حاذى مكاناً لم يخل من أن يكون مثل المكان أو أكبر منه أو أصغر منه . فإن كان مثل المكان فهو إذا متشكل بأشكال المكان حتى إذا كان المكان مربعاً كان هو مربعاً ، أو كان مثلنا كان هو مثلنا وذلك محال وإن كان أكبر من المكان فبعضه على المكان ويشعر ذلك بأنه متجزىء وله كل ينطوي على بعض ، وكان بحيث ينتسب إليه المكان بأنه ربعه أو خمسة ، وإن كان أصغر من ذلك المكان بقدر لم يتميز عن ذلك المكان إلا بتحديد ، وتتطرق إليه المساحة والتقدير ، وكل ما يؤدي إلى جواز التقدير على الباري تعالى ، فتجوزه في حقه كفر من معتقده وكل من جاز عليه الكون بذاته إنه على محل لم يتميز عن ذلك المحل ألا يكون وقبيح وصف الباري بالكون ، ومتى جاز عليه موازاة مكان أو مماسته جاز عليه مباينته ، ومن جاز عليه المباينة =

الأصل التاسع : الرؤية :

العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار ، مرئي بالأعين والأبصار في الدار الآخرة[1] دار القرار ، لقوله تعالى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[2].

ولا يرى في الدنيا تصديقاً لقوله عز وجل :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ ﴾[3]

= والمماسة ، لم يكن إلا حادثاً ، وهل علمنا حدوث العالم إلا بجواز المماسة والمباينة على إجزائه ، وقصارى الجهلة قولهم : كيف يتصور موجود لافي محل ، وهذه الكلمة تصدر عن بدع وغوائل لا يعرف غورها وقعرها إلا كل غوّاص على بحار الحقائق ، وهيهات طلب الكيفية حيث يستحيل محال .

والذي يدحض شبههم أن يقال لهم قبل أن يخلق العالم ، أو المكان هل كان موجوداً أم لا ، فمن ضرورة العقل أن يقول بلى ، فيستلزمه لو صح قوله لا يعلم موجوداً إلا في مكان أحد أمرين : إما أن يقول المكان والعرش والعالم قديم ، وإما أن يقول الله تعالى محدث ، وهذا مآل الجهلة والحشوية ، ليس القديم بالمحدث والمحدث بالقديم ، ونعوذ بالله من الحيرة في الدين .

يقول إبن الهمام في المسايرة ، وعلى نحو ما ذكرنا في الإستواء يجري كل ما ورد في الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية في الشاهد كالأصبع والقدم واليد والعين ، فيجب الإيمان به مصحوباً بالتنزيه فإن كلا منها صفة له تعالى لا بمعنى الجارحة بل على وجه يليق به فهو سبحانه وتعالى أعلم به .

(١) وفي نسخة أخرى : (. . في الدار الآخرة بعد دخولهم دار القرار)

وعليه فقد نظم المؤلف هذا الأصل في سلك أصول الركن المقصود لمعرفة الذات نظراً إلى أن نفي الجهة يوهم أنه مقتضي للإنتفاء فاقتضى المقام دفع هذا التوهم ببيان جواز الرؤ ية عقلاً ووقوعها سمعاً فهو كالتتمة للكلام في نفي الجهة والمكان .

(٢) الآية : (٢٢ ، ٢٣) من سورة القيامة (٧٥) .

(٣) الآية : (١٠٣) من سورة الأنعام (٦) .

ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾[1] .

وليت شعري كيف عرف المعتزلي من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام ؟[2] .

وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤ ية مع كونها محالا . .

ولعل الجهل يذوي البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم[3] .

---

(١) من الآية (١٤٣) من سورة الأعراف (٧) وتمامها: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ ووجه الإستدلال من وجهين :

أحدهما : أنه لو لم تجز الرؤ ية لما طلبها موسى عليه السلام ، واللازم باطل بالإجماع ، وتواتر الأخبار بيان اللزوم أن موسى عليه السلام عالم بما يجوز على الله تعالى ، وما يستحيل عليه ، والإ يلزم الجهل وهو محال على الأنبياء ، وإذا كان عالماً بما لا يجوز الرؤ ية مما لا يجوز على ذلك التقدير يكون طلبه للرؤ ية عبثاً وذلك على الأنبياء محال .

(٢) مع أنه نبي كريم من أولى العزم من الرسل ، أرأيت المعتزلي أعرف بالله تعالى منه مع أن المقصود من بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الدعوة إلى العقائد الدينية الحقة والأعمال الصالحة .

(٣) وحاصل هذا الإستدلال أن سؤ ال موسى عليه السلام إياها دليل على أنه كان يعتقد أنه كان جائز الرؤ ية والوجه الثاني أنه تعالى علق الرؤ ية بشرط منصور الكون وهو إستقرار الجبل ، فدل على أنه جائز الوجود إذ تعليق الفعل بما هو جائز الوجود ، يدل على جوازه ، كما أن التعليق بما هو ممتنع الوجود أو متحقق الوجود يدل على إقناعه ، أو تحققه ، والدليل على أن إستقرار الجبل ممكن الثبوت قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ .

أخبر أنه جعله دكا ، لا أنه أندل بنفسه ، وما أوجده الله تعالى كان جائزاً أن لا يوجد لو لم يوجده الله تعالى ، إذ الله تعالى مختار فيما يفعل فإذا جعل الجبل دكا باختياره ، وكان جائزاً أن لا يفعل دل على جواز وجوده .

وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر ، فهو أنه غير مؤد الى المحال[١] فإن الرؤية نوع كشف وعلم[٢] ، إلا أنه أتم وأوضح من العلم[٣] ، فإذا جاز تعلق العلم به وليس في جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة [٤] .

---

(١) فوجب أن لا يعدل عن الظاهر إذ العدول إنما يجوز عند عدم إمكانه لامع إمكانه ثم علل قوله غير مؤد إلى المحال .

(٢) للمدرك بالمرئي يخلق الله هذا النوع عند مقابلة الحاسة للمرئي بحسب ما جرت به العادة الإلهية .

(٣) أي أن مسمى الرؤية هو الإدراك المشتمل على الزيادة على الإدراك الذي هو علم جلى ، إذ هو العلم الذي لا ينقص منه قدر من الإدراك .

(٤) يعني من غير مقابلة بين الباصرة والمرئي في جهة مع تلك المقابلة مسافة خاصة بين الحاسة والمرئي الكائن في تلك الجهة ، ومن غير إحاطة بمجموع المرئي .

وقوله من غير مقابلة : فيه دفع لقول المعتزلة والحكماء القائلين بأن من شرائط الرؤية مقابلة المرئي للباصرة في جهة من جهات ؛

وقولي مع تلك المقابلة مسافة خاصة رد على قولهم ، إن من شرائط الرؤية عدم غاية البعد بحيث ينقطع إدراك الباصرة وعدم غاية القرب ، فإن المبصر إذا التصق بسطح البصر بطل إدراكه بالكلية ، ولذلك لا يرى باطن الأجفان .

وقولي : من غير إحاطة بمجموع المرئي ، إشارة نفي كون الرؤية تستلزم الإحاطة بالمرئي لتكون ممتنعة في حقه تعالى ، لأنه لا يحاط به ، قال تعالى : ﴿ **لا يحيطون به علمًا** ﴾ .

والحاصل أنه يجوز عقلاً أن يخلق القدر المذكور من العلم في الحي على وفق مشيئته تعالى ، من غير مقابلة لجهة أخرى .

وقولي بمجموع المرئي ، فيه تنبيه على أنه إذا ثبت أن المجموع المتركب من أجزاء متناهية ، يرى دون إحاطة ، فالذات المنزهه عن التركيب والتناهي والحدود والجهة أولى بأن تنفك رؤيتها عن الإحاطة ، والدليل على جواز أن يخلق الله قدراً من العلم من غير مقابلة بحاسة البصر أصلاً ، ما ورد في الصحيحين من حديث أنس رفعه : « أتموا صفوفكم فإني أراكم من وراء ظهري .

وعند البخاري وحده عن أنس : أقيموا صفوفكم وتراصوا » .

وعند النسائي : « أستووا ، إستووا فوالذي نفسي بيده إني أراكم من خلفي كما أراكم من بين يدي . والدليل على قولنا من غير إحاطة ، ورءيتنا السماء فانا نراها ولا نحيط بها .

وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق[١] ، وليس في مقابلتهم ، جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة[٢] وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة[٣] ، جاز أن يرى كذلك .

الأصل العاشر : الوحدانية .

العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له[٤] ، فرد لا ند[٥] له ، الفرد بالخلق والإبداع واستبد بالإيجاد والإختراع[٦]، لا مثل له يساهمه ويساويه، ولا

---

(١) أي كون ذلك القدر من العلم المسمى بالرؤ ية مشبهاً في كونه دون مقابلة رؤ ية الله تعالى إيانا ، فإنه تعالى يرى خلقه .

(٢) فالرؤ ية نسبة خاصة بين طرفي راء مرئي ، فإن فرض أن تلك النسبة تقتضي عقلاً كون أحدهما من جهة اقتضت كون طرفها الآخر كذلك في جهة لإشتراكهما في التعلق ، فإذا ثبت برفاق الخصمين عدم لزوم ذلك في أحد طرفيها لزم في الطرف الآخر مثله فكان الثابت عقلاً نقيض ما فرض فثبت إنتفاء ما فرض ، وإن فرض اللزوم في أحد الطرفين وعدمه فهو تحكم محض .

(٣) لأن الرؤ ية نوع علم خاص يخلقه الله تعالى في الحي غير مشروط بمقابلة ولا غيرها مما ذكر .

(٤) الشريك فعيل من الشركة وهو كون الشيء بحيث يتحد مع غيره في شيء موضوعاً كان أو محمولاً صفة أو موصوفاً متعلقاً أو أثراً .

(٥) لا تشبيه له ، ثم إن الوحدانية هي الصفة الخامسة من الصفات السلبية ، وهي عبارة عن سلب التعدد في الذات والصفات والأفعال ، فوحدانية الذات تنفي التعدد المتصل بأن يكون ذاتاً مركبة من جواهر وأعراض ، والتعدد المنفصل بأن تكون ذات تماثل ذاته ووحدانية الصفات تنفي التعدد المتصل بأن تكون له قدرتان وارداتان وارادتان وعلمان فأكثر إلى آخرها .
والتعدد المنفصل بأن تكون صفة في ذات تماثل صفاته الأزلية ، ووحدانية الأفعال تنفي أن يكون فعل أو إختراع أو إيجاد لغيره تعالى من الممكنات .

(٦) والإختراع خاص بالله عز وجل والفعل يطلق على القديم والحادث إلا أنه في حق الله تعالى حقيقة ، لأنه هو الذي اخترعه ، وأما في حق الحادث فمجاز وإنما عبارة عن مباشرتهم للأشياء وتحريكهم لها والإيجاد والخلق أيضاً خاصان بالله تعالى .

ضد له فينازعه ويناويه[1] ، وبرهانه قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلاَّ ٱللَّهُ لَفَسَدَتا﴾ [2] .

وبيانه : أنه لو كان اثنين وأراد أحدهما أمراً فالثاني إن كان مضطراً إلى مساعدته كان هذا الثاني مقهوراً عاجزاً ولم يكن الهاً قادراً ، وإن كان قادراً على مخالفته ومدافعته ، كان الثاني قوياً قاهراً ، والأول ضعيفاً قاصراً ولم يكن الهاً قادراً[3] . . .

---

(١) أي يعارضه : والمناواة والمنازعة يكونان على سبيل المعاندة ، والمعاندة هي كون الشيء بحيث يستلزم كل منهما نقيض لازم الآخرة .

ومن سياق المصنف أن الوحدانية عبارة عن مجموع أمور ثلاثة :

نفى الكثرة في ذاته ، ونفى النظير في ذاته ، وصفاته ، وإنفراده بالخلق والإختراع .

(٢) الآية : **٢٢** من سورة الأنبياء .

(٣) وفي نسخة أخرى : قاهراً ، ويسمى هذا البرهان عند القوم برهان عند القوم برهان التمانع ؛ وقد إختلفت عبارات القوم في تقرير هذا البرهان بعبارات مختلفة .

فقال صاحب الإملاء علي البخاري ما نصه :

إنه قام البرهان القاطع على وجوب عموم قدرته وإرادته لجميع الممكنات ، فلو نذر موجود له من القدرة على إيجاد ممكن ما مثل ماله تعالى لزم عند تعلق تينك القدرتين أن لا يوجد شيء من العالم بهما لما يلزم عليه من تحصيل الحاصل أو كون الأثر الواحد أثرين ، لأن المسألة مفروضة فيما لا ينقسم كالجوهر الفرد، فلا بد من عجزهما إن لم يوجد بهما ، ومن عجز أحدهما إن وجد بأحدهما دون الآخر ، ويلزم من عجز أحدهما عجز الآخر ، لأنه مثله ، وإذا لزم عجزهما في هذا الممكن لزم عجزهما في سائر الممكنات إذ لا فرق ، وذلك يستلزم إستحالة وجود الحوادث وهو محال ، لأنه خلاف الحس والعيان ؛ وإذا إستبان وجوب عجزهما مع الإتفاق فمع الإختلاف أبين وإليه الإشارة بالآية الكريمة وهي قوله تعالى : **﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾** اهـ

وقال إبن القشيري رضي الله عنه :

« الدليل على وحدانيته تعالى أنه لو كان للعالم صانعان فصاعداً لم يخل : أما أن يكونا قادرين ، فلو كانا قادرين على الكمال لجاز في العقول تمانعهما بأن يريد أحدهما بقاء الجسم في حالة معينة =

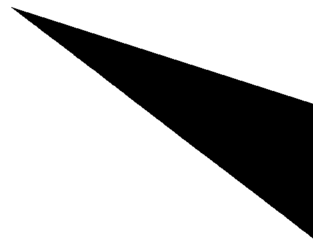
= ويريد الآخر فناءه في تلك الحالة فإذا قدر أعلى تنفيذ إرادتها أدى ذلك إلى المحال وهو أن يكون الجسم الواحد موجوداً معدوماً في حالة واحدة ، وما أدى إلى المحال محال ، وإن كانا عاجزين أو كان أحدهما عاجزاً فالعاجز لا يصلح للالهية لأن الصانع قديم وعجز قديم محال لأن العجز لا يكون إلا عن فعل يعجز عنه وما لم يتصور الفعل لم يتصور العجز ، وتقدير الفعل في الأزل محال ؛

وإن لم يكونا قادرين على الكمال فليفرض الدليل في أن يريد أحدهما وجود جوهر ويريد الآخر أن لا يوجد هذا إذا لم يقدر أحدهما على شيء من الأعراض ، فلنفرض الدليل في أن يريد الآخر ضده ويذكر الدليل بأسره . اهـ

الركن الثاني

العلم بصفات الله تعالى
ومداره على عشرة أصول





الأصل الأول : القدرة

العلم بأن صانع العالم قادر[1] ، وأنه تعالى في قوله :

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] صادق ، لأن العالم محكم في صنعته مرتب في خلقته ومن رأى ثوباً من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب

(١) أي ذو قدرة ، وهي عبارة عن المعنى الذي به يوجد الشيء مقدراً بتقدير الإدارة والعلم واقعاً على وفقهما ؛

فالقاهر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، وليس من شرطة أن يشاء لا محالة ، فإن الله تعالى قادر على إقامة القيامة الآن ، فإنه لو شاء أقامها ، وإن كان لا يقيمها ، فإنه لم يشاءها ولا يشاؤها ، لما جرى في سابق علمه من تقدير أجلها ووقتها ، وذلك لا يقدح في القدوة والقادر المطلق هو الذي يخترع كل موجود إختراعاً ينفرد به ويستغني فيه عن معاونة غيره هو الله سبحانه وتعالى .

(٢) الآية رقم (١) من سورة الملك (٦٧) .

وقد ورد في السنة الشريفة المطهرة : ذكر القادر والمقتدر في أسماء الله تعالى ، وجاء القرآن بهذين الإسمين بالقدير أيضاً ، والقدير أبلغ من القادر والمقتدر أبلغ من القادر ، وللقادر معنيان يكون بمعنى القدير من القدرة على كل شيء ، وذلك صفة لله عز وجل وحده من دون غيره ، وإنما يوصف القادر منا بالقدرة على بعض المقدورات دون بعض .

الوجه الثاني : أن يكون بمعنى المقدور ، يقال قدر بالتخفيف وقدر بالتشديد .

التطريز والتطريف ، ثم توهم صدور نسجه عن ميت لا استطاعة له ، او عن انسان لا قدرة له ، كان منخلعاً عن غريزة العقل ، ومنخرطاً في سلك أهل الغباوة والجهل .

الأَصل الثاني : العلم .

العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ، ومحيط بكل المخلوقات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأَرض ولا في السماء ، صادق في قوله .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2] . .

أرشدك إلى الإستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب في دلالة الخلق

---

(١) الآية (١٠١) من سورة الأنعام (٦) .

والمعنى : أنه سبحانه ظاهره وباطنه دقيق وجليله أوله وآخره ، عاقبته وخاتمته ، وهذا من حيث الكشف على أتم ما يمكن فيه بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه ، ولا يكون مستفاداً من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه .

(٢) الآية (١٤) من سورة الملك (٦٧) .

والمراد : من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دق منها وما لطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح على سبيل الرفق دون العنق ، فإذا إجتمع الرفق في الفعل واللطف والإدراك ، ثم معنى اللطف ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا الله تعالى ؛ فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك ، بل الخفي عنده كالجلي من غير فرق ، وأما رفقه في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضاً تحت الحصر إذ لا يعرف اللطف في فعله إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق اللطف فيها وبقدر إتساع المعرفة فيها تتسع بمعنى إسم اللطيف ؛ وأما الخبير فهو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة فلا يجري في الملك والملكوت شيء لا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها وهو بمعنى العليم ، إلا أن العلم إذا أضيف الى الخفا الباطنة سمي خبرة ويسمى صاحبها خبيراً .

اللطيف ، والصنع المزين بالترتيب ولو في الشيء الحقير الضعيف ، على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف ، فما ذكره الله سبحانه وهو المنتهي في الهداية والتعريف .

الأصل الثالث : الحياة

العلم بكونه عز وجل حيا[1] ، فإن من ثبت علمه وقدرته بالضرورة حياته[2] ، ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حياً لجاز أن يشك في حياة الحيوانات عند ترددها في الحركات والسكنات ، بل في حياة أرباب الحرف والصناعات ، وذلك انغماس في غمرة الجهالات والضلالات .

الأصل الرابع : الإرادة

العلم بكونه تعالى مريداً لأفعاله ، فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته[3] ، فهو المبدىء المعيد ، والفعال لما يريد ، وكيف[4] لا يكون مريداً وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده[5] ، ومالا ضد له أمكن أن

---

(١) وهو الذي تندرج جميع المدركات تحت إدراكه وجميع الموجودات تحت فعله حتى لا يشذ عن علمه مدرك ، ولا عن فعله مفعول وذلك هو الله تعالى ، فهو الحي الكامل المطلق وكل حي سواه فحياته بقدر إدراكه وفعله وكل ذلك محصور في قلة .

(٢) أي أن الدليل عليه ما دلنا على كون الباري تعالى عالماً قادراً ، ومن شرط العالم القادر أن يكون حياً ، وأيضاً دلنا على أن العالم فعله ، ويستحيل صدور الفعل عن الميت والجماد .

(٣) ذلك أن المريد لم يرد به السمع على هذه الصيغة ، وإنما ورد بصيغة الفعل ، ولكن إطلاق مريد مما ثبت بالإجماع ؛

(٤) وفي نسخة أخرى : فكيف لا يكون مريداً . . .

(٥) يعني كل صادر عنه تعالى من الممكنات في وقت من الأوقات كان من الممكن صدور ضده فيه أي ضد ذلك الصادر بعينه في وقت آخر .

يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده ، والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة ، فلا بد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين[1] ، ولو أغنى العلم عن الإرادة في تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد[2] في الوقت الذي سبق العلم بوجوده ، لجاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال : وجد بغير قدرة ، لأنه سبق العلم بوجوده فيه[3] .

الأصل الخامس : السمع والبصر

العلم بأنه تعالى سميع بصير[4] لا يعزب عن رؤ يته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير[5] ، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء[6] ، وكيف لا يكون سميعاً بصيراً والسمع والبصر

---

(١) فتخصيصه بصدوره في ذلك الوقت دون ذلك الممكن الآخر ودون ما قبل ذلك الوقت وما بعده لا بد من كونه يصرف القدرة المناسبة للضدين والوقتين على السواء عن إيجاد ذلك الممكن من غير ذلك الوقت أو إيجاد غيره بدله في ذلك الوقت إلى تخصيص ذلك الممكن دون غيره بذلك الوقت المخصوص ، ولا نعني بالإرادة إلا ذلك المعنى المخصص وهو صفة حقيقية قائمة بذاته توجب تخصيص المقدور دون غيره بخصوص وقت إيجاده دون ما قبله ، وما بعده من الأوقات .

(٢) وفي نسخة أخرى : إنما يوجد في الوقت . . . الخ

(٣) وهذه الجملة أوردها إمام الحرمين في سياق الرد على الكعبي من المعتزلة .

(٤) بلا جارحة وحدقة ولا اذن كما أنه تعالى عليم بلا دماغ ، وقلب ، فليس سمعه كسمع المخلوق الذي هو قوة مودعة في مقعر الصماخ يتوقف إدراكها للأصوات على حصول الهواء الموصل إلى الحاسة وتأثر الحاسة ولا كبصر المخلوق الذي هو قوّة مودعة في العصبتين المجوفتين الخارجتين من الدماغ ، بل المراد بالسمع صفة وجودية قائمة بالذات شأنها إدراك كل مسموع وإن خفى ؛ والمراد بالبصر صفة وجودية قائمة بالذات شأنها إدراك كل مبصر ، وإن لطف

(٥) والمراد بالوهم : الهواجس وما يخطر بالبال والوهم بمعناه .

والمراد من التفكير : ما خفي عنه وهو مصدر فكره مشدداً إذ أورده في فكره .

(٦) والمعنى المراد : أن سمعه سبحانه منزه من أن يتطرق إليه الحدثان ومهما نزهت السميع عن تغير =

كمال لا محالة وليس بنقص[1] ؟

فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق ، والمصنوع أسنى وأتم من الصانع ؟

وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص في جهته والكمال في خلقه وصنعته[2] ؟ أو كيف تستقيم حجة إبراهيم ﷺ، على أبيه[3] إذ كان يعبد الأصنام جهلاً وغيا ، فقال له :

﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾[4] .

ولو انقلب ذلك عليه في معبوده[5] لأضحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله تعالى :

= يعتريه عند حدوث المسموعات ، وقدسته عن أن يسمع بآذان أو آلة علمت أن السمع في حقه عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات ، ومن لم يدقق نظره فيه وقع بالضرورة في محض التشبيه فخذ منه حذر له ودقق فيه نظرك .

(١) فهو تعالى أحق بالإتصاف بها من المخلوق .

(٢) هذا لا يتصوره عاقل ، وفي هذا الإستدلال الذي ذكره المصنف اختلفت عباراتهم ولكن المآل إلى ما ذكره أبو القاسم القشيري في كتاب الإعتقاد :
والدليل عليه أنهما صفتا مدح في ثبوتهما نفي نقص لا ينتقي ذلك النقص إلا بهما ، والإله سبحانه وتعالى مستحق لأوصاف الكمال .

(٣) آزر كما هو نص القرآن ، أو هو تارخ كما هو قول النسابة ، وآزر عمه ، وإستعمال الأب على العم شائع في الإستعمال .

(٤) الآية : (٤٢) من سورة مريم (١٩) .
والمراد : أنه أفاد أن هذه صفات لا يليق بالمعبود أن يسلبها .

(٥) بحيث سلبت عنه تلك الصفات ، لأضحت حجته التي إحتج بها على خصمه ، ودلالته التي إستدل بها في تحقيق مقصودة ، ساقطة في حد ذاتها ولم تكن ملزمة له أصلاً .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾[١] .

وكما عقل كونه فاعلاً بلا جارحة ، وعالماً بلا قلب ودماغ[٢] ، فليعقل كونه بصيراً بلا حدقة[٣] ، وسميعاً بلا أذن ، إذ لا فرق بينهما .

الأصل السادس[٤] : الكلام

أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام[٥] ، وهو وصف قائم[٦] بذاته ، ليس بصوت ولا حرف ، بل لا يشبه كلامه كلام غيره[٧] ، كما لا يشبه وجوده وجود غيره ؛ والكلام بالحقيقة كلام النفس ، وإنما الأصوات قطعت حروفاً للدلالات

---

(١) الآية : (٨٣) من سورة الأنعام (٦) .

(٢) وإنما ذكرهما جميعاً لما أن علم المخلوق قد إختلف في محله : أهو الدماغ أو القلب فجمع بين القولين .

(٣) وهي محركة التي فيها إنسان العين ، ويجمع على أحداق .

(٤) فربيان أحد صفات المعاني التي هي الكلام فقال : إنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام .

(٥) والذي يقتضيه المقام من التكلم على عبارة المصنف رحمه الله تعالى ورضي الله عنه :
أن البحث في هذا المقام يرجع إلى أمرين : الأول : أنه تعالى متكلم ؛ والثاني : أنه تعالى متكلم بكلام نفس قائم بذاته ، وفي أثناء ذلك بيان صحة إطلاق الكلام عليه لغة وإن إطلاقه عليه هل يكون مجازاً أو حقيقة ، وقد أشار المصنف إلى كل ذلك بقوله إنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام .

(٦) أما قيامة بذاته فلأنه تعالى وصف نفسه بالكلام في قوله تعالى : قلنا إهبطوا منها جميعاً .
وقوله تعالى : وقلنا يا آدم ، ومواضع أخرى كثيرة ، والمتكلم الموصوف بالكلام لغة من قام الكلام بنفسه لا من أوجد الحروف في غيره .

(٧) لأنه صفة من صفات الربوبية ولا مشابهة بين صفات الباري وصفات الآدميين ، فإن صفات الآدميين زائدة على ذواتهم لتكثر وحدتهم فتقوم أنفسهم بتلك الصفات وتتعين حدودهم ورسومهم بها وصفة الباري تعالى لا تحد ذاته ولا ترسم ، فليس إذا بشيء زائد على الباري تعالى .

كمايدل عليها تارة بالحركات والإشارات[١] ، وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا[٢]

ومن لم يعقله عقله ولا نهاه نهاه[٣] عن أن يقول :

لساني حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتي الحادثة قديم ، فاقطع عن عقله طمعك ، وكف عن خطابه لسانك .

ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء ، وأن الباء قبل السين في قولك : بسم الله ، فلا يكون السين المتأخر عن الباء قديما[٤] فنزه عن الإلتفات إليه قبلك[٥] ، فلله سبحانه سر في إبعاد بعض العباد ، ومن يضلل الله فما له من

---

(١) فهذا منه تصريح أن الكلام النفسي هو الحقيقة ، وأن المعنى القائم بالنفس هو الكلام حقيقة ، والحروف والأصوات دلالات عليه ومعرفات له ، وأنه حقيقة واحدة هي الأمر والنهي والخبر والإستخبار ، وأنها صفات لها الأنواع .

(٢) وقائل هذا البيت هو الأخطل وقبله :

لا يعجبنك من أمير خطبة حتى يكون مع الكلام أصيلاً

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

(٣) وفي نسخة أخرى : ولم يعظه عقله . . . الخ

(٤) لكونه مسبوقاً بالباء ، وهذا مكابرة للحس وخروج عن مقتضيات العقول المحيلة .

(٥) أي أبعده عنه ولا تخالط به فإن شيطانه المريد لا يسمع التنفيذ وبمعاشرته يكثر اللجاج والمراء ، ويترتب عليهما فساد النظام وضياع الوقت فيما لا يجدي إلى المرام ، وهذا حال أغبيائهم فإنهم لا يفهمون معنى القديم ولا يميزون بينه وبين الحادث ولا يتحاشون من رفض بداهة العقول والمتغافلون منهم لم يرضوا بركوب متن الجهل واللجاج ، فقالوا : الحروف قديمة بالنوع ورجعوا كرامية عند التحقيق .

هاد[1] ، ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام في الدنيا كلاماً ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن يرى في الآخرة موجوداً ليس بجسم ولا لون[2] وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية ، وهو إلى الآن لم ير غيره ، فليعقل في حاسة السمع ما عقله في حاسة البصر[3] .

وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات ، فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع ما دل عليه بالعبارات[4] ؛ وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة في ورقة صغيرة ومحفوظة في مقدار[5] ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئي في مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحل ذات ـ السموات والارض والجنة والنار في الحدقة والقلب والورقة ، فليعقل كون الكلام مقروءاً بالألسنة ، محفوظا في القلوب ، مكتوبا في المصاحف[6] من غير حلول ذات الكلام فيها ، إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام في الورق[7] لحل

(١) ليس له من هادٍ يرشده إلى سلوك سبيل السداد .

(٢) ولا قابل للحوادث ، وأن المقصود نفي الكيفية على كل حال ، وكذلك إذا إستبعدوا كيف سمع جبريل عليه السلام والمؤمنون غداً كيف يسمعون ؟ فالجواب سمع كلاماً ليس بحرف ولا صوت من متكلم حتى ليس له لسان وشفه ؛

(٣) يعني فليعقل سماع ماليس بصوت ، وهو لا يكون إلا بطريق خرق العادة كما نبه عليه الباقلاني .

(٤) من أمر ونهي وأخبار ، وقد جاز في الشاهد أن يكون الشيء الواحد أمراً ونهياً وخبراً وإستخباراً فكذلك يجوز في الغائب ولم يكن مستحيلاً ، وهذه العبارات مخلوقة لأنها أصوات وهي أعراض سميت تلك العبارات كلام الله لدلالتها عليه وتأديه بها ، والإختلاف في العبارات المؤدية لا الكلام .

(٥) وفي نسخة أخرى : في تعداد ذرة من القلب . . . الخ

(٦) وفي نسخة أخرى : مكتوباً في المصاحف بالأحبار المتنوعة من غير حلول ذات الكلام فيها . . .

(٧) كلمة (في الورق) لم توجد في النسخ الأخرى .

ذات الله تعالى بكتابه اسمه في الورق ، وحلت ذات النار بكتابه إسمها في الورق ، ولا حترق[1] .

الأَصل السابع : قدم الكلام والصفات والتنزه عن حلول الحوادث :

أَعلم أن الكلام القائم بنفسه قديم[2] ، وكذا جميع صفاته ، إذ يستحيل أن يكون محلاً للحوادث داخلاً تحت التغير ، بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعتريه التغيرات ، ولا تحله الحادثات[3] بل لم يزل في قدمه موصوفاً بمحامد الصفات ، ولا يزال في أبده كذلك منزهاً عن تغير الحالات[4] ،

---

(١) ولكان من نطق بالنار إحترق فمه والجنة والنار مكتوبتان في المصاحف ، ثم أحد لا يتخيل أنهما مدرجتان فيها بالذات ، وكذا النبي ﷺ مكتوب في التوراة والإنجيل لا على معنى أنه حال فيهما ولكن فيهما دلالة عليه وهو المكتوب ﷺ بتلك الكتابة .

(٢) أزلي قديم : لا إبتداء لوجوده فلا يجوز أن يكون متكلمًا في غيره إذ المتكلم إنما كان متكلمًا لقيام الكلام به لا لكونه فعلاً له ، لأنا متكلمون والباري تعالى خالق لكلامنا وليس هو المتكلم بكلامنا ولو جاز أن يقال بأنه تعالى متكلم بكلام في الغير لجاز أن يقال أنه متحرك بحركة تخلق في الغير وهو محال ، ولولا إختصاص كلامه به لكان محدثاً ، وإذا ثبت أن كلامه مختص به ليس مفارقاً له ثبت أنه قديم .

(٣) ولا يتصف بقبولها ، ولا يقال إنها أغيار له لأن حقيقة الغيرين ما يجوز مفارقة أحدهما لصاحبه بزمان أو مكان ، ولا يجوز أن تفارق صفات الباري تعالى ذاته ، فإطلاق لفظ الغيرية بعيد .

(٤) وذهبت المعتزلة والنجارية والزيدية ، والإمامية ، والخوارج إلى أن كلام الله حادث .
وإمتنع طائفة من هؤلاء من إطلاق القول بكونه مخلوقاً وسموه حادثاً ؛
وأطلق المتؤخرون من المعتزلة كونه مخلوقاً .
ونحن نقول : لو كان كلام الله حادثاً لم يخل من أمور ثلاثة :
إما أن يقوم بذات الباري ، أو بجسم من الأجسام ، أو لا بمحل باطل قيامه به ، فإن الحوادث يستحيل قيامها بذات الباري سبحانه وتعالى .

لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث[1] ، وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف ، فكيف يكون خالقها مشاركاً لها في قبول التغير وينبني على هذا أن كلامه قائم بذاته ، وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه[2] .

وكما عقل قيام طلب التعلم وارادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علمًا متعلقاً بما في قلب أبيه من الطلب، صار مأمورا بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده[3] له، فليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عـز وجل : ﴿ ٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾[4] بذات الله ، ومصير موسى عليه السلام مخاطبا به بعد وجوده ، إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب ، وسمع لذلك الكلام القديم[5] .

---

(١) لأنه لا تقوم الحوادث إلا بحادث ، ولو قام بجسم لكان المتكلم ذلك الجسم ويبطل وجود الكلام لا في محل ، لإنه عرض من الأعراض ، ويستحيل قيام الأعراض بأنفسها إذ لو جاز ذلك في ضرب منها لجاز في سائرها .

(٢) ولتعلم أن القرآن بالمعنى الأزلي لا يدخل تحت الزمان ، ولا يوصف بماض ولا مستقبل ولا حال ضرورة أن الأزلي مناف للزمان لأن الزمان من لواحق الحادث ، ولا شيء من الحوادث بأزلي . وأما بمعنى الفعل الدال على ذلك أو بعض ما هو متعلق ذلك فنعم .

(٣) وفي نسخة أخرى : ودام وجوده إلى وقت معرفة إبنه . . . الخ

(٤) الآية : ١٢ من سورة طه .

(٥) سمع يتعدى باللام تارة كما جرى عليه المصنف ، ومثله : سمع الله لمن حمده .
ويتعدى أيضاً بلا لام أخرى، ومنه قوله : قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، وهذا قول الأشعري .
وأنكر الماتريدي : سماعه الكلام النفسي ، وعنده أنه سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى

الأَصل الثامن : قدم العلم

أن علمه قديم ، فلم يزل عالماً بذاته وصفاته ، وما يحدثه من مخلوقاته[١] ، ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها ، بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي[٢] إذ لو خلق لنا علم بقدوم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك علم تقديراً حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوماً لنا بذلك من غير تجدد علم آخر[٣] . فهكذا ينبغي أن يفهم قدم علم الله تعالى .

الأَصل التاسع

أن إرادته قديمة ، وهي في القدم تعلقت باحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي[٤] ، إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ولو حدثت في

---

(١) مخلوقاته الكائنة في علمه ، وهذا ضروري أيضاً ، فإنه تعالى لا يتصف بحادث لأنه لو جاز إتصافه بالحوادث لجاز النقصان عليه والنقصان عليه باطل ، ومحال أجماعاً بيان اللزوم إن ذلك الحادث إن كان من صفات الكمال كان الخلو عنه مع جواز الإتصاف به نقصاً وقد خلا عنه قبل حدوثه وإن لم يكن من صفات الكمال إمتنع إتصاف الواجب به ، لأن كل ما يتصف به الواجب يكون كمالاً ، وأيضاً لو إتصف بالحادث لكان قابلا له ، ولو كان قابلا له لما خلا عنه ، أو عن نهده ، وإلا لزم الترجيح من غير مرجح ، وضد الحادث حادث ، وما لا يخلو عن الحادث حادث ، وأيضاً لو إتصف بالحادث لكان محلاً للإنفصال وكل منفصل مفتقر إلى ما إنفصل عنه ، وكل مفتقر ليس بواجب الوجود ، وقد فرض واجباً هذا خلق .

(٢) والأزلي : لأبتداء لوجوده كما أنه تعالى كان عالماً في الأزل بأنه سيخلق العالم ثم لما خلقه فيها لا يزال كان عالماً بأنه خلقه والتجدد على المعلوم لا على العلم .

(٣) وعلم الله تعالى بالأشياء قديم فإستحال لقدمه عزوبه ، لأنه عدمه وما ثبت قدمه إستحال عدمه .

(٤) بمعنى أن كل كائن في الوجود من خير وشر وطاعة ومعصية بإرادته ، وأن كل ما تتعلق به إرادته يكون لا محالة وهو معنى ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ؛

ثم إن التعلق هو كون الصفة بحيث يكون لها منسوب يرتبط بها إرتباط المتضايقين وهو على قسمين :

صلاحي إن لم يكن المنسوب لها موجوداً في الخارج ، وتنجيزى إن كان موجوداً ؛

غير ذاته لم يكن هو مريدا لها ، كما لا تكون أنت متحركاً بحركة ليست في ذاتك ، وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها الى إرادة أخرى ، وكذلك الإرادة الأُخرى تفتقر إلى أُخرى ، ويتسلسل الامر إلى غير نهاية . ولو جاز أن يحدث ارادة بغير ارادة لجاز أن يحدث لغير ارادة[1] .

الأصل العاشر

إن الله تعالى عالم بعلم ، حي بحياة ، قادر بقدرة ، ومريد بإرادة ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر[2] ، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة[3] .

---

(١) فلا يمكن حدوث بعضها بلا إرادة مع أن المقتضى لثبوت صفة الإرادة ذلك الخصوص ، وهو ملازم للحدوث لا ينفك عنه .

والغرض أن تلك الإرادة حادثة بزعم الخصم فلا بد لها من إرادة تخصصها ، فيلزم التسلسل المحال .

(٢) أي بصفة تسمى بصراً، وإنما يعبر بهذا في البصر خاصاً دفعا لسبق الوهم إلى العين من إطلاق البصر ، ولذا صرح غير واحد منهم من أن المعنى بالسمع والبصر نفس الإدراك لا الحاسة فيثبتون ذاتا موجودة ، وصفات موجودة ، وهي نفس العلم والقدرة والإرادة وأحوالاً ثابتة للذات باعتبار قيام هذه الصفات بها وهو معقول الإتصاف . ويعبرون عن تلك الحال بالعالمية والقادرية ، ولا يصنعون هذه الحالة بالوجود بل بمحض الثبوت ؛

(٣) ومن ينفي الأحوال فعبارته أن يقول عالم وله علم ، قادر وله قدرة ، وكذلك بقية الصفات ونفس كونه عالماً بنفس إتصافه بالعلم وليس في المعقول موجود ولا ثابت من خارج سوى نفس الذات والصفات ، وينفي الأحوال ، فإن عبر عن الموصوف قال ذات ، وإن عبر عن المعنى قال علم وقدرة ، وإن عبر عن الذات بإعتبار المعنى ، قال عالم قادر ، فالقول إثنان والعبارات ثلاث .

ونفت المعتزلة والشيعة الصفات الزائدة على الذات ، وأسندت ثمرات هذه الصفات إلى الذات ، ونفوا أيضاً نفس المعاني وقالوا : إن الباري تعالى حي عالم قادر لنفسه ، فأثبتوا المشتق بدون المشتق منه ، وبعضهم يقول بنفسه .
=

وقول القائل : عالم بلا علم ، كقوله : غني بلا مال[1] ، وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم ، فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل .

وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتيل ، ولا يتصور قتيل بلا قاتل ولا قتل ، فكذلك لا يتصور عالم بلا علم ، ولا علم بلا معلوم ، ولا معلوم بلا عالم .

بل هذه الثلاثة متلازمة في العقل لا ينفك بعض منها عن البعض ، فمن جوز انفكاك العالم عن العلم فليجوز انفكاكه عن المعلوم ، وانفكاك العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف[2] .

= وامتنع بعضهم من إطلاق لنفسه أو بنفسه لما فيه من إيهام التعليل المنافي للوجوب ، ويلزمهم أن يكون ذاته علما وقدرة وحياة لثبوت خصائص هذه الصفات لها وثبوت الأخص يستلزم ثبوت الأعم فيلزم أن يكون ذاته علمًا وقدرة وحياة ، وهذه الصفات أيضا لا تقوم بنفسها والذات قائمة بنفسها فيلزم أن تكون قائمة بنفسها لا قائمة بنفسها وهو جمع بين النقيضين .

(١) يعني بهذا أنه إنما أثبتنا الصفات زائدة على مفهوم الذات ، لأنه تعالى أطلق على نفسه هذه الأسماء في كتابه على لسان نبيه خطاباً لمن هو من أهل اللغة والمفهوم في اللغة من عليم ذات لها علم ، ومن قدير ذات لها قدرة ، وكذا سائر الأوصاف المشتقة تدل على ذات ووصف ثابت لتلك الذات ، بل يستحيل عن أهل اللغة عليم بلا علم لاستحالة علم بلا معلوم أو لاستحالة عليم بلا معلوم .

(٢) يعني لا يجوز صرفه عن معناه لغة إلا لقاطع عقلي يوجب نفي معناه لغة ، ولم يوجد في إيجاب نفي المعنى اللغوي ما يصلح شبهة فضلاً عن وجود دليل ، واعلم أنا معشر أهل السنة ـ وإن أثبتنا الصفات زائدة على مفهوم الذات ـ فلا نقول إنها غير الذات ، كما لا نقول إنها عين الذات لأن الغيرين هما المفهومان اللذان ينفك أحدهما عن الآخر في الوجود بحيث يتصور وجود أحدهما مع عدم الآخر وكل من الذات المقدسة وصفاتها لا يتصور إنفكاك أحدهما عن الآخر .

الركن الثالث

العلـم بـأفعـال الله تعـالـى
ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول

العلم بأن كل حادث في العالم[١] ، فهو فعله وخلقه واختراعه ، لا خالق له سواه ولا محدث له إلا إياه ، خلق الخلق وصنعهم[٢] ، وأوجد قدرتهم وحركتهم ، فجميع أفعال عباده[٣] مخلوقة له ، ومتعلقة بقدرته ، تصديقاً له في قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[٤] .

---

(١) ومعنى ذلك أن كل حادث في العالم : جوهر أو عرض على إختلاف أنواعه ، كحركة شعرة وإن دقت ودخل فيها كل قدرة لكل حيوان عاقل أو غيره ، وكل فعل اضطراري كحركة المرتعش ، وحركة العروق الضوارب بالبدن أو إختياري كأفعال الحيوانات المقصودة لهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : وصنعتهم ، وفي هذا إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث حذيفة رضي الله عنه ، رفعه أن الله صانع كل صانع وصنعته » .

(٣) وفي نسخة أخرى : فجميع أفعال عبيده مخلوقة له .

وهذا ما اتفق عليه السلف قبل ظهور البدع .

وقال المعتزلة : المحدثون مخترعون أفعالهم بقدرهم وخالقوها ، والله تعالى غير موصوف بالإقتدار على أفعال العباد .

(٤) الآية (٦٢) من سورة الزمر (٣٩) ونصها :

﴿ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ .

ووجه الدلالة أن الآية خرجت مخرج المدح فلا يصح أن يكون المخلوق بعض الأشياء إذ لو كان المخلوق بعض الأشياء كما يزعم الخصم لما كانت مدحاً، إذ عنده كثير من الحيوانات =

وفي قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

أمر العباد بالتحرز في أقوالهم وأفعالهم وأسرارهم وأضمارهم[3] ، لعلمه بموارد أفعالهم واستدل على العلم بالخلق[4] ، وكيف لا يكون خالقاً لفعل العبد وقدرته تامة لا قصور فيها[5] ، وهي متعلقة بحركة ابدان العباد ، والحركات متماثلة وتعلق القدرة بها لذاتها ؟

= يخلق البعض فلا يكون ، ثم إختصاص فلا مدح ، فيتعين الجميع ، وإذا تعين الجميع بطل أن يكون خلق لغير الله تعالى وذلك هو المطلوب .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ .

(١) الآية (٩٦) من سورة الصافات (٣٧) .

(٢) الآية (١٣ - ١٤) من سورة الملك (٦٧) .

(٣) بفتح الهمزة جمع ضمير كشريف وإشراف وإنما اختاره على الضمائر ليكون مع ما قبله نسقاً واحد .

(٤) وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾

فظهر أنها خرجت مخرج التمدح والثناء ، ومن السنة الصحيحة ما يصح أن يكون دليلاً على هذا المطلب في الصحيحين حديث الإيمان الطويل ، وفيه : وأن تؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره » .

وفي صحيح الإمام مسلم : « ولا تقل في شيء أصابك لو كان كذا ، فإن لو تفتح باب الشيطان ، ولكن قدر الله وما شاء فعل » وغير هذا من الأحاديث الصحيحة .

(٥) ولا لها عن شيء منه لأن المقتضى للغادوية هو الذات لوجوب إستناد صفاته تعالى إلى ذاته ، والمصحح للمقدورية هو إلا مكان ، لأن الوجوب والإمتناع الذاتيين يحيلان المقدورية ، ونسبة الذات إلى جميع الكائنات في إقتضاء القادرية على السواء ، فإذا ثبتت قدرته على بعضها ثبتت قدرته على كلها وإلا لزم التحكم .

فما الذي يقصر تعلقها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها[1] ؟

أو كيف يكون الحيوان مستبداً بالإختراع ويصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوي الألباب ؟

فكيف انفردت هي باختراعها دون رب الأرباب وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الإكتساب ؟

هيهات هيهات : ذلت المخلوقات ، وتفرد بالملك والملكوت جبار الأرض والسموات[2] .

الأصل الثاني

إن انفراد الله سبحانه بإختراع حركات العباد[3] لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الإكتساب ، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا ، وخلق الإختيار والمختار جميعاً .

فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليس بكسب له .

---

(١) فوجب إضافة الحوادث كلها إليه سبحانه بالخلق ، وهذا الإستدلال مبني على ما ذهب إليه أهل الحق من أن المعدوم ليس بشيء ، وإنما هو نقي محصن لا امتياز فيه أصلاً ، ولا تخصيص قطعاً ، فلا يتصور إختلاف في نسبة الذات إلى المعدودات بوجه من الوجوه خلاف للمعتزلة ، ومن أن المعدوم لا مادة له ولا صورة خلاقاً للحكماء، وإلا لم يمتنع إختصاص بعض الممكنات دون بعض بمقدوريته تعالى كما يقوله الخصم .

(٢) وفي بعض النسخ جبار السموات ، فدل ذلك على أن الصنع الغريب والفعل الواقع غاية من الإتقان وحسن الترتيب واقع سبحانه ، وصادر عنه دون تلك الحيوانات التي لا عقول لها ، ولا علم بتفاصيل ما يصدر عنها .

(٣) جمع العبد ، والمراد به هنا كل حادث وقع في محل قدرته ، فعل إختياري من إنس أو جن أو ملك .

وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له[١] ، فإنها خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه[٢] وكانت للحركة نسبة[٣] إلى صفة أخرى تسمى قدرة ، بإعتبارها تلك النسبة كسباً[٤] .

وكيف تكون جبراً محضاً وهو بالضرورة يدرك[٥] التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟

أو كيف يكون خلقاً للعبد وهو لا يحيط علمًا بتفاصيل اجزاء الحركات المكتسبة وإعدادها[٦] ، وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الإقتصاد في الإعتقاد[٧] ، وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً ، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه[٨] بإكتساب ، وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالإختراع فقط ، إذ قدرة الله تعالى في الأزل قد كانت متعلقة بالعالم ولم يكن الإختراع حاصلاً بها ، وهي

---

(١) يعني كما أنها وصف للعبد ومخلوقة للرب تعالى لها أيضاً نسبة إلى قدرة العبد كسباً بمعنى أنها مكسوبة له .

(٢) كذا في النسخ وفي بعضها هي صفة ، وفي نسخة أخرى : وهي صفة بزيادة الواو .

(٣) وفي بعض النسخ : فكانت ، وفي نسخة أخرى : فكانت للحركة .

(٤) وهذا الأصل معقود على بيان كسب العبد ، وقد ضرب به المثل حتى قالوا : أدق من كسب الأشعري .

(٥) يدرك التفرقة الضرورية بطريق الوجدان بين الحركة المقدورة له وهي الإختيارية وبين الرعدة الضرورية التي تصدر بدون إختيار كحركة اليد من المرتعش ، وهذا من باب الإستدلال بالسبب على المسبب .

(٦) ومع كونه منبع النقصان وغير ذلك ، وما ذكر من إستحالة إجتماع مؤثرين على أثر واحد ؛ فالجواب عنه أن دخول مقدور تحت قدرتين :

أحداهما : قدرة الإختراع والأُخرى : قدرة الإكتساب جائز ، وإنما المحال اجتماع مؤثرين مستقلين على إثر واحد .

(٧) لا حير محصن ولا إعتزال ، وقال قوم من العلماء : إن المؤثر مجموع قدرة الله تعالى ، وقدرة العبد ، وهذا المذهب وسط من بين الجبر والقدر وهو أقرب إلى الحق .

(٨) وفي نسخة اخرى : يعبر عنها بالإكتساب .

والمراد : عملاً بظاهر الآية : لها ما كسبت وعليها ما اكتسب .

عند الإختراع متعلقة به نوعاً آخر من التعلق ، فيه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصاً بحصول المقدور بها[1] .

الأصل الثالث

أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد ، فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه[2] ، فلا يجرى في الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته[3] ، وبإرادته ومشيئته ، ومنه الشر والخير[4] ، والنفع والضر ، والإسلام

---

(١) وهذا التعلق هو المسمى بالكسب ، وأورد عليه ابن الهمام فقال : ولقائل أن يقول قولكم : إن قدرة العبد تتعلق بالحركة لا على وجه التأثير فيها وإن التعلق لا على وجه التأثير هو الكسب مجرد ألفاظ لم يحصلوا لها معنى ونحن ما نفهم من الكسب إلا معنى التحصيل ، وتحصيل الفعل المعدوم ليس إلا إدخاله في الوجود وهو إيجاده ؛ وقولكم إن القدرة الحادثة تتعلق بلا تأثير ، كتعلق القدرة القديمة في الازل ممنوع .

وتحقيق المقام أن نقول : معنى ذلك التعلق الأزلي للقدرة القديمة نسبة المعلوم الوقوع من مقدوراتها إليها بأنها ستوثر في إيجاد ذلك المعلوم عند وقت وجوده ، وذلك أن القدرة إنما تؤثر على وفق الإرادة وتعلق الإرادة بوقوع الشيء هو تخصيص ذلك الوقوع بوقته دون ما قبله وما بعده من الأوقات والقدرة الحادثة يستحيل فيها ذلك لأنها مقارنة للفعل عندكم فلم يكن تعلقها بالفعل إلا على ما ذكرتم .

(٢) اتفق أهل السنة والجماعة على أن صانع العالم جل وعلا مريد لجميع الكائنات من خير وشر وإيمان وكفر ، ضرورة أنه جل وعلا فاعل للكل فيكون مريداً للكل ضرورة أنه فاعل بالإختيار ، وأيضاً فهو عالم بما لا يقع فلا يريده ، لأن الإرادة صفة توجب تخصيص الحادث بحاله حالة حدوثه عند تعلق القدرة ، فما علم أنه لايقع محال أن يقع ، وإن كانت إحالته بالغير وكل ما هو محال أن يقع ولو بالغير لا تتعلق به إرادته إذ لو تعلقت إرادته به على ذلك التقدير لكان متمنياً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(٣) وفي نسخة أخرى : إلا بقضاء الله وقدره .

والقضاء عند الأشاعرة يرجع إلى الإرادة والقدر إلى الخلق كما ذكر صاحب المواقف .

وعند الماتردية : هما غير الإرادة ، فالقضاء بمعنى الخلق والقدر بمعنى التقدير خلافاً للأشاعرة وغير العلم خلافاً للفلاسفة .

(٤) هكذا في النسخ بتقديم الشر على الخير ، وفي بعضها بتقديم الخير وهو الأوفق لما بعده من الفقر .

والكفر ، والعرفان والنكر ، والفوز والخسران ، والغواية والرشد ، والـطاعة والعصيان ، والشرك والإيمان .

لا رادة لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

يضل من يشاء ويهدي من يشاء[1]

﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يفعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾[2]

ويدل عليه من النقل قول الأُمة قاطبة[3] .

ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[4] .

وقول الله عز وجل : ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعاً ﴾[5] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[6] .

ويدل عليه من جهة العقل : إن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرهها ولا

---

(١) يضل لاستحباب العبد للضلال ، وصرف اختياره إليه .

ويهدي من يشاء : يهديه لصرف إختياره إلى الهداية وتسمية بعض الكائنات شرا بالنسبة إلى تعلقه وضرره لنا لا بالنسبة إلى صدوره عنه ، فخلق الشر ليس قبيحاً إذ لا قبيح منه تعالى .

(٢) الآية : ٢٣ من سورة الأنبياء.

(٣) سلفها وخلفها وإجماعهم على كلمة لا يجحدها معتز إلى الإسلام قبل ظهور الإعتزال وبدعهم .

(٤) وهي تلزمها ثلاث قضايا باعتبار العكس نقيضاً وتساوياً .

والمعتزلي يقول : ما شئت كان وما شاء الله لم يكن ، وهذه الكلمة دالة في عموم إرادته لسائر الكائنات .

(٥) الآية (٣١) من سورة الرعد (١٣) .

(٦) الآية (١٣) من سورة السجدة (٣٢) .

والمراد أنه سبحانه أراد وشاء هداية بعض الناس وإضلال بعض ، كما دل عليه قوله تعالى :

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ ٱللهُ﴾ .

يريدها ، وإنما هي جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدو الله سبحانه والجاري على وفق ارادة العدو واكثر من الجاري على وفق ارادته تعالى .

فليت شعري ، كيف يستجيز المسلم أن يرد مالك الجبار ذي الجلال

= وهم قد شاءوا المعاصي وفاقا فكانت بمشيئة الله تعالى ، بهذا النص النافي لأن يشاءوا شيئاً إلا أن يشاء الله سبحانه .

وفيه دليل على أنه لا دخل لمشيئة العبد إلا في الكسب ؛ وإنما الإيجاد بمشيئة الله وتقديره وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ .

وفيها دليل ظاهر على أن الامر غير الارادة ، وأنه تعالى لم يرد الايمان من كل أحد ، وإن أرادة يجب وقوعه كما في تفسير البيضاوي .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ ٱللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ، وَمَن يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرِجاً ﴾ .

وفيه تصريح بتعلق إرادته بالهداية والإضلال .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي ٱلأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾

وفيه دليل على كمال قدرته ونفوذ مشيئته ، إنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم فلا يبقى فيها إلا مؤمن موحد ولكنه شاء أن يؤمن به من علم منه إختيار الإيمان به وشاء أن لا يؤمن به من علم أنه يختار الكفر ولا يؤمن به كما في التيسير .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمِ ٱلْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قبلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ ﴾.

وفيه دليل على أن الآية وإن عظمت فإنها لا تضطر إلى الإيمان، ومن علم الله منه إختيار الإيمان شاء له ذلك ، ومن علم منه إختيار الكفر والإصرار عليه شاء له ذلك .

والآيات الكريمة في هذا السياق واردة في القرآن الكريم كثيرة جداً .

فهذه الآيات وغيرها الواردة في هذا المعنى مجموع ما تمسك به الأصحاب .

وللمعتزلة في تلك الآيات تأيلات فاسدة وتعسفات باردة يتعجب منها الناظر ويتحقق إنهم محجوبون ، وبوصفها محققون ، ولظهور الحق في هذه المسألة يكاد عامتهم به يعترفون .

والإكرام ، إلى رتبة لوردت إليها رياسة زعيم ضيعة لاستنكف منها[1] . .

إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته ، والمعصية هي الغالبة على الخلق ، وكل ذلك جار عند المبتدعة[2] على خلاف إرادة الحق تعالى ، وهذا غاية الضعف والعجز ، تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علواً كبيراً[3].

ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة[4] لله صح إنها مرادة له .

فإن قيل : فكيف ينهي عما يريد ويأمر بما لا يريد[5] .

قلنا : الأمر غير الإرادة ، ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه[6] فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذبه السلطان فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد[7] بفعل ويخالفه بين يديه[8] ، فقال له :

اسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان فهو يأمره بما لا يريد إمتثاله ، ولو لم يكن

(١) وفي نسخة أخرى : عنها وذلك

(٢) يقصد بقوله المبتدعة : هم المعتزلة ومن تبعهم من أهل الأهواء .

(٣) وحاصل هذا الجواب أن العقول قد قضت بأن قصور الإرادة وعدم نفوذ المشيئة من أصدق الآيات الدالة على سمات النقص والإتصاف بالقصور والعجز ، ومن ترسم للملك ثم كان لا ينفذ مراده من أهل مملكته عد ضعيف المنة مضياعاً للفرصة .

فإن كان ذلك يزري بمن ترسم للملك فكيف يجوز في صفة ملك الملوك ورب الارباب ؟

(٤) ومخترعة له وإن نسب بعضها إلى العباد بطريق الكسب بالدلائل الواضحة .

(٥) أي كيف يأمر أحد عبده بشيء ويريد منه خلافه فهو صريح بأنه أمر الكفار بالإيمان وأراد الكفر .

(٦) أي على ضربه له وبكته وهدده بالقتل لمجاوزته الحد في ضرب العبد .

(٧) وفي نسخة أخرى : بأن يأمر عبده .

(٨) ولا يتمثل العبد ذلك ليقرر عذره .

آمراً لما كان عذره عند السلطان ممهداً ، ولو كان مريداً لامتثاله لكان مريداً لهلاك نفسه ، وهو محال[١] .

الأَصل الرابع

أن الله تعالى متفضل بالخلق والإختراع[٢] ومتطول بتكليف العباد ، ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه[٣] .

وقالت المتزلة :

وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد ، وهو محال ، إذ هو الموجب والآمر

---

(١) فقد تحقق إنفكاك الأَمر عن الإرادة وبطل قولهم يستحيل أن يأمر أحد عبده بشيء ويريد خلافه ، فالمعاصي واقعة بإرادته ومشيئته لا بأمره ورضاه ومحبته لما قررنا .

ويعلق الزبيد على هذا فيقول :

« وأصحابنا معاشر الماتريدية لم يرتضوا بهذا الإستدلال المشهور بين المتكلمين الذي أورده المصنف ، من أن المعتذر من ضربه بعصيانه قد يأمر ولا يريد منه الفعل ، وكذا الملجىء إلى الأَمر قد يأمر ولا يريد الفعل المأمور ، بل يريد خلافه ولا يعد سفهاً ، وأوردوا عليه المنع من أن الموجود فيه مجرد صيغة الأَمر غير تحقق حقيقة .

(٢) لا على مثال سابق ونعمة الإيجاد شاملة لكل موجود ؛

والطول هو الفضل والزيادة والمعنى متفضل بتكليف العباد ، وجعلهم أهلاً لأن يخاطبهم بالأمر والنهي فما أنعم به فهو فضل منه وما عاقب عليه فهو عدل .

(٣) وحاصل هذا أن جميع الكائنات كيفما كانت على العموم كوجود العالم ، أو على الخصوص ، كوجود الإنسان ووجود ما به ما يكون كماله من العقل وتيسير المطالب والصحة وسلامة القوى وبعث الرسل والثواب والعقاب ، كل ذلك لا يجب عليه شيء منه لا بالوجوب الشرعي ولا العقلي ولا العادي ولا غير ذلك ، فجميع الكائنات بالنسبة إليه على السوية ، وإنما المخصص لأحد الجانبين مشيئته وإرادته المتعلقة بالشيء تعلق التخصيص على نحو ما تعلق به العلم ، فجميع ما فعل مما فيه لطف بعبده بمحض فضل وكرم وإحسان منه إليه وما فيه من تعذيب وابتلاء ، فمحض عدل منه إليه ، ولو شاء لعكس .

والناهي ، وكيف يتهدف لإيجاب أو يتعرض للزوم وخطاب[1]

والمراد بالواجب أحد أمرين :

أما الفعل الذي في تركه ضرر ، أما آجل كما يقال : يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه في الآخرة بالنار .

أو ضرر عاجل كما يقال : يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت[2] .

وأما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال ، كما يقال :

وجود المعلوم واجب ، إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن يصير العلم جهلا[3] .

فإن أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله بالمعنى الأول فقد عرضه للضرر[4] ، وإن أراد به المعنى الثاني[5] فهو مسلم ، إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم ، وإن أراد به معنى ثالثا فهو غير مفهوم[6] .

---

(١) اتفق المعتزلة على أصل الوجوب على الله تعالى ، ثم أشار المصنف بالرد عليهم بأنه لو وجب شيء فإما بالإيجاب الشرعي وهو محال ، إذ هو الموجب ، وهو الآمر الناهي ، وكيف يتهدف لايجاب أو يتعرض للزوم وخطاب ، وهذا شأن المكلفين ، أي لوجوب شيء لأقتضى الحال موجباً ورتبة الموجب فوق رتبة الموجب عليه ولا يخفى بطلانه .

(٢) ومعنى الوجوب هنا ترجح الفعل على الترك لما يتعلق من الضرر بالترك .

(٣) ونحن نجزم أن عدم ذلك لا يلزم منه محال لذاته ولا يضره .

(٤) وفي نسخه أخرى : فقد عرضه للضرار : يعني المضادة ، وفي الأصل : للضرر ، ومعناه لحوق الضرر محال في حقه تعالى ، والقول به كفر وفاقا .

(٥) وهو أن عدمه محال ، فهو مسلم حيث نظر أن إبتداء الخلق والتكليف قد تعلق العلم بوقوعه .

(٦) ولا يجب عليه شيء بالإيجاب العادي أيضاً لما يلزم من تحتم فعله عليه فلا يكون مختاراً، والعادة فعله فلم تبق شبهة إلا أنه باعتبار الحسن والقبح العقليين وهو باطل فثبت أنه لا يجب على الله شيء بوجه من الوجوه .

وقوله : يجب لمصلحة عباده[1] ، كلام فاسد ، فإنه اذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى .

ثم إن مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة[2] ، فأما ان يخلقهم في دار البلايا ويعرضهم للخطايا ثم يهدنهم لخطر العقاب وهو العرض والحساب فما في ذلك غبطة عند ذوي الألباب[3] .

الأصل الخامس

أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه[4] ، خلافاً للمعتزلة ولو يجز ذلك لاستحال سؤال دفعه[5] ، وقد سألوا ذلك فقالوا :

﴿ رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾[6] .

---

(١) يعني وجوب رعاية الأصلح .

(٢) يعني لو كانت الحكمة مقرونة بطلب المنفعة كما يزعمون لكان إبتداء الخلق في الجنة ، وفيه أعظم المنافع بل فيه المنفعة التي ليس في ضمنها ضرر أولى .

(٣) وفي بعض النسخ لأولى الألباب .

ويعلق الكمال بن الهمام على هذا فيقول :

« وأنت قد علمت أن معنى هذا الوجوب عندهم كونه لا بد من وقوعه وفرض عدمه فرض محال لاستلزامه المحال على زعمهم وهو إتصافه بالبخل ، فلا يكون بهذا الوجوب معرضاً للضرر كما ألزمهم به الحجة لأن التعريض له إنما يلزم لو كان الإيجاب مبنياً على التخيير في فعل ذلك الأمر الواجب ، وتركه وليس هذا كذلك لأن حاصل كلامهم فيه سلب قدرته عن ترك ما هو الأصلح لإنتفاء قدرته من الإتصاف بما لا يليق به فالسبيل من دفعهم إنما منع كل واقع هو الأصلح لمن وقع له ، ومنع لزوم ما لا يليق به أي البخل الذي زعموه .

(٤) والدليل عليه أن الخلق خلقه ، والملك ملكه وللفاعل المالك أن يتحكم في ملكه لحق مشيئته فيما ليس عليه حجر .

(٥) قياساً على سؤال الرؤية من موسى عليه السلام .

(٦) الآية (٢٨٦) من سورة البقرة (٢) .

ولأن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ بأن أبا جهل لا يصدقه ثم أمره بأن يأمره بأن يصدقه في جميع أقواله[1] ، وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه فكيف في أنه لا يصدقه .

وهل هذا إلا محال وجوده[2] .

الأصل السادس

إن لله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ، ومن غير ثواب لاحق[3] ، خلافاً للمعتزلة[4] ، لأنه متصرف في ملكه ، ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه[5] ، والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، وهو محال على الله تعالى ، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً[6] .

---

(١) وكلمة « ثم » هنا للترتيب الذكرى ، لأن كون أمر أبي جهل بالتصديق بعد الاخبار بعدم إيمانه لا يظهر له مستند فضلاً عن كونه متراخياً عن الاخبار .

(٢) وفي محجة الحق لأبي الخير القزويني : فإن الله تعالى كلف أبا لهب الإيمان بالقرآن ، ومن جملة ما أنزل في القرآن أنه لا يؤمن في قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ فكأنه كلفه الإيمان بأنه لا يؤمن . فإن فائدة التكليف بيان أمارة الثواب والعقاب ولا استحالة في جعل إمتناع ما لا يطاق أمارة العقاب .

فتحصيل الإيمان مع العلم بعدمه أمر يجمع الوجود والعدم لإستحالة وجود الإيقاف مع العلم ضرورة أن العلم يقتضي المطابقة .

(٣) ثواب لا حق له في الدنيا ولا في الآخرة ، ومعنى كون ذلك له إنه جائز عقلاً لا يقبح منه تعالى .

(٤) حيث لم يجوزوا ذلك إلا بعوض لاحق أو جرم سابق ، قالوا : وإلا لكان ظلماً غير لائق بالحكمة وهو محال في حقه تعالى فلا يكون مقدوراً له ، ولذلك أوجبوا على الله تعالى أن يتقض لبعض الحيوانات من بعض .

(٥) فليس لأحد من خلقه عليه حجر لأن الخلق ملكه ، وقولهم وإلا لكان ظلماً؟ فالجواب : أن الملازمة ممنوعة .

(٦) ومن معاني الظلم أيضاً مجاوزة الحد ووضع الشيء بغير محله بنقص أو زيادة أو عدول عن زمنه ، ومجاوزة الحق الذي يجري نقطة الدائرة ، وكل ذلك محال على الله تعالى .

ويدل على ذلك وجوده[1] ، فإن ذبح البهائم إيلام لها ، وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة .

فإن قيل : إن الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام[2] ويجب ذلك على الله سبحانه .

فنقول[3] : من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وطئت ، وكل بقة عركت[4] حتى يثيبها على آلامها ، فقد خرج عن الشرع والعقل ، إذ يقال : .

وصف الثواب والحشر بكونه واجباً عليه أن كان المراد به إنه يتضرر بتركه فهو محال[5] ، وان أُريد به غيره فقد سبق انه غير مفهوم إذا خرج عن المعاني المذكورة للواجب .

الأَصل السابع

انه تعالى يفعل بعباده ما يشاء[6] فلا يجب عليه رعاية الأَصلح لعباده لما

---

(١) أي وقوعه ، وذلك الواقع ما يشاهد من أنواع البلاء بالحيوان من الذبح والعقر والحراثة وجر الأثقال وتحميلها إياه .

(٢) أما في الموقف كما قال بعضهم أو في الجنة بأن تدخل الجنة في صورة حسنة بحيث يلتذ برؤ يتها على تلك الصورة أهل الجنة فتنال نعيم الجنة في مقابلة ما لها من الآلام أوانها تكون من جنة تخصها أي تنال نعيمها على حسب مذاهبهم المختلفة في ذلك .

(٣) في الجواب ذلك الذي ذكرتم من جزائها بتفصيله لا يوجبه العقل ولا شيأ منه ، وإن جوّزه ولم يرد به سمع يصلح مستند للجزم بوجوب وقوعه في الآخرة فلا يجوز الجزم به .

(٤) بالأيادي وفي معناها البرغوت والناموس ونحوهما .

(٥) وهذا هو الوجوب العقلي .

(٦) فلو أدخل جميعهم الجنة من غير طاعة سابقة منهم كان له ذلك ؛ ولو أورد الكل منهم النار من غير زلة منهم كان له ذلك لأنه تصرف مالك الأعيان في ملكه وليس عليه إستحقاق إن أناب فبفضله يثيب وإن عذب فلحق ملكه يعذب .

ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء ، بل لا يعقل في حقه الوجوب ، فإنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون[١] .

وليت شعري بما يجيب المعتزلي في قوله :

أن الأَصلح واجب عليه في مسألة نعرضها عليه ، وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ ماتا مسلمين[٢] فإن الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله عن الصبي لانه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ، ويجب عليه ذلك عند المعتزلي، فلو قال الصبي :

يا رب لم رفعت منزلته على ؟ فيقول :

لأنه بلغ واجتهد[٣] في الطاعات ، ويقول الصبي :

أنت أمتني في الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتي حتى أبلغ فاجتهد[٤] فقد عدلت عن العدل في التفضيل عليه بطول العمر له دوني فلم فضلته ؟

---

(١) وذلك بحكم ربوبيته وملكه لكل شيء الملك الحقيقي ، وهم يسئلون بحكم العبودية والمملوكية لإقتضائها أن العبد المملوك لإستقلاله بتصرف ولا يمكنه أن يلزم مولاه ، ويوجب عليه شيئاً .

وقال جمهور المعتزلة ما هو الأصلح للعبد يجب على الله تعالى أن يفعل بالعبد ويعطيه ، ولو أخرو لم يعطه مع أنه لم يتضرر به لو أعطى والعبد ينتفع به لكان بخيلاً .

وقال بشر بن المعتمر رئيس معتزلة بغداد ومن تابعه :

لا يجب على الله تعالى رعاية الأصلح في حق العبد ، ولكن يجب عليه أن يفعل ما هو المصلحة ، ولا يجوز أن يعمل ما هو المفسدة .

(٢) وفي نسخة أخرى : بين صبي مات مسلمًا، وبين بالغ مات مسلمًا وإنما قيده بذلك بناء على أن أطفال الكفار لا يدخلون النار .

(٣) بلغ سر التكليف وتوجه إليه الأمر والنهي .

(٤) فاجتهد في الطاعات فأنال منزلة رفيعة مثله .

فيقول الله تعالى : لأني علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان لأصلح لك الموت في الصبا .

هذا عذر المعتزلي عن الله عز وجل ، وعند هذا ينادي الكفار من دركات لظي[1] ويقولون :

يا رب[2] أما علمت اننا إذا بلغنا أشركنا ، فهلا أمتنا في الصبا فإنا رضينا[3] بما دون منزلة الصبى المسلم : فبماذا يجاب عن ذلك ؟ وهل يجب عند هذا إلا القطع بأن الأُمور الأَلهية[4] تتعالى بحكم الجلال[5] عن أن توازن بميزان الإعتزال[6] .

فإن قيل : مهما قدر على رعاية الأَصلح للعباد ، ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبيحاً لا يليق بالحكمة .

قلنا : القبيح ما لا يوافق الغرض[7] حتى إنه قد يكون الشيء قبيحاً عند

---

(١) وهو اسم طبقة من طبقات جهنم ، واستعمال الدركات فيها كإستعمال الدرجات في الجنة .

(٢) وفي نسخة أخرى : إلـهنا أما علمت . . . ـ الخ .

(٣) وفي نسخة اخرى : فإنا قد رضينا . . . الخ .

(٤) بما فيها من خفايا الحكم والأسرار .

(٥) وهو إستحباب الحق عنا لعزته .

(٦) المائل عن سمت الإعتدال .

وهذه المسألة المفروضة أوردها ابن الهمام في المسايرة وجعلها مناظرة بين الأَشعري والجباني قال : وكان يتلمذ له على مذهبه فتاب وصار إماما في السنة ، فقال الاشعري للجبائي : أرأيت لو أن صبياً مات الخ وفيه إن قوله فيقول الله عز وجل : لأنه بلغ واجتهد هو جواب الجبائي وعند هذا ينادي الكفار . . الخ هو رد الأَشعري على الجبائي وفي آخر فانقطع الجبائي وتاب الأَشعري عن الإعتزال وأخذ في نقص قواعد المعتزلة .

(٧) وهو الغاية التي يتحرى إدراكها

شخص ، حسناً عند غيره إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر[1] ، حتى يستقبح قتل الشخص أولياؤه ويستحسنه أعداؤه[2] .

فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الباري سبحانه فهو محال ، إذ لا غرض له ، فلا يتصور منه قبيح ، كما لا يتصور منه ظلم[3] إذ لا يتصور منه التصرف في ملك الغير[4] .

وان اريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال ؟

وهل هذا إلا مجرد تشتهي يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار[5] ؟

ثم الحكيم معنا العالم بحقائق الأشياء القادر[6] على فعلها على وفق ارادته ، وهذا من أين يوجب رعاية الأصلح[7]، وأما الحكيم منا يراعي الأصلح[8] نظراً

---

(١) فإنما يتم قبح الشيء وحسنه بموافقة الأغراض .

(٢) فبتفاوت الأغراض اختلف الإستقباح والإستحسان .

(٣) إذ هو المالك المطلق ، والخلق خلقه ، والملك ملكه ، ومعنى الظلم مجاوزة الحدود والتصرف في غير الملك .

(٤) لأنه في الحقيقة لا غير فيكون له ملك .

(٥) وذلك في مسألة الصبي والبالغ ؛

وفي الاعتماد للنسفي : وليس منع الأصلح بخلا لأن منع ما كان منعه حكمة وهو حق المانع لاحق غيره قبله ، بل يكون عدلاً ، ثم الجواد إنما يتحقق بالإنفصال لا بقضاء الحق المستحق وعندهم لا افضال ، بل كل ذلك قضاء حق واجب عليه للغير ، فلا يتصور عندهم تحقيق الجود ، وعندنا بما يعطي جواد متفضل ، وبما يمنع كما هو حقه عادل .

(٦) كما هي هي ، ولا يعلم كنه حقائق الأشياء غيره ، فهو الحكيم المطلق ، ويطلق أيضاً على القادر على أحكام فعلها ، بإحسان العمل وإتقان الصنع .

(٧) والصالح للعباد ومن أصول المعتزلة حمل الغائب على الشاهد .

(٨) أي إذا أطلق الحكيم على أحدنا أريد به ذو الحكمة وهي إصابة الحق بالعلم والعمل .

لنفسه ليستفيد به في الدنيا ثناء وفي الآخرة ثوابا ،أو يدفع به عن نفسه افة ، وكل ذلك على الله سبحانه وتعالى محال[1] .

الأصل الثامن

أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل[2] . خلافا للمعتزلة ، لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو :

أما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال ، فإن العقل لا يوجب العبث .

وإما أن يوجبها لفائدة وغرض ، وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال في حقه تعالى ، فإنه يتقدس عن الأغراض والفوائد[3] ، بل الكفر والإيمان والطاعة والعصيان في حقه تعالى سيان ، واما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد وهو أيضاً محال[4] لأنه لا غرض له في الحال ، بل يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه ، وليس في المال إلا الثواب والعقاب .

ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما[5] ،

(١) وقد أظهروا فساد قول المعتزلة من أن الحكمة ما كان موضوعاً لطلب منفعة ، أو لدفع مضرة بوجوده كثيرة ليس هذا محل ذكرها .

(٢) بتوحيده وإتصافه بصفات الكمال وطاعة أوامره ، واجبة على كل مكلف إتفاقات ولكن وجوبها عند أهل الحق ، بواسطة رسله الكرام ، لا بالعقل ، أي مما يجب الإيمان به أن العقل لا يستقل بإدراك المؤاخذة الشرعية المتعلقة بالفعل والترك فلا تحسين ولا تقبيح بالعقل ، وهذا الأصل هو الملقب بالتحسين والتقبيح العقليين .

(٣) إذ الغرض هو الحامل للفاعل على تحصيل كمال عنده أو به أو دفع نقص كذلك ، وكل ذلك يستحيل على الباري جل وعز .

(٤) لأنه لا يخلو إما أن يكون في الحال أو في المال ، ومن المعلوم البين أنه لا غرض له في الحال ، بل يتعب به ويقع في تكليف ومشقة .

(٥) يعني على كل من المعصية والطاعة ولا طريق إلى العلم بذلك .

مع أن الطاعة والمعصية في حقه يتساويان ،إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما إختصاص ، وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع[1] ؟

ولقد ذل من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يغرق بين الشكر والكفران[2] لما له من الإرتياح والإهتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر[3] .

فإن قيل[4] : لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشرع لا يستقر ما لم ينظر المكلف فيه ، فإذا قال المكلف للنبي : إن العقل ليس يوجب على النظر والشرع لا يثبت عندي إلا بالنظر ، ولست أقدم على النظر أدى ذلك إلى إفحام الرسول ﷺ .

قلنا : هذا[5] يضاهي قول القائل للواقف في موضع من المواضع . إن وراءك

---

(١) على لسان الرسل فثبت بذلك أن الموجب هو الشرع لا العقل ، ومنهم من أخذ هذه المسألة بالمقايسة بين الشاهد والغائب .

(٢) والشكر هو تصور النعمة وإظهارها والكفران نسيان النعمة وسترها .

(٣) وغاية ما يقال فيه انه يرجع إلى ملاءمة الطبع وليس هذا محل النزاع .
وقال أبو الخير القزويني : من شرط الموجب أن يكون حياً عالماً ملكاً قادراً على الثواب والعقاب ، والعقل عرض يستحيل أن يتصف بصفة ما ؛
وأيضاً فإن العقل لو صح للإيجاب بشيء لصلح إيجاب جميع الواجبات.

(٤) وذلك من طرق المعتزلة ليس تخصيص العذاب في الآية بعذاب الدنيا خلاف مقتضى الإطلاق فلا موجب ، بل هو خلاف له موجب عقلي وهو أن الواجبات كالنظر المؤدي إلى الإيمان بوجود الباري تعالى ووحدانيته ، لو لم يكن عقلياً لزم الدور واذا وجب النظر المؤدي إلى الإيمان عقلا ، وإن لم يرد الشرع وجب الإيمان عقلاً لأن العلم بوجوبه لازم للنظر الصحيح المؤدي إليه الذي هو أول واجب ، ويلزم من وجود الملزوم وجود اللازم ، أما الملازمة الثانية فلأن وجوب الوسيلة عقلاً من حديث هي وسيلة يقتضي وجوب المقصود كذلك ، واما الملازمة الثانية فقد أشار إليها المصنف بقوله : فإذا لم يجب النظر . . . الخ .

(٥) القدر المفروض صدوره من المكلف لنبيه ساقط عن الإعتبار إذ ليس مثله مما يصدر عن عاقل فلا يكون عذراً لقائله في ترك النظر .

سبعاً ضارياً فإن لم تبرح[1] عن المكان[2] قتلك . وان التفت وراءك ونظرت عرفت صدقى . فيقول الواقف :

لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائي ، ولا ألتفت ورائي ولا أنظر ما لم يثبت صدقك .

فيدل هذا على حماقة هذا القائل[3] وتهدفه للهلاك ، ولا ضرر فيه على الهادي المرشد ، فكذلك النبي ﷺ يقول :

« إن وراءكم[4] الموت ، ودونه السباع الضارية[5] والنيران المحرقة إن لم تأخذوا منها حذركم[6] وتعرفوا لي صدقي بالإلتفات إلى معجزتي[7] وإلا هلكتم فمن إلتفت عرف واحترز ونجا[8] ، ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى[9] ، ولا ضرر على ان هلك الناس كلهم أجمعون ، وإنما على البلاغ المبين » .

فالشرع يعرف وجود السباع الضاري بعد الموت ، والعقل يفيد فهم الكلام

---

(١) وفي نسخة أخرى : فإن لم تنزعج .

(٢) عن المكان الذي أنت فيه بالحركة والإنتقال .

(٣) وسقوطه عن حيز الإعتبار .

(٤) يعني خلقكم أو أمامكم ، فإنه من الأضداد، والمعنى صحيح على الوجهين .

(٥) لعله أراد بذلك ملائكة العذاب على التشبيه وإلا لا مناسبة لذكرها بعد الموت ، ولذا أسقط هذه الجملة ابن الهمام في المسايرة .

(٦) وفي نسخة أخرى : لم تأخذوا حذركم منها ؛
والمعنى إن لم تأخذوا حذركم بالتوبة والتصديق والعمل الصالح .

(٧) فإن اعراضكم عن قبول ما جئت به أو تكذيبكم إياي موجب للهلال الأبدي وهو الخلود في العذاب الأليم .

(٨) ونجا من الهلاك الأبدي .

(٩) هلك وتردى على أم رأسه في الهاوية .

والإحاطة بإمكان ما يقوله في المستقبل[١] ، والطبع يستحث على الحذر من الضرر[٢] ومعنى كون الشيء واجباً في تركه ضرراً .

ومعنى كون الشرع موجباً انه معرف للضرر المتوقع ، فإن العقل لا يهدي إلى التهدف للضرر بعد الموت عند إتباع الشهوات .

فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما في تقدير الواجب ، ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به[٣] مميكن الوجوب ثابتاً ، إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر في الآخرة[٤] .

الأَصل التاسع

أنه ليس يستحيل بعثه الأَنبياء عليهم السلام[٥] ، خلافاً للبراهمة[٦] حيث قالوا[٧] :

---

(١) من الزمان فيجوز العقل صدق ما يقول النبي ﷺقبل النظر في المعجزة .

(٢) وذلك يحمل العاقل على النظر لا محالة فيمتنع تخلف النظر في عادة العقلاء فيكون مجرد تجويز العقل ما يقول النبي ﷺمع استحثاث الطبع على الحذر من الضرر ملزوماً عقلياً ، أي يحكم العقل بأنه ملزوم للنظر فلا يتخلف النظر عنه ، ومستند حكم العقل فيه اطراد العادة .

(٣) ورجاء الثواب على فعل ما أمر به .

(٤) فهذا هو محل النزاع ، والحاصل أن كل الواجبات تثبت إبتداء جبرا بحكم المالكية المقتضية لاستحقاق إمتثال الأمر والنهي دون أمر يتوقف عليه الوجوبات ، بل هي متعلقة أزلاً بمتعلقاتها من أفعال العباد دون ترتيب ، ولكن يتوقف تعلقها التنجيزي على فهم الخطاب بالإبلاغ ، وقد تحقق كل ذلك في حق من أخبره بذلك الإيجاب بخبر لإنتفاء العقله عنه بذلك الاخبار .

(٥) مبشرين ومنذرين ، فهي جائزة عقلاً وواقعة شرعاً .

(٦) البراهمة والصائبة طائفة من حكماء الهند يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام .

(٧) قالوا باستحالة النبوات عقلاً ، هكذا هو في كتاب الإرشاد لإمام الحرمين واللمع له أيضاً وأبكار الأفكار للآمدي ؛

ومن كتب الماتريدية : العمدة للنسفي ، والبداية للصابون ، وغير هؤلاء ، وظاهر كلام الآمدي في غاية المرام يقتضي أن القائل بذلك بعض البراهمة ، فإنه بعد أن نقل عن البراهمة والصائبة القول =

لا فائدة في بعثتهم إذ في العقل مندوحة عنهم[١] ، لأن العقل لا يهدي[٢] إلى الأفعال المنجية في الآخرة[٣] ، كما لا يهدي إلى الأدوية المفيدة للصحة ، حاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء[٤]، ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ، ويعرف صدق النبي بالمعجزة[٥] .

الأصل العاشر

أن الله سبحانه قد أرسل محمداً ﷺ[٦] خاتماً للنبيين[٧]، وناسخاً لما قبله من

- بإمتناع البعثة قال : إلا أن من البراهمة من اعترف برسالة آدم لا غير ، وفهم من لم يعترف بغير إبراهيم .

(١) يعني سعة وغنية من ندحت الشيء وسعته ، أي إن كان من جاءت به الرسل مما يدرك بالعقول لم يكن في إرسالهم فائدة، وكان في قضايا العقول مندوحة عنهم ، وإن كان ما جاءت به غير مدرك بالعقل فلا يقبل ما يخالف العقل إذ هو حجة الله على خلقه وهذا باطل .

(٢) وفي نسخة أخرى : لا يهتدي في الموضعين .

(٣) يعني أن حظ العقل منه الجواز ، وأما الوقوع فيوجد من الشرع فإن الحاجة إلى الرسل للأنباء عما بعد الموت من الحشر والنشر والثواب والعقاب والخلود في الدارين وحظ العقول من ذلك الجواز فقط .

(٤) إذ الرسالة سفارة بين الحق تعالى وبين عبادة ليزيح بها عللهم فيما قصرت عنه عقولهم .

(٥) المعجزة الخارقة والوجه الثاني أن العقل وإن دل على إعتبار المصالح والمفاسد ، لا يستقل بإدراك كل الأمور، لا سيما عند تعارضها ، بل يدرك البعض إستقلالا ويقصر عن إدراك البعض ، فلا يهتدي إليه بوجه ويتردد في البعض .

(٦) بعثه ﷺ إلى الخلق أجمعين بالهدى ودين الحق ؛ والمراد من الخلق المخلوق لأن إرساله إلى من يعقل من الجن والإنس ، وقال بعض العلماء : وإلى الملائكة .

(٧) وهذا مما أجمع عليه أهل السنة ، وثبت بالكتاب والسنة .

فالكتاب قوله تعالى : ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، والسنة فما روى : وإني لخاتم النبيين وآدم فجدل بين الماء والطين .

وفي الصحيحين : أن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فكملها وأحسنها ونزل فيها موضع لبنة فصار يقال : ما أحسنها لو تمت فأنا اللبنة التي تم بها الأنبياء .

شرائع اليهود والنصارى والصابئين[1]، وأيده بالمعجزات الظاهرة [2] والآيات الباهرة «كانشقاق[3] القمر» وتسبيح الحصى[4] وانطاق[5] العجماء وما تفجر من بين أصابعه[6] من الماء .

ومن آياته الظاهرة التي تحدى بها مع كافة العرب القرآن العظيم[7] ، فإنهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا لسلبه ونهبه وقتله واخراجه كما أخبر الله عز وجل عنهم ، ولم يقدروا على معارضته بمثل القرآن[8] ، إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين

---

(١) يعني رافعاً تلك الأحكام ، ومزيلاً لها ومبنياً لانتهاء أمدها .

وأصل النسخ الإزالة ، واليهود والنصارى فرقتان معروفتان من أتباع سيد موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام .

والصابئون قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام وقبلتهم مهب الشمال عند منتصف النهار ، وإنما خص هؤلاء مع أن شريعته ﷺنسخت سائر الشرائع المتقدمة لشهرة ذكرهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : والآيات الظاهرة .

وحقيقة المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي ، موافق للدعوى سالم من المعارض ، على يد مدعي النبوة .

(٣) أكرم الله موسى عليه السلام بغلق البحر في الأرض ، وأكرم سيدنا محمداً ﷺفغلق له القمر في السماء ، فانظر إلى فرق ما بين السماء والارض .

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابي ذر رضي الله عنه

(٥) كذا في سائر نسخ الكتاب ، وفي لمع الأدلة الشيخة إمام الحرمين : ونطلق العجماء والنطق ابراز الكلام بالصوت ، وأنصلقه جعله ناطقاً .

(٦) الماء الطهور بالمشاهدة ، وهو أشرف المياه ، وقد تكررت منه ﷺهذه المعجزة في عدة مواطن في مشاهد عظيمة .

(٧) والقرآن هو كلام الله المنزل على محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف ، المنقول عنه نقلاً متواتراً .

(٨) ولو أقصر سورة منه ، وعجزهم متواتر ، أي ثبت إنصرافهم من المعارضة إلى المقارعة مع توفير مقتضيات المعارضة منهم من حديث قوة الفصاحة والبلاغة بحيث بلغوا في ذلك إلى الغاية التي تمكن في الإنسان مع توفر دواعيهم عن رد دعوته وتهالكهم على ذلك فلم يجدوا لذلك سبيلاً، وفرعوا إلى بذل مهجهم ، وإتلاف أموالهم وقتل نفوسهم ، وسبى ذرياتهم ، ولو قدروا على المعارضة لعارضوا ، =

جزالة القرآن ونظمه ، هذا مع ما فيه من أخبار الأولين ، مع كونه أمياً غير ممارس للكتب[١] ، والأنباء عن الغيب في أمور تحقق صدقه فيها في الإستقبال ، كقوله تعالى :

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَآءَ ٱللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾[٢] .

وكقوله تعالى : ﴿ الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدْنَى ٱلأَرْضِ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ .

ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل إن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلاً لله تعالى[٣] ، فمهما كان مقروناً بتحدي النبي ﷺ ينزل منزلة قوله : صدقت ، وذلك[٤] مثل القائم بين أيدي الملك المدعي على رعيته ، إنه رسول الملك إليهم[٥]

= ولما اختاروا ذلك عليها لما فيها من وصول مقصودهم وسلامة مهجهم ، ولو عارضوا النقل تواتراً لما فيه من توفر الدواعي ونفي الموانع ولم يكن ذلك قطعاً .

(١) بالتقليد ، ولم يعان تعلمًا، وإنما نشأ بين ظهور العرب فلم تعهد له خرجات يتوقع في مثلها دراسة فكان ذلك أدل آية على صدقه ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لأَرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

(٢) الآية : (٢٧) من سورة الفتح (٤٨) .

وذلك بعد تمام النسك ، وكل ذلك وقع في زمنه ﷺ ، ومن ذلك ما وقع بعده كقوله : ﴿ ألم غُلِبَتْ الرُّومُ. . . ﴾ الخ الآية رقم (١ - ٤) من سورة الروم (٣٠) .

(٣) فإن قيل : المعجزة قد تكون من قبيل الترك دون الفعل كما إذا قال الرسول : معجزتي أن أضع يدي على رأسي وأنتم لا تقدرون على ذلك ، نفعل وعجزوا فإنه معجز دال على صدقه .

(٤) وذلك التصديق للرسول بإيجاد المعجزة على وفق دعوى النبوة ، كتصديق القائم بين ملك من ملوك الدنيا .

(٥) وهو مقبل إليهم بحضرة الملك .

فانه مهما قال للملك إن كنت صادقاً فقم على سريرك ثلاثاً واقعد على خلاف عادتك ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله صدقت[1] .

---

(١) وفي غاية المرام لابن البياض :

كما إذا قام رجل من مجلس ملك بحضور جماعة ، وادعى أنه رسول ذلك الملك فطالبوه بالحجة فقال هي أن يخالف ذلك الملك عادته ويقوم عن سريره ثلاث مرات ويقعد ، ففعل فإنه يكون تصديقاً له ومفيداً للعلم الضروري بصدقه من غير إرتياب .

وفي اللمع لإمام الحرمين :

« ووجه دلالتهما على صدق النبي ﷺ، أنها تنزل منزلة التصديق بالقول ونظيره من الشاهد أن يتصدى ملك الناس ويأذن لهم بالولوج عليه فإذا اختلفوا به وأخذ كل منهم مجلسه قام رجل من أهل الجميع وقال إني رسول الملك إليكم ، وقد اوعيت الرسالة بمرأى منه وسمع ، وآية رسالتي أن الملك يخالف عادته ويقوم ويقعد إذا استدعيت منه ذلك أيها الملك صدقني ، وقم واقعد فإذا فعل الملك ما استدعاه كان ذلك تصديقاً له بمنزلة قوله صدقت .

الركن الرابع

في السمعيات وتصديقه ﷺ فيما أخبر عنه
ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول

الحشر والنشر

وقد ورد بهما [1] الشرع ، وهو حق ، والتصديق [2] بهما واجب لأنه في العقل ممكن [3] ؛ ومعناه الإعادة بعد الإفناء[4] ؛ وذلك مقدور لله تعالى ، كإبتداء

---

(1) والمراد بقوله : ﴿ بهما ﴾ الحشر والنشر وهو إحياء الخلق بعد موتهم وسوقهم إلى موقف الحساب ثم إلى الجنة أو النار ؛

والمراد بقوله : ورد بهما الشرع : يشير إلى ما أخرجه الشيخان من حديث إبن عباس : إنكم محشورون إلى الله .

ومن حديث سهل : يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء

ومن حديث عائشة : يحشرون يوم القيامة حفاة . .

وغير هذا من الآحاديث الصحيحة الواردة في هذا المعنى .

(2) وهو حق ثابت بالكتاب والسنة معلوم بالضرورة من هذا الدين ، والتصديق به واجب ، ولا خلاف بين الشرائع في الأصول الإعتقادية إنما الإختلاف بينها في الفروع فكل ما ورد في شريعتنا في أصول العقائد فهو كذلك في كل ملة .

(3) أشار به إلى دليل الجواز والإمكان ، أما الجواز فإنه ضروري عند العقلاء جميعاً ، وأما الإمكان فإنه أمر لا يلزم منه محال لذاته ، وذلك ظاهر قطعاً ، ولا لغيره ، إذ الأصل عدم الغير ، ومن ادعاه فعليه به ، وكل ما كان كذلك فهو جائز ممكن .

(4) أي الإيجاد بعد الإعدام ، وقيل هو الجمع بعد تفريق الأجزاء ، وعلى الأول إتفاق أكثرهم والعقلاء والحذاق من غيرهم .

الإنشاء[1] قال الله تعالى :

﴿ قالَ مَن يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [2] .

فاستدل بالإبتداء على الإعادة .

وقال عز وجل : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [3] .

والإعادة إبتداء ثان ، فهو ممكن كالإبتداء الأول .

الأصل الثاني

سؤال منكر ونكير

وقد وردت به [4] الأخبار ، فيجب التصديق به [5] ، لأنه ممكن ، إذ ليس يستدعي إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذي به فهم الخطاب [6] ، وذلك ممكن في نفسه ، ولا يدفع ذلك ما يشاهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا للسؤال

---

(١) أي أن المعاد مثل المبدأ بل هو عينه ، لأن الكلام في إعادة المعدوم ويستحيل كون الشيء ممكناً وقت ممتنعاً في وقت للقطع بأنه لا أثر للأوقات فيما هو بالذات .

(٢) الآية (٧٨ ـ ٧٩) من سورة يس (٣٦) .

(٣) الآية (٢٨) من سورة لقمان (٣١) .

(٤) أي بسؤال منكر ونكير : وهما شخصان أسودان أزرقان مهيبان هائلان ، شعورهما إلى أقدامهما كالرعد القاصف وأعينهما كالبرق الخاطف بأيديهما مقامع من حديد .

(٥) وهل هذا السؤال عام لكل مؤمن وغيره أو مختص بمن يغلب عليه منكر من عمله ، أو نكير من قلبه والأول عليه جمهور العلماء والثاني قول بعض علماء المغرب .

(٦) ورد الجواب والإنسان قبل موته لم يكن يفهم بجميع عمومنا بل الخبرة من باطن قلبه .

له ، فإن النائم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام [1] واللذات ما يحس بتأثيره عند التنبيه وقد كان رسول الله ﷺ .

« يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله [2] لا يسمعونه ولا يرونه ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » .

فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه [3] .

الأصل الثالث : « عذاب القبر »

وقد ورد الشرع به [4] قال الله تعالى :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [5] .

واشتهر عن رسول الله ﷺ والسلف الصالح الإستعاذة من عذاب القبر [6] ،

---

(١) واللذات ما يحس بتأثيره عند التنبيه كألم ضرب رآه بعد إستيقاظه من منامه ، وخروج مني من جماع رآه في منامه .

(٢) من الصحابة أو من هو مزاحمه في مكانه كعائشة رضي الله تعالى عنها ، إذ كانت معه بفراش واحد .

(٣) والأصح أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يسئلون في قبورهم لعلو مقامهم المقطوع لهم بسببه بالسعادة العظمى ولعصمتهم وكذلك الشهداء كما في صحيح مسلم وسنن النسائي وكذلك أطفال المؤمنين لأنهم مؤمنون غير مكلفين .

(٤) قرآناً وسنة وأجمع عليه قبل ظهور البدع علماء الأمة .

(٥) الآية (٤٦) من سورة غافر (٤٠) .

(٦) أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهما ، ولهما أيضاً من حديث عائشة رفعته :

« إنكم تفتنون أو تعذبون في قبوركم » =

وهو ممكن ، فيجب التصديق به [1] ، تفرق أجزاء الميت في بطون السباع وحواصل الطيور [2] ، فإن المدْرك لألْم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة بقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها[3] .

الأصل الرابع : « الميزان »

وهو حق [4] قال الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ [5] .

- وعند الإمام مسلم : إن هذه الأمة تبتلي في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ، ثم أقبل النبي ﷺ بوجهه علينا فقال : « **تعوذوا بالله من عذاب القبر** » .

وأما إستعاذة السلف الصالح منه فكثير على إختلاف طبقاتهم وكذلك ورد في نعيم القبر من الكتاب والسنة ما يصحح بثوته ، ومن نعيمه توسيعه وفتح طاق فيه من الجنة ووضع قنديل فيه وامتلاؤه بالروح والريحان وجعله روضة من رياض الجنة ، وكل هذا من العذاب والنعيم محمول على الحقيقة عند العلماء .

(١) لأنه من مجوزات العقول وشهد به السمع ، فلزم الحكم بقوله : ثم شرع في الرد على المنكرين وهم : ضرار بن عمرو وبشر المريس وجماعة من المعتزلة فقال : ولا يمنع من التصديق به .

(٢) وأقاص التخوم وقد جاز أن يحفظ الله تعالى من الأجزاء ما يتأتى به الإدراك ، وإن كان في بطون السباع ، وقعور البحار وغاية ما في الباب أن يكون بطن السبع ونحوه قبراً له .

(٣) ومن سلم إختصاص الرسول برؤية الملك دون القوم وتعاقب الملائكة فينا وآمن بقوله تعالى من الشيطان : « إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم » وجب عليه الإيمان بذلك كيف والإنسان النائم يدرك أحوالاً من السرور والغم من نفسه ونحن لا نشاهد ذلك منه والبرزخ أول منزل من منازل الآخرة وتغير العادات .

(٤) الميزان حق ثابت دلت عليه قواطع السمع ، وهو ممكن ، التصديق به .

(٥) الآية (٤٧) من سورة الأنبياء (٢١) .

ثم تعليق الإمام الحافظ إبن حجر العسقلاني فيقول في فتح الباري :

« إختلف في ذكره هنا بلفظ الجمع هل المراد أن لكل شخص ميزاناً ، أو لكل عمل ميزاناً فيكون الجمع حقيقة ، أو ليس هناك إلا ميزان واحد والجمع بإعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ (١) .

ووجهه (٢) أن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى (٣) ، فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد ، حتى يظهر لهم العدل في العقاب ، أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب (٤) .

الأصل الخامس : الصراط

وهو (٥) جسر ممدود على متن جهنم (٦) ، أرق من الشعرة وأحدّ من السيف (٧)

---

(١) الآية (٨ و٩) من سورة الأعراف (٧) .

ويقول الزبيدي : « ويحتمل أن يكون الجمع للفخيم كما في قوله تعالى : ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ .

مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحد ، والذي يترجح أنه ميزان واحد ، ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا .

والقسط العدل ، وهو نعت الموازين وأين كان مفرداً وهي جمع لأنه مصدر .

(٢) يغني الوجه الذي يقع عليه وزن الأعمال .

(٣) وعبارة الإقتصاد بقدر رتبة الطاعات ، ففي نص المصنف في الإقتصاد تصريح بأن الذي يخلق ميل في الكفة وهو لا يستلزم خلق ثقل في حرم الصحيفة ؛

(٤) وقوله حتى غاية لقوله يحدث في صحائف الأعمال وزنا ، وقال بعض المتأخرين : لا يبعد أن يكون من الحكمة في ذلك ظهور مراتب أرباب الكمال وفضائح أرباب النقصان على رؤ س الأشهاد زيادة في سرور أولئك وخزي هؤلاء .

(٥) وهو ثابت على حسب ما نطق به الحديث

(٦) يرده الأولون والآخرون ، فإذا تكاملوا عليه قبل وقوفهم إنهم مسئولون .

أخرج الإمام البخاري والإمام مسلم من حديث أبي هريرة رفعه : « وتضرب الصراط بين ظهراني جهنم » وللبخاري ومسلم أيضاً : من حديث أبي سعيد : « ثم يضرب الجسم على جهنم » .

(٧) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد بلفظ : بلغني أنه أدق من الشعر ، وأحد من السيف ورفعه الإمام أحمد من حديث عائشة والبيهقي في الشعب والبعث من حديث أنس .

قال الله تعالى :

﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ (١)

وهذا ممكن (٢) فيجب التصديق به ، فإن القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على ان يسير الإنسان على الصراط (٣) .

الأصل السادس

أن الجنة والنار مخلوقتان

قال الله تعالى :

﴿ وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَاالسَّمَـٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤)،

---

(١) الآية (٢٣ ـ ٢٤) من سورة الصافات (٣٧) .

(٢) أي وضع الصراط على الصفة المذكورة ، وورد الخلائق إياه أمر ممكن وارد على وجه الصحة ورده ضلاله .

(٣) بل هو سبحانه قادر على أن يخلق للإنسان قدرة المشي في الهواء ولا يخلق في ذاته هو ما إلى أسفل ولا في الهواء إنخراقاً ، وليس المشيء على الصراط بأعجب من هذا ، كما ورد في الصحيحين : أن رجلاً قال يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة .
وفي الصحيحين : فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويه الخيل والركاب ، فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ومكدوش في نار جهنم .

(٤) الآية (١٣٣) من سورة آل عمران (٣) .
والجنة والنار حقان ممكنتان ، لأنه أمر ضروري من جهة العقل واقعتان لما دل به السمع ، وهو ضروري من الدين إذ الكتاب والسنة وآثار الأمة مملوأة بذكر ذلك ، ولا يتوقف فيه إلا كافر وإنهما مخلوقتان الآن إتفق على ذلك أهل السنة والجماعة عملاً بالقرآن .

فقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ ، دليل وعلى أنها مخلوقة ، فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا إستحالة فيه [1] ولا يقال : لا فائدة في خلقهما [2] قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى :

﴿ لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾[3].

الأصل السابع

إن الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي

---

(١) وكون الشيء مهيأ ومعداً لغيره فرع وجوده ، وكذا قصة آدم وحواء أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما إلى أن قال : وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ؛ وحمل مثله على بستان من بساتين الدنيا ، كما زعمه بعض المعتزلة يشبه التلاعب أو العناد إذ المتبادر من لفظ الجنة باللام العهدية في إطلاق الشارع ليس إلا الجنة الموجودة في السنة ، وظواهر كثيرة من الكتاب والسنة تصيرها قطعية بإعتبار دلالة مجموعها ؛ وأجمع الصحابة على فهم ذلك من الكتاب والسنة .

(٢) لأنه عبث فلا يليق بالحكيم .

والجواب : أن نفي الفائدة في خلق الجنة الآن ممنوع إذ هي دار نعيم أسكنها تعالى من يوحده. ويسبحه بلا فترة من الحور والولدان والطيران .

وقد روى الترمذي والبيهقي من حديث علي رفعه :

إن في الجنة مجتمعاً للحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد .

(٣) الآية (٢٣) من سورة الأنبياء (٢١) .

ثم إختلف العلماء في محلها والأكثر على أن الجنة فوق السموات عملاً بقوله تعالى :**﴿ عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ﴾** .

وقوله عليه الصلاة والسلام في وصف جنة الفردوس ، سقفها عرش الرحمن ، وعلى أن النار تحت الأرض .

وهذا لم يرد فيه نص صريح ، وإنما هي ظواهر ، والحق في ذلك تفويض العلم إلى الله .

رضي الله عنهم [١] ، ولم يكن نص رسول الله ﷺ على إمام أصلاً [٢] ، إذا لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه أحاد الولاة والأمراء على الجنود في البلاد [٣] ، ولم يخف ذلك ، فكيف خفي هذا ؟ وإن ظهر فكيف إندرس حتى لم ينتقل إلينا [٤] ؟ فلم يكن أبو بكر إماماً إلا بالإختيار والبيعة [٥] .

وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله

---

(١) إبن الإمام الحق بعد سيدنا رسول الله ﷺ ، عندنا وعند المعتزلة ، وأكثر الفرق هو أبو بكر الصديق بإجماع الصحابة على مبايعته ، ثم عمر بن الخطاب باستخلاف أبي بكر له ، ثم عثمان بن عفان بالبيعة بعد إتفاق أصحاب الشورى ، ثم علي بن أبي طالب بمبايعة أهل الحل والعقد ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

(٢) اللهم إلا ما زعم بعض أصحاب الحديث أنه نص على إمامة أبي بكر نصاً جلياً .

وعزى إلى الحسن البصري أنه نص على إمامته نصاً خفياً ، ولكن عندنا معاشر أهل السنة كان يعلم لمن هي بعده بإعلام الله تعالى إياه دون أن يؤمر بتبليغ الأمة النص على الإمام بعينه، وإذا علمها فإما أن يعلمها أمراً واقعاً موافقاً للحق في نفس الأمر أو مخالفاً له ، وعلى أي الحالتين لو كان المفترض على الأمة مبايعة غير الصديق لبالغ ﷺ في تبليغه بأن ينص عليه نصاً ينقل مثله على سبيل الإعلان والتشهير .

(٣) وكان سبيله أن ينقل نقل الفرائض لتوفر الدواعي على مثله في إستمرار العادة المطردة من نقل مهمات الدين المطلوب فيها الإعلان .

(٤) فلا نص لإنتفاء لازمة من الظهور فلا وجوب لإمامة علي بعده ﷺ على ما زعمته الشيعة على التعيين ولزم بطلان ما نقلوه من الأكاذيب وسودوا به أوراقهم نحو قوله ﷺ لعلي : أنت خليفتي من بعدي .

(٥) وإن قلنا أنه لم ينص على إمامته على أن في الأخبار الواردة ما هو صريح في إمامته وهو إشارة وتلويح ، فالأول ما في صحيح مسلم من حديث عائشة رفعته .

« أئتوني بدواة وقرطاس أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف فيه إثنان ، ثم قال يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر » وهو أيضاً في صحيح البخاري .

وأما الثاني : وهو الإشارة فإقامته مقامه في إمامة الصلاة ، ولقدر وجع في ذلك كما في الصحيحين . وغير ذلك من الأحاديث .

ﷺ[1] ، وخرق الإجماع ، وذلك مما لا يستجرىء على إختراعه ، إلا الروابض[2] .

وإعتقاد أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ[3] عليهم .

وما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما كان مبنياً على الإجتهاد لا منازعة من معاوية في الأمامة ، إذ ظن علي رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان[4] مع كثرة

---

(١) وهو باطل لأنهم كانوا أطوع لله تعالى من غيرهم ، وأعمل بحدوده ، وأبعد من إتباع الهوى وحظوظ النفس ، ومنهم بقية العشرة المشهود لهم بالجنة ، فكيف يجوز على هؤلاء أن يعلموا الحق في ذلك ويتجاهلوا عنه ، أو يرويه لهم أحد يجب قبول روايته فيتركوا العمل به بلا دليل راجح ، معاذ الله أن يجوز ذلك عليهم ، ولو جاز عليهم الخيانة في أمور الدين وكتمان الحق لارتفع الأمان في كل ما نقلوه لنا من الأحكام ، وأدى إلى أن لا يجزم بشيء من الدين لأنهم هم الوسائط في وصولها إلينا .

(٢) وهم الطائفة المشهورة ، وأصل الرقص الترك ، وسموا رافضة لأنهم تركوا زيد بن علي حين نهاهم عن سب الصحابة ، فلما عرفوا فعالته وأنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه ؛ ثم إستعمل هذا اللقب في كل من غلا في هذا المذهب وله طوائف كثيرة يجمعهم إسم الرافضة ، ولما كان في معتقدات الروافض أن الصحابة كلهم بعد وفاة النبي ﷺ إرتدوا ما عدا جماعة منهم أبو ذر وبلال وعمار بن ياسر وصهيب لوح المصنف بالرد عليهم فقال : « وإعتقاد أهل السنة . . . الخ»

(٣) تزكية الصحابة رضي الله عنهم وجوباً بإثبات العدالة لكل منهم والكف عن الطعن فيهم فقد أثنى الله تعالى عليهم كما أثنى عليهم رسوله ﷺ ، بعمومهم وخصوصهم في آي من القرآن الكريم وشهدت نصوصه بعد التهم والرضا عنهم ببيعة الرضوان ، وكانوا حينئذ أكثر من ألف وسبعمائة ، وعلى المهاجرين والأنصار ، خاصة في آي كثيرة .

وعند الشيخين من حديث أبي سعيد : لا تسبوا أصحابي .

وعندهما : خير القرون قرني .

وعند الإمام مسلم : أصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتاهم ما يوعدون .

(٤) رضي الله عنه ، إلى معاوية حين قدمت نائلة إبنة الفرافصة زوج عثمان على معاوية بدمشق وهو بها أمير بقميص عثمان الذي قتل فيه مخلوطاً بدمه ، فصعد على المنبر وحرض قبائل العرب على =

عشائرهم وإختلاطهم بالعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها ، فرأى التأخير أصوب (١) ، وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك ، وقد قال أفاضل العلماء :

كل مجتهد مصيب . وقال قائلون :

المصيب واحد ولم يذهب إلى تخطئة على ذو تحصيل أصلاً .

الأصل الثامن

إن فضل الصحابة رضي الله عنهم على حسب ترتيبهم في الخلافة (٢) ، إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل ، وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله ﷺ (٣) .

وقد رود في الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة وإنما يدرك دقائق الفضل

= التمكين من قتلته فجمع الجيوش ، وسار وطالب علياً إذ بلغه أن قتلته لاذت به ، وهم يصرخون بين يديه : نحن قتلنا عثمان ، فرأى علي أن تسليمهم له من مراده .

(١) حتى يستقيم أمر الإمامة ، فقد ثبت أنه لما قتل عثمان هاجت الفتنة بالمدينة ، وقصد القتلة الإستيلاء عليها والفتك بأهلها ، فأرادت الصحابة تسكين هذه الفتنة بتولية علي فأمتنع ، وعرضت على غيره فامتنع أيضاً إعظاماً لقتل عثمان ، فلما مضت ثلاثة أيام من قتل عثمان أجتمع المهاجرون والأنصار فناشدوا علياً الله في حفظ الإسلام ، وصيانة دار الهجرة فقبل بعد شدة ؛ وإنما أجابهم علي ، في توليته خشية من الإمامة أن تهمل وهي من أمور الدين .

(٢) فأفضل الناس بعد سيدنا رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، رضوان الله تعالى عليهم ؛

إذ المسلمون كانوا لا يقدمون أحد في الإمامة تشهياً منهم ، وإنما يقدمونه لاعتقادهم بأنه أصلح وأفضل من غيره .

(٣) وذلك بإطلاع الله سبحانه وتعالى إياه .

والترتيب فيه المشاهدون للوحي والتنزيل [1] بقرائن الأحوال ودقائق التفصيل [2] .

فلولا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عن الحق صارف [3] .

الأصل التاسع

إن شرائط الإمامة بعد الإسلام [4] والتكليف خمسة :

---

(١) وفي نسخة أخرى : المشاهدون الوحي والتنزيل . . . الخ
وكذلك أحوال النبي ﷺ معهم ، وأحوالهم معه .

(٢) لهم دون من لم يشهد ذلك ، ولكن قد ثبت ذلك التفضيل لنا صريحاً من بعض الأخبار ودلالة من بعضها كما في الصحيحين من حديث عمرو بن العاص حين سأله عليه السلام فقال :
« من أحب الناس إليك ؟ قال عائشة ، فقلت : من الرجال ؟ قال أبوها ، قلت ثم من ؟ قال عمر بن الخطاب ، فعد رجالاً ، وتقديمه في الصلاة : أن الإتفاق على أن السنة أن يقدم على القوم أفضلهم علماً وقراءة وخلقاً ، وورعاً ، فثبت بذلك أنه أفضل الصحابة ؛
وفي الصحيحين من حديث إبن عمر : من نخير بين الناس في زمان رسول الله ﷺ نخير أبا بكر ثم عمر ، ثم عثمان .
زاد الطبراني : فيبلغ ذلك النبي ﷺ فلا ينكره .

(٣) أي مانع لما عرف من صرامتهم في الدين ، وعدالتهم ، وثناء الله عليهم ، وتزكيتهم .

(٤) واحترز بقوله : « بعد الإسلام » لأن الكافر لا يصح تقليده لأمور المسلمين .
يقول سبحانه : ﴿ **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً** ﴾ .
وإحترز بقوله : « والتكليف » لأن غير العاقل من الصبي والمعتوه عاجز عن القيام بأموره ، فكيف يقوم بأمر غيره ؛ وبعد الحرية ، لأن العبد مشغول الأوقات بحقوق سيده ، فكيف يتفرغ بشأن غيره ، وأيضاً أن العبد محتقر في أعين الناس فلا يهاب ولا يمتثل أمره ، وبعد سلامته من العمى والصمم والبكم ، إذ مع وجود شيء منها لا يمكنه القيام بشأن الإمامة .

الذكورة ، والورع ، والعلم [١] ، والكفاية ، ونسبة قريش ، لقوله ﷺ .

« الأئمة من قريش »[٢] .

وإذا إجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات ، فالإمام من إنعقدت له البيعة من أكثر الخلق ، والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الإنقياد إلى الحق [٣] .

الأصل العاشر

إنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة [٤] ، وكان في صرفه

---

(١) وفي نسخة أخرى : الذكورية ، واشتراطها لأن إمامة المرأة لا تصح إذ النساء ناقصات عقل ودين ، ممنوعات من الخروج إلى مشاهد الحكم ومعارك الحرب .
وأما الورع : فإنه أراد به العدالة ، وبها عبر الأكثرية ، وهي المرتبة الأولى من مراتب الورع التي هي ترك ما يوجب إقتحامه وصف الفسق .
أما العلم : فإنه أراد به الإجتهاد في الأصول الدينية والفروع ليتمكن بذلك من القيام بأمر الدين بالحج ، وحل الشبه في العقائد ، ويستقل بالفتوى في النوازل وأحكام الوقائع نصاً وإستنباطاً لأن مقاصد الإمامة حفظ العقائد، وفصل الحكومات ، ورفع الخصومات .
وأما الكفاءة وفي بعض النسخ الكتابة ، فإنه أراد بها القدرة على القيام بأمور الإمامة ، ويحترز بها عن العجز ، وهي أعم الشجاعة ، إذ الكفاءة تتناول كونه ذا رأى بتدابير الحروب ، وترتيب الجيوش ، وحفظ الثغور ، وكونه ذا شجاعة وهي قوة قلب ، بها يقتص من الجناة ، ويقيم الحدود الشرعية ، ولا يجبن عن الحروب .

(٢) والمراد بقوله : نسبة قريش : كونه من أولاد قريش ، وهو لقب النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ، بن الياس ، بن مضر ، والنضر هو الجد الثالث عشر لسيدنا رسول الله ﷺ .
والحديث أخرجه النسائي من حديث أنس ، والحاكم من حديث علي ، وصححه وأخرجه البخاري في التاريخ ، وأبو يعلى ، وأخرجه أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) جرياً على ما هو العادة الغالبة ، فلا مفهوم له ، وبهذا يجمع بينه وبين كلام غيره من أهل السنة ما مقتضاه إعتبار السبق فقط .

(٤) يعني بذلك أنه إذ تعذر وجود العدالة ، والإجتهاد في الأصول والفروع ، فيمن يتصدى للإمامة ، ويغلب عليها الجاهل بالأحكام والفاسق .

إثارة فتنة لا تطاق حكمنا بإنعقاد إمامته لانا بين أن نحرك فتنة الإستبدال ، فما يلقى المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزية المصلحة ، فلا يهدم أصل المصلحة شغفاً بمزاياها ، كالذي يبني قصراً ويهدم مصراً ، وبين أن نحكم بخلو البلاد عن الإمام وبفساد الأقضية وذلك محال ، ونحن نقضي بنفوذ قضاء أهل البغي في بلاد لمسيس حاجتهم فكيف لا نقضي بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة .

فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأُصول الأربعين هي قواعد العقائد [٢] .

فمن إعتقدها كان موافقاً لأهل السنة[٣] ومبايناً لرهط البدعة فالله تعالى يسددنا بتوفيقه ويهدينا إلى الحق [٤] وتحقيقه . بمنة وسعة جوده وفضله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى .

---

(١) أي الضرر القائم بتقدير عدم الإمامة ، بأن لا نحكم بالإنعقاد فيبقى الناس فوضى لا إمام لهم ، وتكون أقضيتهم فاسدة بناء على عدم صحة تولية القضاء ، وإذا تغلب آخر فاقد الشروط على ذلك المتغلب أولا وقعد مكانه قهراً إنعزل الأول وصار الثاني إماماً .

(٢) العقائد الدينية ، ولذلك سمي المصنف رحمه الله تعالى كتابه الأربعين في عقائد أهل الدين ، نظراً إلى ذلك ؛

وكذلك الفخر الرازي رحمه الله تعالى ، له كتاب الأربعين ، وهذا غير إصطلاح المحدثين ، فإنهم يريدون به أربعين حديثاً كما هو ظاهر .

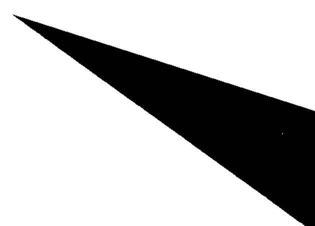
(٣) موافقاً لأهل السنة والجماعة ، معدوداً في حزبهم ، مخالفاً ومفارقاً لأهل البدع والضلالة .

(٤) والله يهدينا إلى إتباع الحق الصريح الموافق للكتاب والسنة ، وتحقيقه بالدلائل الواضحة .

الفصل الرابع

من قواعد العقائد

في الإيمان والإسلام وما بينهما من الإتصال والإنفصال، وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان، و وجه إستثناء السلف، وفيه ثلاثة مسائل.

مسألة :

إختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره ، وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلازمه :

فقيل : إنهما شيء واحد [١] .

وقيل : إنهما شيآن لا يتواصلان [٢]

وقيل : إنهما شيآن ولكن يرتبط أحدهما بالآخر .

وقد اورد أبو طالب المكي [٣] في هذا كلاماً شديد الإضطراب كثير التطويل [٤] فلنهجم [٥] الآن على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل ما لا تحصيل له ، فنقول :

في هذا ثلاثة مباحث :

بحث عن موجب اللفظين في اللغة [٦] .

---

(١) شيء واحد في المعنى والحكم ، يطلق أحدهما على الآخر .

(٢) لا يتواصلان ، بل مستقلان بذاتهما .

(٣) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي البصري المكي ، في كتابه قوت القلوب ، ولذة المحب المحبوب .

(٤) كثير التطويل بايراد العبارات ، وما كان كذلك فهو قليل الجدوى .

(٥) فلنهجم : من الهجوم وهو الدخول مرة واحدة بسرعة .

(٦) بفتح الجيم من الموجب .

وبحث عن حكمها في الدنيا والآخرة .

والبحث الأول لغوي [١] ، والثاني تفسيري [٢] ، والثالث فقهي شرعي [٣] .

البحث الأول في موجب اللغة [٤]

والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق [٥] قال الله تعالى .

﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾[٦] اي بمصدق .

والإسلام عبارة عن التسليم والإستسلام بالإذعان [٧] والإنقياد وترك التمرد والإباء [٨] لعناد .

وللتصديق محل خاص وهو القلب ، واللسان ترجمانه [٩] .

---

(١) لأنه يبحث فيه عن جوهر لفظيهما .

(٢) لأنه يبحث فيه عن إطلاقات القرآن الكريم .

(٣) لأنه يبحث فيه عما يترتب على المتصف بهما ثواباً وعقاباً .

(٤) بفتح الجيم من أوجب عليه كذا ، فهو موجب ، والمعنى ما يوجبه اللغة إيجاباً ، والموجب بالكسر هو الذي يجب صدور الفعل عنه ، بأن كان علة تامة له من غير قصد وإرادة وهذا هو الموجب بالذات ومثلوه بوجوب صدور الإحراق من النار ، ويراد بهذا المفهوم وهو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق .

(٥) وهو أن تنسب بإختيارك الصدق إلى المخبر أو المخبر عنه ، والصدق مطابقة القول الضمير والمعبر عنه معنى ، ثم إستعماله في التصديق إما مجاز لقوى أو حقيقة لغوية .

(٦) الآية ١٧ من سورة يوسف وتمامها : ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ .

(٧) التسليم : هو ترك الإعتراض فيما لا يلائم ، والإستسلام : هو الإنقياد الظاهر فقط والدخول في السلم .

(٨) الإباء : الكراهية والإمتناع ؛ والعناد : هو المبالغة في الأعراض ومخالفة الحق ،

(٩) الذي يعبر عن ذلك المعنى القائم بالقلب .

وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح ، فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الأباء والجحود ، وكذلك الإعتراف باللسان ، وكذلك الطاعة والإنقياد بالجوارح .

فموجب اللغة أن الإسلام أعم ، والإيمان أخص ، فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام ، فإذن كل تصديق تسليم ، وليس كل تسليم تصديقاً [1]

البحث الثاني عن إطلاق الشرع

والحق فيه أن الشرع قد ورد بإستعمالها على سبيل الترادف [2] والتوارد ، وورد على سبيل الإختلاف [3] ، وورد على سبيل التداخل [4] .

---

(١) يقول الإمام السبكي رضي الله عنه ورحمه :

« إشتهر المغايرة بالعموم والخصوص المطلق ، فكل إيمان إسلام ، ولا ينعكس ، ثم إختار أن الظاهر تساويهما أو تلازمهما بمعنى أن الإسلام موضوع لإنقياد الظاهر مشروطاً فيه الإيمان ، والإيمان موضوع للتصديق الباطن مشروطاً فيه القول عند الإمكان ، فثبت تلازمهما وتقايرهما ؛

ولا يقال : كل إيمان إسلام ولا كل إسلام إيمان ، ولا تنافي أن يكون المتباينان متلازمين ، لأن معنى التباين أن لا يصدقا على ذات واحدة ، وإن تلازماً في الوجود ، هذا في الإسلام المعتدية .

وقول من قال : كل إيمان إسلام ولا عكس أطلق الإسلام على ما يعتد به وعلى ما لا يعتد به ، ثم فيه مع ذلك تجوز وتحرير العبارة أن يقال : كل إيمان يلزمه الإسلام ولا ينعكس .

وأما قول من قال : كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فإن جعلت الإيمان لا يحصل مسماه إلا بشرط اللفظ فيصح وإن جعلته يحصل مسماه لكن لا يعتد به شرعاً إلا بالتلفظ لا يصح .

(٢) وهو الإتحاد في المفهوم ، أو توالي الألفاظ المفردة الدالة على مسمى واحد .

(٣) الإختلاف والتقابل بحيث يكون كل منهما منفرداً في المفهوم .

(٤) بأن يتصور حصول المفهوم تارة في هذا ، وتارة في هذا ، ثم شرع في بيان ذلك فقال : أما الترادف . . . الخ .

أما الترادف ففي قوله تعالى :

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] .

ولم يكن بالإتفاق إلا بيت واحد [2] . وقال تعالى .

﴿ يا قَوْمِ إن كُنتُم آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [3] .

وقال ﷺ : « بني الإسلام على خمس »[4] .

وسئل رسول الله ﷺ مرة عن الإيمان ، فأجاب بهذه الخمس [5] .

وأما الإختلاف فقوله تعالى :

---

(١) الآية : ٣٥ ، ٣٦ من سورة الذاريات .

(٢) وهو لوط وبناته ، وهو قول جماعة من المحدثين ، وجمهور المعتزلة ، والمتكلمين ، ووجه إستدلالهم من الآية ، إستثناء المسلمين من المؤمنين ، والأصل في الإستثناء كون المستثني من جنس المستثني منه فيكون الإسلام هو الإيمان .

(٣) الآية ٨٤ من سورة يونس .

فعجز الآية يشهد على صدرها بأنهما شيء واحد ، ومما يستدل به على ترادفهما أيضاً قوله تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه** ﴾.

ووجه الدلالة أن الإيمان لو كان غير الإسلام لما كان مقبولاً ، فتعين أن يكون عينه ، لأن الإيمان هو الدين والدين هو الإسلام ، لقوله تعالى :

﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ فينتج أن الإيمان هو الإسلام .

(٤) أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحهما .

(٥) المراد بالخمس المذكورة في الحديث قبله : الشهادتان ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم والحديث أخرجه ، الإمام أحمد والبيهقي في الإعتقاد من حديث إبن عباس وهو أيضاً في الصحيحين .

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ [1] .

ومعناه استسلمنا في الظاهر [2] ، فأراد الإيمان ها هنا التصديق فقط . وبالإسلام الإستسلام ظاهراً باللسان والجوارح [3] .

وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان ، فقال :

« أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره » فقال :

فما الإسلام ؟ فأجاب بذكر الخصال الخمس فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل [4] .

---

(١) الآية : (١٤) من سورة الحجرات (٤٩) ؛ نزلت في نفر من بني أسلم قدموا المدينة في سنة جدبة ، فأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قالتك بنو فلان ، يريدون الصدقة ويمنون فقال تعالى لرسوله ﷺ قل يا محمد لم تؤمنوا إذ الإيمان تصديق مع طمأنينة قلب ولكن قولوا : أسلمنا .

(٢) يعني أنقدنا ودخلنا في السلم ، وكان نظم الكلام أن يقول لا تقولوا آمنا وقولوا أسلمنا ، إذ لم تؤمنوا ، ولكن أسلمتم ، فعدل عنه إلى هذا النظم ليفيد تكذيب دعواهم .

(٣) وفي هذه الآية الكريمة رد على الكرامية ومن وافقهم من المرجئة في قولهم أن الإيمان إقرار باللسان فقط ، وقد بوّب البخاري على حديث سعد فقال في عنوانه : إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الإستسلام أو الخوف من القتل ، ثم أورد الآية المذكورة .

(٤) فدل على إختلافهما في الحكم ، والحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، دون ذكر الحج ، وأخرجه الإمام مسلم من حديث عمر دون ذكر الحساب ، وأخرجه أيضاً البيهقي في البعث وأخرجه البخاري في كتاب الإيمان ،! وفي كتاب التفسير ، وفي كتاب الزكاة .

وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، وإبن ماجه في سننه وأبو داود في سننه والنسائي في سننه والترمذي والإمام أحمد والبزار بإسناد حسن ، وأبو عوانه في صحيحه .

وفي الحديث عن سعد[1] انه ﷺأعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر ، فقال له سعد : يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن ؟ فقال ﷺ.

« أو مسلم ؟ » فأعاد عليه فأعاد رسول الله ﷺ [2] .

واما التداخل فما روى أيضاً أنه سئل فقيل :

« أي الأعمال أفضل » ؟

فقال ﷺ: « الاسلام » فقال : أي الإسلام أفضل ؟

فقال ﷺ: « الايمان »[3] .

وهذا دليل على الإختلاف وعلى التداخل ، وهو أوفق الإستعمالات[4] في

---

(١) سعد بن أبي وقاص الزهري ، رضي الله عنه ، أحد العشر المبشرة المشهود لهم بالجنة ، وآخر من توفى منهم سنة سبع وخمسين .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في الإيمان والزكاة من طريق شعيب عن الزهري عن عامر بن سعد ، عن أبيه ؛ وأخرجه عبد الرحمن بن عمر في كتاب الايمان من طريق يونس عن الزهري ليس فيه إعادة السؤال ولا الجواب عنه ،وأخرجه احمد والحميدي في مسنديهما عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري وعند البخاري في كتاب الزكاة من طريق صالح عن الزهري .

(٣) أخرجه الإمام أحمد والطبراني من حديث عمرو بن عبسة بالشطر الأخير قال رجل يا رسول الله أي الاسلام أفضل ؟ قال الإيمان . . الحديث وإسناده صحيح لكنه منقطع .
وفي حاشية كتاب المغني ما نصه : علقه البخاري ، ووصله الحاكم في الأربعين .
والذي في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر سأل رجل رسول ﷺ، أي الإسلام خير ؟ قال تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف
ومن حديث أبي هريرة سئل رسول الله ﷺ، أي العمل أفضل قال إيمان بالله ورسوله . . الحديث .
وأخرجه مسلم والنسائي والترمذي بألفاظ .

(٤) وفي بعض النسخ : لإستعمالات اللغة .

اللغة ، لان الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها ، والإسلام هو تسليم أما بالقلب وأما باللسان وأما بالجوارح وأفضلها الذي بالقلب ، وهو التصديق الذي يسمى إيماناً . والإستعمال لهما على سبيل الإختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز في اللغة[1] .

أما الإختلاف فهو أن يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط[2] ، وهو موافق للغة[3] .

والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً ، وهو أيضاً موافق للغة فإن التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه إسم التسليم فليس من شرط حصول الإسم عموم المعنى لكل محمل يمكن أن يوجد المعنى فيه ، فإن من لمس غيره بدنه يسمى لامساً وإن لم يستعرق جميع بدنه .

فإطلاق إسم الإسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾[4] .

---

(١) أي أن اللغة العربية لاتساعها تجوز إطلاق كل ما ذكر في محالها .

(٢) يعني قبول القلب وإذعانه لما علم بالضرورة أنه من دين سيدنا محمد ﷺ، من غير إفتقار إلى نظر وإستدلال ، وهو المختار عند جمهور الأشاعرة ، وبه قال الإمام ابو منصور الماتريدي .

(٣) إلا أنه في اللغة عبارة عن مطلق التصديق ، وكونه عبارة عن تصديق بالقلب نقل عن مفهومه اللغوي .

(٤) الآية : (١٤) من سورة الحجرات (٤٩) .

ذلك أن الإسلام إنقياد ودخول في السلم وإظهار للشهادة لا بالحقيقة ، ومن ثم قال : قل لم تؤمنوا ، فإن كل ما يكون من الإقرار من غير مواطأة القلب فهو إسلام .

وقوله ﷺ. في حديث سعد « او مسلم » لأنه فضل احدهما على الآخر ، ويريد بالاختلاف تفاضل المسميين [١] .

وأما التدخل فموافق أيضاً للغة[٢] في خصوص الإيمان ، وهو أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعاً ، والإيمان عبارة عن بعض ما دخل في الإسلام وهو التصديق بالقلب ، وهو الذي عنيناه بالتداخل ، وهو موافق للغة في خصوص الإيمان[٣] وعموم الإسلام للكل[٤] . وعلى هذا خرج قوله (الإيمان) في جواب قول السائل أي الإسلام أفضل ؟ لأنه جعل الإيمان خصوصاً من الإسلام فأدخله فيه[٥] .

وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بان يجعل الإسلام عبارة على التسليم بالقلب والظاهر جميعاً فإن كل ذلك تسليم ، وكذا الإيمان ، ويكون التصرف في الايمان على الخصوص بتعميمه وإدخال الظاهر في معناه ، وهو جائز ، لان تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته .

---

(١) أحدهما على الآخر ، وتفاوتهما في الدرجات والمقامات .

(٢) فإنه دخول أحدهما في ضمن الآخر .

(٣) وذلك نظراً إلى التصديق القلبي .

(٤) وعموم الإسلام للكل : نظراً إلى شموله ، من اللسان والقلب والعمل .

(٥) وروى عن أبي جعفر ، محمد بن علي بن الحسين : أن الإيمان مقصور في الإسلام معناه هو في باطنه ، قال : وأدار دائرة فقال : هذا للإسلام ، ثم أدار في وسطه دائرة أخرى صغيرة فقال : وهذا للإيمان في الإسلام ، فإذا فعل وفعل خرج من الإيمان وصار في الإسلام ، يريد به ، خرج من حقيقة الايمان وكماله ولم يكن من الموصوفين الممدوحين بالخوف والورع من المؤمنين ، لا أنه خرج من الاسم ، والمعنى حتى لا يكون مؤمناً بالله عز وجل مصدقاً برسله وكتبه ، ألا ترى الدائرة الصغيرة غير خارجة عن الدائرة الكبيرة التي أدارها حولها فجعلها فيها لأنها خالصها وقلبها ومخصوصة فيها ولو كان أراد به يخرج من الإيمان لجعلهما دائرتين منفردتين ولم يجعل أحداهما وسط الاخرى .

وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل[1] التسامح ، فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفاً لاسم الإسلام ومطابقاً[2] له ، فلا يزيد عليه ولا ينقص وعليه خرج قوله : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[3] .

البحث الثالث عن الحكم الشرعي

وللإسلام والإيمان[4] حكمان : أخروي[5] ودنيوي .

اما الأخروي فهو الإخراج من النار[6] ، ومنع التخليد ، إذ قال رسول الله ﷺ :

« ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان »[7] .

وقد اختلفوا في هذا الحكم على ماذا يترتب ، وعبروا عنه بأن الإيمان ماذا هو ؟

---

(١) والإتساع فيحتاج في فهمه الى هذا التقدير

(٢) جمعا بين المتوافقين وضديها .

(٣) الآية : (٣٦) من سورة الذاريات (٥١) .

وعليه صح إستثناء المسلمين من المؤمنين

(٤) نظر إلى الشرع .

(٥) يعني يتعلق بالآخرة .

(٦) الإخراج من النار بعد الدخول فيها ، ومنع التخليد فلا يبقى فيها أبداً .

(٧) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري في الشفاعة وفيه :

« أذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . . . » الحديث.

ولهما من حديث : فيقال : انطلق فاخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان لفظ البخاري فيهما ، وله تعلقات من حديث أنس يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان ، وهو عندهما متصل .

فمن قائل : إنه مجرد العقد[1] .

ومن قائل يقول : إنه عقد بالقلب وشهادة اللسان[2] .

ومن قائل يزيد[3] ثالثاً وهو العمل بالأركان .

ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول :

---

(1) أي مسمى الإيمان هو مجرد ما عقد عليه القلب من التصديق والقبول والإذعان لما علم بالضرورة أنه من دين سيدنا محمد ﷺ، بحيث تعلمه العامة من غير إفتقار إلى نظر وإستدلال ، كالوحدانية ، والنبوة ، والبعث والجزاء ، ووجوب الصلاة والزكاة وحرمة الخمر ونحوها ، ويكفي الاجمال فيما يلاحظ إجمالاً كالإيمان بالملائكة والكتب والرسل ويشترط التفصل فيها يلاحظ تفصيلاً كجبريل وميكائيل وموسى وعيسى والتوراة والإنجيل ، كما هو مختار الأشاعرة وبه قال الماتريديه .

(2) والمراد بالشهادة الإقرار وهو منقول عن الإمام أبي حنيفة ، ومشهور عن أصحابه ، وعن بعض المحققين من الأشاعرة .

(3) يزيد على التصديق ، والإقرار ، أمراً ثالثاً وهو العمل الإركان ، أي سائر الجوارح ، وهذا قول الخوارج ، فمسمى الإيمان عندهم تصديق القلب ، والإقرار باللسان والعمل بالجوارح ، فماهيته على هذا مركبة من ثلاثة : فمن أخل بشيء منها فهو كافر ، ولذا قالوا : مرتكب الذنب مطلقا كافر ، لإنتفاء جزء الماهية ، والذنوب عندهم كبائر كلها ، وتعليلهم بإنتفاء جزء الماهية مبني على أن لا واسطة بين الإيمان والكفر .

أما على ما مذهب إليه المعتزلة من إثبات الواسطة ، فلا يلزم عندهم من إنتفاء الإسلام ثبوت الكفر ، وإن وافقوا الخوارج في إعتبار الأعمال فإنهم يخالفونهم من وجهين :

أحدهما : أن المعتزلة يقسمون الذنوب إلى كبائر وصغائر ، وإرتكاب الكبيرة عندهم فسق والفاسق عندهم ليس بمؤمن ولا كافر ، بل منزلة بين المنزلتين .

والثاني : أن الطاعات عند الخوارج جزء كانت فرضاً أو نقلاً .

وعن المعتزلة : الطاعات شرط لصحة الإيمان .

ثم اختلفوا فقال ابو الهزيل العلاف وعبد الجبار : الشرط الطاعات قرضاً كانت أو نفلاً .

وقال الجبائي وابنه وأكثر معتزلة البصرة الشرط هو الطاعات المفترضة من الأفعال والتروك دون النوافل .

من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف في أن مستقرة الجنة : وهذه درجة .

والدرجة الثانية : أن يوجد اثنان وبعض الثالث ، وهو القول والعقد وبعض الأعمال ، ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر[1] ، فعند هذا قالت للمعتزلة :

خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل في الفكر ، بل اسمه فاسق ، وهو على منزلة بين المنزلتين[2] ، وهو مخلد في النار وهذا باطل كما سنذكره .

الدرجة الثالثة : أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح .

وقد اختلفوا في حكمه ، فقال أبو طالب المكي :[3] .

---

(١) واختلف في حد الكبيرة ، وعد الكبائر ، وأحسن ما قيل في حدها : هي كل معصية تؤذن بقلة إكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة ، أو كل ما توعد عليه بخصوصه من الكتاب أو السنة .

وأما عد الكبائر : فقد قال الشيخ أبو طالب المكي هي :

أربع من أعمال القلوب : الشرك ، والإصرار ، والقنوط ، والأمن .

وأربع في اللسان : شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين الغموس ، والسحر وثلاث في البطن : شرب الخمر والمسكر من الأشربة ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا وهو يعلمه .

وإثنان في الفرج : الزنا ، واللواط ؛

وإثنان في اليد : القتل ، والسرقة .

وواحدة في الرجل : فرار الواحد من الإثنين يوم الزحف .

وواحدة في الجسد : وهي « عقوق الوالدين » اهـ .

(٢) ليس بمؤمن ولا كافر .

(٣) وأبو طالب المكي هو محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ، رحمه الله تعالى ، ذكر ذلك في كتابه قوت القلوب في الباب الثالث والثلاثين منه .

العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتم دونه[1] وادعى الإجماع فيه[2] ، واستدل بأدلة تشعر بنقيض غرضه ، كقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ ﴾[3] إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لا من نفس الإيمان ، وإلا فيكون العمل في حكم المعاد[4] ، والعجب انه ادعى الإجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله ﷺ .

---

(١) وهذا يفهم من سياقه في عدة مواضع منها :

قوله : وان الإيمان والعمل قرينان لا يصح أحدهما إلا بالآخر كما لا يصحان ولا يوجدان معاً إلا بنفي ضدهما وهو الكفر .

وقال في موضع آخر : وقد اشترط الله عز وجل للإيمان العمل الصالح ، ونفي النفع بالإيمان إلا بالعمل ، ووجوده .

وقال في موضع آخر : شرط الإيمان العمل والتقوى كما أن شرط الأعمال الصالحة الإيمان .

وقال أيضا في تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فصارت الأعمال متعلقة بالإيمان وهما الدين المكمل وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِم ﴾ أراد سبحانه أن قول هؤلاء قول المؤمنين وأن قولهم من أعمالهم ، لأنهم متفردون بالقول دون العمل .

ثم قال بعد ذلك : فإما أن يكون دليلا أن القول حسب هو الإيمان كله ، وأن الإيمان يكون قولا لا يحتاج الى عمل فهذا باطل .

(٢) وذلك في قوله بعد أن أورد أثراً عن علي رضي الله عنه الإيمان قول باللسان ، وعقد بالقلب وعمل بالأركان ، فادخل أعمال الجوارح في عقود الإيمان ، وأيضاً فإن الامة مجمعة أن العبد لو آمن بجميع ما ذكر في عقود القلب في حديث جبريل عليه السلام ، ثم لم يعمل بما ذكرناه من وصف الإسلام بأعمال الجوارح أنه لا يسمى مؤمنا ، وانه إن عمل بجميع ما وصف به الإسلام ولا يعتقد ما وصف الإيمان أنه لا يكون مسلمًا ، وقد أخبر نبي الله صلوات الله وسلامه عليه أن أمته لا تجتمع على ضلالة ، فهذه العبارة تشعر بدعو الإجماع .

(٣) الآية (٩) من سورة يونس (١٢) .

(٤) أي المكرر ، وهذا نقيض مطلوبه الذي هو إثبات كون العمل من الإيمان وأنه لا يتم بدونه .

لا يكفر إلا بعد جحوده لما أقربه[1] وينكر على المعتزلة قولهم بالتخليد في النار بسبب الكبائر[2] . والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة إذ يقال له :

من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال فهل هو في الجنة ؟

فلا بد أن يقول نعم[3] . وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل ، فنزيد ونقول : لو بقي حياً حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات ، أو زنى ثم مات ، فهل يخلد في النار[4] ؟

فإن قال : نعم فهو مراد المعتزلة ، وإن قال : لا[5] فهو تصريح بأن العمل ليس ركنا من نفس الإيمان ولا شرطاً في وجوده ولا في استحقاق الجنة به[6] .

وإن قال : أردت أن يعيش مدة طويلة ولا يصلي ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية ، فنقول : فما ضبط تلك المدة ؟ وما عدد تلك الطاعات التي بتركها

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابي سعيد بلفظ :

« لن يخرج أحد من الإيمان إلا بجحوده ما دخل فيه » وإسناده ضعيف .

(٢) ونصه وجميع ما شرحناه وذكرناه عن السلف الصالح يبطل قول المرجئة والكرامية والأباضية ، ويدحض دعواهم في أن الإيمان قول أو معرفة أو عقد بلا عمل ، وهو رد على القائلين بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو رد على الحشويه والحزمية ، والقطعية والحرورية أصناف من الخوارج يقولون من أتى كبيرة خرج من الإيمان، وأن أهل الكبائر كفار يحل قتلهم .

(٣) نعم هو في الجنة إذ وجد عنده مسمى الإيمان .

(٤) الأولى لترك العمل ، والثانية لارتكاب الكبيرة .

(٥) وإن قال لا يخلد فيها كما هو مذهب أهل السنة .

(٦) ليس ركنا من نفس الإيمان، أي في ماهيته بحيث ينتفي بإنتفائه ، ولا شرطاً في وجود الإيمان كما قاله بعض المبتدعة ، ولا في استحقاق الجنة به كما قاله المرجئة .

يبطل الإيمان ؟ وما عدد الكبائر التي بارتكابها يبطل الإيمان ؟ وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه صائر أصلاً[١] .

الدرجة الرابعة : أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان ،أو يشتغل بالأعمال ومات[٢] ، فهو نقول : مات مؤمناً بينه وبين الله تعالى[٣] ؟ وهذا مما اختلف فيه .

ومن شرط القول لتمام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهو فاسد[٤]، إذ قال ﷺ :

« يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان »[٥] :

وهذا قلبه طافح الإيمان ، فكيف يخلد في النار ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام[٥] للإيمان الا بالتصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم والاخر ، كما سبق[٦] .

الدرجة الخامسة : ان يصدق بالقلب[٧] ويساعده من العمر مهلة النطق

---

(١) أي لم يذهب إليه ذاهب مطلقا .

(٢) وفي نسخة أخرى : فقبل أن ينطق باللسان ، أو يشتغل بالأعمال مات .

(٣) بناء على أن التصديق القلبي كاف في مفهوم الإيمان .

(٤) وهذا القول فاسد لا يلتفت إليه .

(٥) تقدم الكلام على هذا الحديث .

(٦) الذي تقدم ذكره ، والذي فيه السؤال عن الإيمان ، والإسلام ، والإحسان .

(٧) وبالبعث والحساب ، وبالقدر خيره وشره ، حلوه ومره .

(٨) أن يصدق بالقلب بجميع ما جاء به النبي ﷺ

بكلمتي الشهادة[١] ، وعلم وجوبها ولكنه لم ينطق بها ،فيحتمل أن يجعل إمتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة[٢] ونقول :

هو مؤمن غير مخلد في النار ، والإيمان هو التصديق المحض[٣] ، واللسان ترجمان الإيمان فلا بد ان يكون الإيمان موجوداً بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان ، وهذا هو الأظهر ، إذ لا مستند إلا إتباع موجب الألفاظ ، ووضع اللسان[٤] إن الإيمان هو عبارة عن التصديق بالقلب[٥] . وقد قال ﷺ .

« يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة »[٦] .

ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب[٧] ، كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب وقال قائلون :

القول ركن[٨] إذ ليس كلمتا الشهادة اخباراً عن القلب بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة وإلتزام ، والأول أظهر[٩] ، وقد غلا في هذا طائفة المرجئة فقالوا :

---

(١) هما لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

(٢) بعد حلول وقتها وعلمه بوجوبها .

(٣) الخالص بما جاء به النبي ﷺ

(٤) العربي ، أي الذي يوجبه أصل الوضع العربي

(٥) لأن محل التصديق القلب ولم يقيده أهل اللسان إلا أنه معلوم لهم ذلك .

(٦) تقدم الكلام عليه .

(٧) بعد علمه بوجوبه كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب وهو العمل ، وبين السكوت ، والسكوت جناس .

(٨) أي النطق باللسان بالشهادتين ركن من أركان الإيمان .

(٩) أي كونه إخباراً عن القلب باعتبار أن اللسان ترجمانه ، وممن ذهب إلى هذا القول الكراميه ومن وافقهم جعلوا القول ركنا في مفهوم الإيمان فلا يثبت الإيمان إلا به .

هذا لا يدخل النار أصلاً[1] .

وقالوا : إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار ، وسنبطل ذلك عليهم .

الدرجة السادسة : أن يقول بلسانه : لا اله الا الله محمد رسول الله ولكن لم يصدق بقلبه[2] ، فلا نشك في أن هذا في حكم الآخرة من الكفار ، وإنه مخلد في النار[3] .

ولا نشك في انه في حكم الدنيا الذي يتعلق بالائمة والولاة، من المسلمين[4] ، لأن قلبه لا يطلع عليه[5] وعلينا أن نظن به أنه ما قاله[6] بلسانه إلا وهو منطو عليه في قلبه ، وإنما نشك في أمر ثالث وهو الحكم الدنيوي فيما بينه وبين الله تعالى ، وذلك بأن يموت له في الحال مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتي ويقول :

كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت[7] والميراث الآن في يدي فهل يحل لي بيني وبين الله تعالى ؟ أو نكح مسلمة ثم صدق بقلبه هل تلزمه إعادة النكاح ؟ ، هذا محل نظر ، فيحتمل أن يقال .

---

(١) غلا فيمن صدق بالقلب وامتنع عن النطق مع علمه بوجوبه ومساعدة الوقت طائفة المرجئة وهي من طوائف المبتدعة الذين من فضائحهم قولهم إنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، لما تقدم من زعمهم أن المعصية لا تضر مع الإيمان وهنا قد وجد الإيمان غير أنه عصى بإمتناعه عن النطق .

(٢) أي لم يستقر ذلك التصديق بقلبه

(٣) لأنه قد عدم المسمى الإيمان الذي هو التصديق .

(٤) لأنه ليس لهم إلا الظواهر والتصديق محله القلب .

(٥) لأنه أمر غيب عنا وما كلفنا بإطلاعه ، وإنما الحكم عليه بالإمارات.

(٦) يعني القول المذكور من اداء الشهادتين .

(٧) أي موت ذلك القريب الذي ورثته وإنما كنت مسلمًا باللسان فقط.

أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر[1] ظاهراً وباطناً[2] ، ويحتمل أن يقال : تناط بالظاهر في حق غيره ، لأن باطنه غير ظاهر لغيره ، وباطنه ظاهر له في نفسه بينه وبين الله تعالى .

والأظهر والعلم عند الله تعالى[3] ، إنه لا يحل له ذلك الميراث[4]، ويلزمه إعادة النكاح . ولذلك كان حذيفة[5] رضي الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين ، وعمر رضي الله عنه كان يراعي ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضي الله عنه ، والصلاة فعل ظاهر في الدنيا وإن كان من العبادات . والتوقي عن الحرام أيضاً من جملة ما يجب لله ، كالصلاة[6] ، لقوله ﷺ :

«طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»[7]، وليس هذا مناقضاً لقولنا إن الإرث

---

(١) الذي هو النطق بالشهادتين ، وعليه يترتب الحكم .

(٢) فعلى هذاله أخذ الميراث ، وإبقاء المسلمة على النكاح الأول بالنظر إلى الدنيا، وبالنظر إلى الآخر.

(٣) أتى بهذه الجملة تبركا وتبريا من علمه إلى علم الله تعالى ، أي علمه محيط بكل شيء وهذا نظير ما يقول المفتي في آخر جوابه والله أعلم ، فيكل علمه إلى علم الله تعالى ، ويتبرأ من أن يقول في دين الله ما ليس مطابقاً لما هو في نفس الأمر.

(٤) لأنه لم يأخذه بحق القرابة في الحقيقة ، ولا توارث مع إختلاف الملل .

(٥) حذيفة بن اليمان العبسي حليف بني عبد الأشهل، رضي الله عنه ، من خيار الصحابة ، وزهادهم ولاه عمر المدائن ، وله فتوحات ، مات سنة ست وثلاثين بعد مقتل عثمان بأربعين يوماً .

(٦) أي حكمه كحكمها ، فإن قيل الإسلام هو الإنقياد الظاهر كما سبق ، والرجل المذكور قد ثبت له ذلك ، فيجوز الميراث نظرا إلى الظاهر وليس هو من أحكام الإيمان فيكون مناقضاً لقول الفقهاء الإرث حكم الإسلام والجواب ما أشار إليه المصنف بقوله : وليس هذا مناقضاً . . الخ .

(٧) أخرجه البيهقي عن ابن مسعود وضعفه ، وأخرجه الطبراني عن أنس بلفظ : « طلب الحلال واجب على كل مسلم » .

حكم الإسلام وهو الإستسلام، بل الإستسلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن[1] وهذه مباحث فقهية ظنية تبنى على ظواهر الألفاظ والعمومات والأقسية[2]، فلا ينبغي أن يظن القاصر في العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإيراده في فن الكلام الذي يطلب فيه القطع[3]، فما أفلح من نظر إلى العادات والمراسم في العلوم[4].

فإن قلت: فما شبهة المعتزلة والمرجئة؟[5] وما حجة بطلان قولهم؟ فأقول شبهتهم عمومات القرآن أما المرجئة فقالوا:

لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصي[6]، لقوله عز وجل :

---

(١) فهذه الملاحظة إذا خالف الباطن الظاهر وعمل بهذه المخالفة تشبثاً بالظاهر يكون مؤاخذاً عند الله تعالى .

(٢) وهذه المباحث ليس في كلها ما يجب القطع به لأنها تبنى على ظواهر الألفاظ ، وما توجبه بحسب الوضع اللغوي ، وعلى العمومات الواردة في الصيغ من الإشتراك في الصفات ، وعلى الاقيسة بأنواعها والقياس عند أهل الأصول الحاق معلوم بمعلوم في حكمه لمساواة الأول للثاني في علة حكمه .

(٣) لان الكلام فيه عن مسائل المتقادية وهي لا تثبت الا بالدلائل القطعية .

(٤) وهنا مسائل مهمة ينبغي التنبيه عليها .

منها اتفق القائلون بعدم إعتبار الإقرار على أنه يلزم المصدق أن يعتقد أنه متى طولب به أتى به فإن طولب به ولم يقر فهو كفر عناد ، وبهذا فسروا نزل العناد وقالوا هو شرط .

ومنها على القول بأن مسمى الإيمان التصديق بالقلب كما هو قول الأشعري والماتريدي ، أو بالقلب واللسان ، كما هو مذهب الحنفية ، فقد ضم إليه في تحقيق الإيمان أمور الإخلال بها إخلال بالإيمان اتفاقاً كترك كل من سجود الضم ، وقتل نبي ، أو استخفاف به ، وبالمصحف والكعبة ، وكذا مخالفة كل ما أجمع عليه من أمور الدين وإنكاره بعد العلم فإنه مجمع عليه .

(٥) والفرقتان من فحول المتكلمين ، وما لم يعرف أصل ما تعلقوا به من الكتاب والسنة لم يعرف وجه الرد عليهم ، وتمييز الباطل من الحق .

(٦) بناء على أن المعصية لا تضر الإيمان كما أن الكفر لا تنفع معه طاعة وجعلوه أصلاً من أصولهم ، ثم بنوا عليه قواعدهم .

﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً ﴾[1] ولقوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾[2].

ولقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾[3].

فقوله: «كلما أُلقي فيها فوج، عام، فينبغي أن يكون من أُلقي في النار مكذباً.

ولقوله تعالى: ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَى ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[4]:

وهذا حصر[5] وإثبات ونفي.

ولقوله تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾[6] فالإيمان رأس الحسنات.

---

(١) الآية (١٣) من سورة الجن (٧٢).

(٢) الآية (١٩) من سورة الحديد (٥٧).

(٣) الآية (٨ - ٩) من سورة الملك (٦٧)، وتمامها: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾.

قال القاضي: وفي قوله: ألم يأتكم نذير» توبيخ وتبكيت، وقوله: فكذبنا، أي كذبنا الرسل وأفرطنا في التكذيب حتى منعنا النبوة والإرسال رأسا وبالغنا في نسبتهم إلى الضلال.

(٤) الآية: ١٥ - ١٦ من سورة الليل.

والمراد: لا يجد حرها، أو لا يلزمها مقاسيا شدتها إلا الأشقى الكافر فإن الفاسق وإن دخلها لم يلزمها، ولذلك كان أشقى.

(٥) أي الذي كذب الرسل بما جاء وابه من عند الله تعالى وأعرض عنهم هو الذي يصلاها لا غير.

(٦) الآية: ٨٩ من سورة النمل.

والمراد: أنهم آمنون من خوف يوم القيامة.

ولقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[٢] .

ولا حجة لهم في ذلك ، فإنه حيث ذكر الإيمان في هذه الآيات[٣] أريد به الإيمان مع العمل[٤] ، إذ بينا ان الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام ، وهو الموافقة بالقلب ، والقول والعمل ، ودليل هذا التأويل[٥] أخبار كثيرة في معاقبة العاصين ومقادير العقاب[٦] ؛ وقوله ﷺ :

« يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » .

فكيف يخرج إذا لم يدخل[٧] .

ومن القرآن ، قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[٨] .

---

(١) الآية (١٣٤) من سورة آل عمران (٣) ونصها :
﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّاءِ ، وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

(٢) الآية (٣٠) من سورة الكهف (١٨) .
فهذه جملة من الآيات القرآنية الكريمة تمسك بعموماتها المرجئة .

(٣) وهي الآية الأولى والتي بعدها جاء فيهما ذكر الإيمان تصريحاً ، وأما في الأخيرة واللتان قبلها فتلويحا .

(٤) بالأركان وهو شرط كما له .

(٥) الذي صرنا إليه من أن المراد بإيمان هو الإسلام الباطن .

(٦) مما يتلى في كتب أهل السنة متوناً وشروحاً .

(٧) فكيف يتصور الخروج من شيء إلا بعد الدخول فيه ، أو الإخراج إلا بعد الإدخال على إختلاف الروايتين .

(٨) الآية (١١٦) من سورة النساء (٤) ، والمعنى المراد : إن الله لا يغفر لمن يكفر به ولو بتكذيب نبيه ، لأن =

والإستثناء بالمشيئة يدل على الإنقسام(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾(٢) . وتخصيصه بالكفر تحكم .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ فِي عذابٍ مُقِيمٍ ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾(٤) .

فهذه العمومات في معارضة عموماتهم ، ولا بد من تسليط التخصيص(٥) والتأويل على الجانبين ، لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يعذبون(٦) ، بل قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾(٧) كالصريح في أن ذلك لا بد منه للكل ، إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه(٨) .

= من جحد نبوة الرسول ﷺ مثلاً فهو كافر ، ولو لم يجعل مع الله إلها آخر ، والمغفرة منتفية عنه بلا خلاف . ويغفر ما دون الشرك تحت إمكان المغفرة ، فمن مات على التوحيد غير مخلد في النار وان ارتكب من الكبائر غير الشرط ما عساه أن يرتكب .

(١) الإنقسام الى كبيرة وصغيرة ، ففيه تجويز العقاب على الصغيرة ، سواء اجتنب مرتكبها الكبيرة أم لا لقوله تعالى : ﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ والإحصاء إنما يكون للسؤال والجزاء .

(٢) الآية (٢٣) من سورة الجن (٧٢) .

(٣) الآية (٤٥) من سورة الشورى (٤٢) .

(٤) الآية (٩٠) من سورة النمل (٢٧) .

(٥) في تلك العمومات فإنه ما من عام إلا وقد خص .

(٦) وذلك على قدر ذنوبهم ، ومن هذه الأخبار ما أخرجه البخاري في صحيحه في حديث أنس رفعه : ليصيبن أقواما سفع بذنوب أصابوها ؛

(٧) الآية :(٧١) من سورة مريم (١٩) .

(٨) فعليه فإن المراد من قوله : وإن منكم إلا واردها : أن ورود الصراط هو ورود النار لكل أحد وبهذا فسر الآية ابن مسعود ، والحسن وقتادة ، ثم قال بعدها :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا الأَشْقَى ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾[1] أراد به من جماعة مخصوصين ، أو أراد بالأشقى شخصاً معيناً[2] أيضاً .

وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾[3] أي فوج من الكفار وتخصيص العمومات قريب .

ومن هذه الآية وقع للأشعري وطائفة من المتكلمين إنكار صيغ العموم ، وإن هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور قرينة تدل على معناها[4] .

وأما المعتزلة[5] فشبهتهم قوله تعالى :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَى ﴾[6] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ ﴾[7] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْكُم إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا ﴾[8] .

---

(١) آية (١٥ - ١٦) سورة الليل (٩٢) .

(٢) وهو أمية بن خلف كما يفهم من سياق البغوي .

(٣) آية (٨) سورة الملك (٦٧) .

(٤) قال صاحب المصباح .

اللفظ العام خلا من الخاص ، وهو لفظ واحد دل على اثنين فصاعداً من جهة واحدة مطلقاً، ومعنى العموم إذا إقتضاه اللفظ ترك التفصيل إلى الإجمال، ويختلف العموم بحسب المقامات وما يضاف إليها من قرائن الأحوال .

قال القطب الشيرازي : فما أمكن إستيعابه يستعمل فيه متى ، وما لم يمكن إستيعابه يزاد ما عليه ، فيقال : متى ما لأن بزيادتها تؤدي بتغيير المعنى وانتقاله من المعنى الأعم إلى معنى عام كما ينقل المعنى ويغيره إذا دخلت على أن وأخواتها .

(٥) التي وقعوا فيها في تأسيس أصلهم الذي عليه بنوا مذاهبهم وتمسكوا بآي من القرآن .

(٦) الآية (٨٢) من سورة طه (٢٠) .

(٧) الآية (١ - ٣) من سورة العصر (١٠٣) .

(٨) آية (٧١) سورة مريم (١٩) .

ثم قال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾[1]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾[2]

وكل آية ذكر الله عز وجل العمل الصالح فيها مقروناً بالإيمان[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدَاً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾[4] .

وهذه العمومات أيضاً مخصوصة ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

فينبغي أن تبقى له مشيئة في مغفرة ما سوى الشرك[5] ، وكذلك قوله عليه السلام :

« يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان »[6] .

---

(١) الآية (٧٢) من سورة مريم (١٩) .

(٢) الآية (٢٣) من سورة الجن (٧٢) .

(٣) فإنها متمسكهم في جعلهم الأعمال شرطاً في صحة الايمان ، كما أن قوله ومن يعص الله ، وقوله : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً. . . ﴾ الآية متمسكهم في تخليد صاحب الكبيرة في النار.

(٤) الآية (٩٣) من سورة النساء (٤) .

(٥) قال ملاعلي في شرح الفقه الأكبر : ذهب بعض المعتزلة إلى أنه إذا اجتنب الكبائر لم يجز تعذيبه لا بمعنى يمتنع عقلاً، بل بمعنى انه لا يجوز أن يقع لقيام الأدلة السمعية على أنه لا يقع كقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّر عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾.
وأجيب بأن الكبيرة المطلقة هي الكفر ، لأنه الكامل ، وجمع الإسم بالنظر إلى أنواع الكفر، وإن كان الكل ملة واحدة في الحكم أو إلى أفراده القائمة من قاعدة أن مقابلة الجمع بالجمع تقتضي إنقسام الآحاد بالآحاد .

(٦) سبق تخريجه والكلام عليه ، فهذا يدل على أن المؤمن الموحد لا يخلد في النار .

وقوله تعالى : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] فكيف يضيع أجر أصل الإيمان وجميع الطاعات بمعصية واحدة .

وقوله تعالى :﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً ﴾[3] أي لإيمانه وقد ورد على مثل هذا السبب[4] .

فإن قلت : فقد مال الإختيار إلى أن الإيمان حاصل دون العمل[5] ، وقد إشتهر عن السلف قولهم : الإيمان عقد وقول وعمل فما معناه[6] ؟

قلنا : لا يبعد أن يعد العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم ، كما يقال

---

(١) فإذا كان الإيمان عملاً بالوجه الذي قررناه .

(٢) الآية (١٢٠) من سورة التوبة (٩) . .

(٣) آية (٩٣) سورة النساء (٤) .

(٤) فلم يبق لهم تعلق بظواهر الآي ، وكشف لك وجه التأويل فيها وحملها على مقتضى ما ذهب إليه أهل السنة .

(٥) حيث جعلت مفهومه التصديق بالقلب أو به وباللسان .

(٦) بينوا لنا أما تحقيق معتقد السلف في الإيمان فقد ذكر عبد القاهر البغدادي : أن الذين قالوا إن الإيمان بالقلب واللسان وسائر الأركان فهم خمس فرق :

إحداهما أصحاب الحديث ، والثانية : الزيديه ، والثالثة : الأمامية ، والرابعة المعتزلة ، والخامسة : الخوارج .

فأما أصحاب الحديث قد إختلفت عباراتهم في حقيقة الإيمان وحده ، ثم سرد عباراتهم وأقوالهم ، إلى أن قال :

ومنهم من قسم الإيمان على أنواع فأعلى الإيمان : معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان يزيد بالطاعة ، وينقص بالعصيان .

هذا قول عامة أصحاب الحديث وفقهائهم مثل مالك والشافعي والأوزاعي وأهل المدينة وأهل الظاهر وأحمد وإسحاق وسائر أئمة الحديث ، وبه قال من متكليمهم : الحارث بن أسد المحاسبي وأبو العباس القلانسي وأبو علي الثقفي وأبو الحسن الكبير الطبري .

الرأس ، واليدان من الإنسان [١] ، ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنساناً بعدم الرأس [٢] ، ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد [٣] .

وكذلك يقال للتسبيحات والتكبيرات من [٤] الصلاة ، وإن كانت لا تبطل بفقدها .

فالتصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان [٥] ، إذ ينعدم بعدمه وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض ، وقد قال ﷺ .

« لا يزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن »[٦] . .

والصحابة رضي الله عنهم ما أعتقدوا مذهب المعتزلة في الخروج عن الإيمان بالزنا [٧] ، ولكن معناه غير مؤمن حقاً إيماناً تاماً كاملاً ، كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف . هذا ليس بإنسان اي ليس له الكمال الذي هو وراء حقيقة الإنسانية [٨] .

---

(١) أي من جملة أجزاء الإنسان .

(٢) لأنه إذا ذهب الرأس ذهب الإنسان .

(٣) أو اليدين أو من أصل خلقته .

(٤) التسبيحات التي يؤتى بها في الركوع والسجود ، والتكبيرات التي يؤتى بها عند الإفتتاح وعند كل رفع وخفض .

(٥) أشار بذلك إلى أنه جزء من مفهومه .

(٦) الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وفيه زيادة عندهما وهي : ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن .
وهكذا رواه أحمد والترمذي وإبن ماجه .

(٧) وشرب الخمر والسرقة والإنتهاب والفل وإن وجد في بعض رواياته لفظ الخروج والنزع فهو على المبالغة والتشديد .

(٨) ومعناه : كامل الإيمان ومؤمن حقاً ، لأن حقيقة الإيمان كمال الخوف والورع إذ الأمة مجمعة أن =

مسألة :

فإن قلت . فقد إتفق السلف على أن الإيمان يـزيد وينقص ، يـزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، فإذا كان [1] التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان [3]

فأقول . السلف هم الشهود العدول [2] وما لأحد عن قولهم عدول [4] ، فما ذكروه حق ، وإنما الشأن في فهمه ، وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان [5] ، وأركان وجوده ، بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود ، والناقص موجود ، والشيء لا يزيد بذاته ، فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه ، بل يقال : يزيد بلحيته وسمته ، ولا يجوز أن يقال : الصلاة تزيد

= أهل الكبائر ليسوا بكافرين ، وإذا فسق بالزنا وشرب الخمر خرج من حقيقة الإيمان وهو الخوف والورع ، ولم يخرج من اسمه وهو التصديق والتزام الشريعة ، وفيه معنى لطيف كأنه يرتفع عنه إيمان الحياء لأن النبي ﷺ قال : « **الحياء من الإيمان ، والمستحي لا يكشف عورته على حرام ، ويبقى إيمان الإسلام والتوحيد وإيجاب الأحكام** » .

(١) وفي نسخة أخرى : فإن كان التصديق . . . الخ
والإيمان هو التصديق ولا يتزايد في نفسه .

(٢) أي لا يزيد بإنضمام الطاعات إليه ، ولا ينقص بإرتكاب المعاصي ، إذ التصديق في الحالين على ما قبلهما ؛ وهذا مخالف لما ذهب إليه السلف فكيف التطبيق بين القولين ؛

(٣) لأخبار وردت في ذلك منها : خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، وقد أثنى عليهم الله سبحانه في مواضع من كتابه العزيز ، منها قوله : « **رضي الله عنهم ورضوا عنه** » ومنها : وأتبعوهم بإحسان . .

(٤) عن قولهم الذين قالوه ورأيهم الذي رأوه ، عدول أصلاً .

(٥) التي تتركب منها ماهيته ، وأركان وجوده بحيث لا يوجد ولا يتحقق إلا به كما هو شأن الركنية .

بالركوع والسجود[١] ، بل تزيد بالآداب والسنن [٢] ، فهذا تصريح بإن الإيمان له وجود ، ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان [٣] .

فإن قلت . فالأشكال قائم في أن التصديق كيف يزيـد وينقص وهو خصلة واحدة [٤] ؟

فأقول : إذا تركنا المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغب [٥] وكشفنا الغطاء إرتفع الإشكال .

فنقول : الإيمان إسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه .

الأول ـ أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الإعتقاد والتقليد من غير كشف وإنشراح صدر ، وهو إيمان العوام [٦]: . بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص [٧] .

---

(١) فإنها من صلب الصلاة ، كما يعرف من حدها الشرعي ذات ركوع وسجود .

(٢) الواردة في السنة ، وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها وزوائد هي متمماتها لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها ، كذلك السنن والنوافل لتكميلات آثار أركان العبادات .

(٣) ويفهم منه أن الزيادة والنقصان بإعتبار جهات هي غير نفس الذات والحنفية لا يمنعون ذلك .

(٤) والخصلة بالضم الحالة والخصلة يشير إلى أنه بسيط وبساطته تقتضي عدم قبوله الزيادة والنقص .

(٥) وأصل الشغب : تهييج الشر ، يقال : شغب القوم ، وعليهم وبهم شغباً من باب نفع .

(٦) جمع عامة وهم ضد الخواص ، ولما كان ربما يظن من ذكر العوام : أن المراد بهم السوقة خاصة فاضرب على ذلك .

(٧) الخلق كلهم : فدخل فيهم المشتغلون بالعلوم الظاهرة ، ممن لم يكشف لهم من أسرار الحق شيء ، فهم كذلك بمنزلة العوام وإيمانهم كإيمانهم بل ربما أن بعض السوقة إذا ألقى إليه شيء من خواص الإيمان يتلقاه بالإقبال عليه، وهؤلاء بمعزل عنه لما نشأ في طباعهم من تحصيل علومهم العجب والحسد والكبر ، وسائر المذام فلا يستقر في قلبه ما يلقي إليه حسبما ألفه من طبعه من مناقضة ، ومنع ورد وأبطال .

وهذا الإعتقاد عقدة (١) على القلب ، تارة تشتد وتقوى ، وتارة تضعف وتسترخي (١) ، كالعقدة على الخيط مثلا ، ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودي وصلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ، ولا بتخييل ووعظ ، ولا بتحقيق (٢) وبرهان .

وكذلك النصراني والمبتدعة (٣) وفيهم من يمكن تشكيكه بادنى كلام ، ويمكن استنزاله عن إعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف ، مع أنه غير شاك في عقده (٤) كالأول ولكنهما متفاوتان في شدة التصميم (٥) وهذا موجود في الإعتقاد الحق أيضاً والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته ، كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار ولذلك قال تعالى :

﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ (٦)

وقال تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُواْ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (٧)

▪ هذا بالنسبة للخلق كلهم ، أما الخواص من الناس المستثنون من هؤلاء وهم الذين أفاض الله على قلوبهم بأنوار المعارف وحلاهم بحلية الوقار والسكينة ، وأنعم عليهم بأنواع اللطائف .

(١) ثم ضرب له مثلاً في الشاهد فقال : كالعقدة على الخيط ، فإنه مشاهد فيه ذلك .

(٢) على تلك المسائل التي تلقى عليه .

(٣) من المعتزلة والخوارج والرافضة ، وهذا مشاهد لمن حادثهم في العقائد الدينية .

(٤) أي فيما عقده بقلبه .

(٥) وفي نسخة أخرى : في شدة التصميم وزيادته . . الخ
والتصميم في الأمر المضي فيه .

(٦) الآية (١٢٤) من سورة التوبة (٩) .

(٧) الآية (٤) من سورة الفتح (٤٨) .
وفي سورة المدثر : ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِيمَاناً ﴾ .

وقال ﷺ : فيما يروى في بعض الأخبار :

« **الإيمان يزيد وينقص** »[١] ، وذلك بتأثير الطاعات في القلب[٢] ، وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال[٣] حتى يزيد عقده إستعصاء على من يريد حله بالتشكيك ، بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب إعتقاده فمسح رأسه[٤] وتلطف به أدرك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل . وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملاً مقبلاً أو ساجداً لغيره ، أحس من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة . وهكذا جميع صفات القلب[٥] تصدر منها أعمال الجوارح ، ثم يعود دائر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها[٦] وسيأتي هذا في ربع المنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر ، والأعمال بالعقائد والقلوب ، فإن ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت ، وأعني بالملك

▪ وفي سورة آل عمران : ﴿ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم إيمَاناً ﴾

وفي سورة الأحزاب : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إلاَّ إيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾

(١) أخرجه إبن عدى في الكامل ، وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة وإبن عباس وأبي الدرداء .

(٢) ونقصه بعدم تأثيرها فيه بل بتأثير إصدارها وهي المعاصى .

(٣) وفي نسخة أخرى : إلى عقائد الإيمان في هذه الأوقات . . . الخ .

والمراد بهذا : فتتضح له حقائق الأحوال ، وتنحل عنه عقد الأشكال .

(٤) فمسح رأسه من ورائه إلى قدام كما ورد به الحديث .

(٥) صفات القلب الحميدة والذميمة .

(٦) وينميها كما تنمو الشجرة والزرع بسقي الماء .

عالم الشهادة [1] المدرك بالحواس وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة ، والقلب من عالم الملكوت [2] ، والأعضاء وأعمالها من عالم الملك ولطف الإرتباط ودقته بين [3] العالمين إنتهى إلى حد ظن بعض الناس [4] إتحاد أحدهما بالآخر ، وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة ، وهو هذه الأجسام المحسوسة [5] ، ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما [6] ثم إرتباطهما عبر عنه فقال .

رق الزجاج وراقت الخمر — وتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح — وكأنما قدح ولا خمر [7]

---

(١) عالم الشهادة من المحسوسات الطبيعية .

(٢) لأنه مما يدرك بنور البصيرة .

(٣) وفي نسخة أخرى (من عالم الملك ، وللطف الإرتباط ورقته بين العالمين) . . الخ

(٤) إلى حد ظن بعض الناس الذين يدعون المعرفة .

(٥) ولم يتعدوا عن طور جهلهم لعدم نور البصيرة .

(٦) ومن أدرك الأمرين وفي ذلك ، أدرك تعددهما ، وأنه كل منهما عالم مستقل بذاته ، ثم أدرك إرتباطهما مع البعض .

(٧) وقال المصنف في القسم الرابع من أواخر كتابه المقصد الأسني وهو خاتمة الكتاب إستطرد فيها ذكر بعض كلمات الصوفية ، وما يرد عليها .

ويجاب عنها فقال : ومنها الإتحاد ، ثم ذكر كلاماً طويلاً في آخره ، وهذه مزلة قدم ، فإن من ليس له قدم ، راسخ المعقولات ربما يتميز له أحدهما عن الآخر ، فينظر إلى كمال ذاته ، وقد تزين بما تلألأ فيه من حلية الحق ، فينتظر أنه هو فيقول أنا الحق وهو غالط غلط النصارى حيث رأوا ذلك في ذات عيسى عليه السلام فقالوا هو الإلـه،بل غلط من ينظر في مرآة انطبعت فيها صورة متلونة ، فيظن أن تلك الصورة صورة المرآة ، وأن ذلك اللون لون المرآة ، وهيهات ، بل المرآة في ذاتها لا لون لها وشأنها قبول صور الألوان على وجه يتخايل إلى الناظرين إلى ظاهر الأمور أن ذلك هو صورة المرآة حقاً ، حتى أن الصبي إذا رأى إنساناً في المرآة ظن أن الإنسان في المرآة فكذلك القلب خال عن الصور في نفسه ، وعن الهيآت ،وإنما هيآته قبول معاني الهيآت والصور والحقائق فما يحله

ولنرجع إلى المقصود ، فإن هذا العالم خارج عن علم المعاملة ، ولكن بين العالمين أيضاً إتصال وإرتباط فلذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن تنكشف عنها بالتكليف فهذا وجه زيادة الإيمان بالطاعة بموجب هذا الإطلاق ، ولهذا قال علي كرم الله وجهه ، إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء ، فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله ، وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا إنتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله ، فيطبع عليه فذلك هو الختم ، وتلا قوله تعالى : ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم** ﴾ [1] .

الإطلاق الثاني :

أن يراد به التصديق والعمل جميعاً [2] كما قال ﷺ : « **الإيمان بضع وسبعون باباً** »[3] وكما قال ﷺ .

يكون كالمتحد به ، إلا أنه تحقيقاً ، ومن لا يعرف الزجاج والخمر إذا رأى زجاجة فيها خمر لم يدرك تباينهما ، فتارة لا خمر وتارة يقول لا زجاجة كما عبر عنه الشاعر حيث قال : وساق البيتين المذكورين .

(١) الآية (١٤) من سورة المطففين (٨٣) .

قال السيوطي في الجامع الكبير : هكذا أخرجه إبن المبارك في الزهد ، وإبن أبي شيبة في المصنف ، وأبو عبيد في الغريب ، والبيهقي واللالكائي في السنة ، والأصبهاني في الحجة وفي كتاب الحلية في ترجمة حذيفة : بمعنى ما ورد عن علي رضي الله عنهما .

(٢) فالأول : مفهوم الإيمان ، والثاني مفهوم الإسلام ، وهذا التغاير في المفهومين لا يورث إنفكاك أحدهما عن الآخر في الحكم فهما متحدان في إعتبار الصدق ، وهل إطلاق الإيمان على العمل يكون حقيقة أو مجاز ، فمن نظر إلى الأعمال تكون من الإيمان جعله مجازاً ، وأما على القول بأنه مركب من التصديق والعمل فيكون حقيقة .

(٣) أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه : وهو مسلم : « الإيمان بضع وسبعون شعبة : أفضلها قول لا إلـه إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »

« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »[1] وإذا دخل العمل في مقتضى الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه ، وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذي هو مجرد التصديق ؟ هذا فيه نظر[2] ، وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه .

الإطلاق الثالث :

أن يراد به التصديق اليقيني[3] على سبيل الكشف وإنشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة .

وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة[4] ولكني أقول . الأمر اليقيني الذي لا شك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه فليس طمأنينة النفس إلى أن الإثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث وأن كان لا شك في واحد منهما[5] فإن اليقينيات تختلف في درجات الإيضاح ، ودرجات طمأنينة النفس إليها .

وقد عرضنا لهذه في فضل اليقين من كتاب العلم في باب علماء الآخرة ، فلا حاجة إلى الإعادة[6] . وقد ظهر في جميع الإطلاقات أن ما قالوه من زيادة

---

(١) أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحيهما ، وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) لأن هذا المفهوم لا يتغير بضم الطاعات والمعاصي إليه .

(٣) يعني بذلك اليقين الذي هو مضمون التصديق ، وهو أخص من التصديق لكونه على طريق الكشف برفع الساتر وإطلاع ما وراء الحجاب .

(٤) وإليه الإشارة في قول الإمام علي كرم الله وجهه ورضي عنه : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً .

(٥) إلا أن الأولى من أجلى البديهيات ، والثانية من أخفى النظريات .

(٦) وهذا يدل على تفاوت نفس الذات ، وضع الحنفية هذا وقالوا : هو تفاوت بأمور زائدة عليها ، وعليه ، روى قول أبي حنيفة أنه قال أقول إيماني كإيمان جبريل ، ولا أقول مثل إيمان جبريل لأن =

الإيمان ونقصانه حق ، وكيف لا وفي الأخبار أن يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان . وفي بعض المواضع في خبر آخر . « مثقال دينار » [1] فأي معنى لاختلاف مقاديره إن كان ما في القلب لا يتفاوت [2] ؟

مسألة :

فإن قلت . ما وجه قول السلف : أنا مؤمن إن شاء الله [3] . والإستثناء

= المثلية تقتضي المساواة في كل الصفات والتشبيه لا يقتضيه فلا أحد يسوي بين إيمان آحاد الناس وإيمان الملائكة والأنبياء يتفاوت بأمور زائدة وقالوا ما يظن من أن القطع يتفاوت قوة إنما هو راجع إلى جلائه وظهوره وإنكشافه ، فإذا ظهر القطع بحدوث العالم بعد ترتيب مقدماته المؤدية إليه كان الجزم الكائن فيه كالجزم في حكمنا الواحد نصف الإثنين ، وإنما تفاوتهما بإعتبار أنه إذا لوحظ هذا كان سرعة الجزم فيه ليس كالسرعة التي في الآخر وهو الواحد نصف الإثنين خصوصاً مع غيبة النظر عن ترتيب مقدمات حدوث العالم عن الذهن ، فيخيل أن الجزم بأن الواحد نصف الاثنين أقوى وليس كذلك ، إنما هو أجلى عند العقل فهم ومن وافقهم يمنعون ثبوت ماهية المشكك ويقولون أن الواقع على أشياء متفاوتة فيه يكون التفاوت عارضاً لها خارجاً عنها لا ماهية له ولا جزء ماهية لإمتناع إختلاف الماهية وإختلاف جزئها .

(١) مكان مثقال ذرة ، والحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد .

(٢) وقد جاء في صحيح البخاري : مثقال حبة من خردل ، وفي بعض الروايات : وزن برة ، وفي أخرى مقدار شعيرة ، فاختلفت المقادير ، وهو على التمثيل ليكون عياراً في المعرفة لا في الوزن حقيقة ، لأن الخير أو الإيمان ليس بجسم فيحصره الوزن والكيل لكن ما يشكل من المعقول قد يرد إلى عيار محسوس ليفهم ويشبه به ليعلم ، وفيه أقوال أخر ذكرها شراح الصحيح .

(٣) والمراد بالسلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، والشافعية والمالكية والحنابلة ، ومن المتكلمين الأشعرية والكلائية ، وهو قول سفيان الثوري ، وكان صاحبه محمد بن يوسف الفريابي مقيمًا بقسفلان فشهر ذلك في الشام عنه وأخذه عنه عثمان بن مرزوق ، فزاد أصحابه المشهورون اليوم بالمرازقة في الديار المصرية الإستثناء في كل شيء وهو بدعة وضلال أعني ما زاده وأما الأصل وهو أنا مؤمن إن شاء الله فهو صحيح .

شك[1] ، والشك في الإيمان كفر ، وقد كانوا يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه : فقال سفيان الثوري رحمه الله .

من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكاذبين .

ومن قال أنا مؤمن حقاً فهو بدعة ، فكيف يكون كاذباً وهو يعلم أنه مؤمن في نفسه .

ومن كان مؤمناً في نفسه كان مؤمناً عند الله ، كما أن من كان طويلاً وسخياً[2] في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله ، وكذا من مسروراً ، أو حزيناً ، أو سميعاً أو بصيراً[3] .

ولو قيل للإنسان . هل أنت حيوان لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله ، ولما قال سفيان ذلك قيل له : فماذا نقول ؟ قال :

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾[4] .

---

(١) لأن وضع الإستثناء في اللغة دخوله على المحتمل الذي يقال إنه الشك فيتبادر إلى الأذهان هذا الشك في أصل التصديق الواجب عليه .

(٢) وفي نسخة أخرى : طويلاً أو سخياً في نفسه .

(٣) أو موصوفاً بأي صفة كانت .

(٤) الآية (١٣٦) من سورة البقرة (٢) ، ونصها :

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وعن حماد بن زيد عن يحيى بن عتيق ، عن محمد بن سيرين :

إذا قيل لك أمؤمن أنت فقل آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق .

وأي فرق بين أن يقول ﴿ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾[1] وبين أن يقول أنا مؤمن ؟

وقيل للحسن [2] :

أمؤمن أنت ؟ فقال : إن شاء الله .

فقيل له : لم تستثني يا أبا سعيد في الإيمان ؟ فقال :

أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن فتحق علي الكلمة [3] ، وكان يقول ما يؤمنني أن يكون الله سبحانه قد أطلع علي في بعض ما يكره فمقتني وقال إذهب لا قبلت لك عملا فأنا أعمل [4] في غير معمل .

وقال إبراهيم بن أدهم [5] : إذا قيل لك أمؤمن أنت ؟ فقل لا إلـه إلا الله .

وقال مرة : قل أنا لا أشك في الإيمان وسؤالك إياي بدعة .

وقيل لعلقمة [6] : أمؤمن أنت ؟ قال : أرجو إن شاء الله .

وقال الثوري : نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما ندري ما

---

(١) آية (١٣٦) سورة البقرة (٢) .

(٢) الحسن بن سعيد البصري سيد التابعين .

(٣) وفي نسخة أخرى : خاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه : كذبت فتحق على الكلمة .

(٤) والمقت أشد الغضب ، والعمل موضع العمل .

(٥) هو إبراهيم بن يزيد النخعي فقيه الكوفة ، وليس بإبن أدهم كما ظنه من لا خبرة له بمراجعة الأصول . قاله الزبدي انظر إتحاف السادة المتقين جـ ٢ ص ٢٦٤

(٦) بن قيس فقيه الكوفة .

نحن عند الله تعالى[1] ، فما معنى هذه الإستثناءات ؟

فالجواب أن هذا الإستثناء صحيح وله أربعة أوجه : وجهان مستندان إلى الشك لا في أصل الإيمان[2] ولكن في خاتمته[3] أو كماله ، ووجهان لا يستندان إلى الشك .

الوجه الأول الذي لا يستند إلى معارضة الشك : الإحتراز من الجزم خيفة ما فيه من تزكية النفس[4] ، قال الله تعالى :

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾[5] .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾[7] .

---

(١) عن سلمة بن كهيل عن إبراهيم عن علقمة قال : قال رجل عند إبن مسعود : إني مؤمن قال قل إني في الجنة ولكن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .
ومن طريق معاوية عن أبي إسحاق قال : سألت الأوزاعي قلت : أترى أن يشهد الرجل على نفسه أنه مؤمن قال : ومن يقول هذا قلت : كيف يقول قال يقول : أرجو ولكنهم المسلمون ولكن ما ندري ما يصنع الله بهم .

(٢) أي للشك في ثبوت التصديق الجازم في القلب بحال الكمل وإلا لكان الإيمان منفياً لأن الشك في ثبوته في الحال كفر .

(٣) يعني في إبقائه إلى الوفاة عليه .

(٤) لا على وجه الشك والإرتياب في اليقين ، ولا معنى الشك في التصديق ، فمن قال أنا مؤمن حقاً فقد زكى نفسه وعصى ربه عز وجل لأنه قال عز وجل : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ .... ﴾ .

(٥) الآية (٣٢) من سورة النجم (٥٣) وتمامها : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ .
فقد نهى فيه عن تزكية النفس وعرض المزكي نفسه لكذب .

(٦) الآية (٤٩) من سورة النساء (٤) .

(٧) الآية (٥٠) من سورة النساء (٤) .

وقيل لحكيم . ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء [1] على نفسه .

والإيمان من أعلى صفات المجد ، والجزم به تزكية مطلقة ، وصيغة الإستثناء كأنها نقل من عرف التزكية [2] كما يقال للإنسان أنت طبيب او فقيه او مفسر [3] ؟ فيقول نعم إن شاء الله ، تفي معرض التشكيك [4] ، ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه . فالصيغة صيغة الترديد [5] والتضعيف لنفس الخبر ، ومعناه التضعيف للازم من لوازم الخبر وهو التزكية وبهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الإستثناء [6] .

الوجه الثاني [7] التأديب بذكر الله تعالى في كل حال ، وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه [8] ، فقد أدب الله سبحانه نبيه ﷺ فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّا أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [9] . ثم لم

- فقد أشار الله تعالى إلى أن المزكي نفسه يعرضها للكذب فأشار بالآية الأولى إلى التزكية وبالثانية إلى ما يعرض من التزكية .

(1) وفي بعض النسخ : ثناء الإنسان على نفسه .

(2) هكذا في النسخ وهو المعتمد .

(3) أو محدث ، أو صوفي ، أو غير ذلك من هذا الضرب .

(4) بالشدة والضعف بأن يكرر بعض ما ذكر أكثر وأشد من بعض .

(5) إذ موضوع أن في اللغة دخولها على المحتمل الذي هو الشك في قول وهو يلزم منه .

(6) وحاصل هذا الوجه أن الأستثناء يراد به التبري عن تزكية النفس ، ولاعجاب بالحال وقد دفعه الحنفية بأن الأولى تركه لما أنه يوهم الشك على ذكره شارح العقائد ، وحكموا ببطلان هذا القول وقالوا ذلك لا يصح كما لا يصح قول القائل : أنا حي إن شاء الله ، وأنا رجل إن شاء الله .

(7) في جواز الإستثناء المخرج على غير وجه الشك ، وهو التبرك .

(8) الكون هذه الجملة مشتملة على ذكر إسم الذات ، فهو تعالى ما شاء فعل ولا يسئل عما يفعل .

(9) الآية (٢٣ ـ ٢٤) من سورة الكهف (١٨) .

يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه ، بل قال [1] تعالى :

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾[2] .

وكان الله سبحانه عالماً بأنهم يدخلون لا محالة ، وإنه شاءه ، ولكن المقصود تعليمه ذلك ، فتأدب رسول الله ﷺ في كل ما كان يخبر عنه معلوماً كان أو مشكوكاً ، حتى قال ﷺ لما دخل المقابر [3] .

«السلام عليكم دار قوم مؤمنين و إنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون»[4] .

واللحوق بهم غير مشكوك فيه ، ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى [5] ، وربط الأمور به ، وهذه الصيغة دالة [6] عليه حتى صار يعرف الإستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتمني ، فإذا قيل لك : إن فلاناً يموت سريعاً ، فنقول : إن شاء الله ، فيفهم منه رغبتك لا تشكك . وإذا قيل لك : فلان سيزول مرضه ويصح فتقول : إن شاء الله ، بمعنى الرغبة ، فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة ، وكذلك العدول إلى معنى

---

(١) وهو أصدق القائلين ، معلمًا لعباده الإستثناء .

(٢) الآية (٢٧) من سورة الفتح (٤٨) .

(٣) يعني لما دخل مقبرة المدينة ، وإنما جمعها بإعتبار ما حولها .

(٤) أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة ، ورواه أيضاً : عائشة ، وأنس وبريدة بن الحصيب رضي الله تعالى عنهم .

وأخرجه الإمام مسلم أيضاً من طريق شريك بن عبد الله بن أبي نمير عن عطاء بن يسار عنها بلفظ أن النبي ﷺ كان يخرج إلى البقيع فيقول : **« السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأنا وإياكم غداً موجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم إغفر لأهل بقيع الفرقد »** .

(٥) على كل حال خصوصاً عند رؤية المقابر والتفكر في أحوال الموتى والموت فإنه آكد .

(٦) أى على التبرك والتأدب لكنه كله مستقبل وربط المستقبل بالشرط لا يستنكر .

التأدب لذكر الله تعالى كيف كان [١] الأمر .

الوجه الثالث :

مستنده الشك ، ومعناه : أنا مؤمن حقاً إن شاء الله [٢] إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأعيانهم : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [٣] . فانقسموا إلى قسمين [٤] ، ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان لا في أصله ، وكل إنسان شاك في كمال إيمانه ، وذلك ليس بكفر [٥] ، والشك في كمال الإيمان حق من وجهين :

---

(١) وحاصل هذا الوجه إنهم خرجوا إن شاء الله ههنا إلى معنى آخر غير الشك وهو التبرك والتأدب وإستدل عليه بالآيتين ، وحديث المقابر ومن أحسن ما يستشهد به هنا ما أخرجه البخاري عن أبي اليمان عن شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قال : قال سليمان عليه السلام لأطوفن الليلة على تسعين إمرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، قال له صاحبه : إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعاً ، فلم تحمل منهن إلا إمرأة واحدة جاءت بشق رجل والذي نفس محمد بيده ، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون .

(٢) وهذا وقد أشار إليه أبو منصور البغدادي في الأسماء والصفات فقال بعد أن نقل مذهب الأشعري ما نصه : وقد إعتبر بعض أصحاب الحديث فيه تفصيلاً حسناً قال في وصف الإيمان إيماني حق بلا إستثناء وإذا وصف نفسه فقال : أنا مؤمن إن شاء الله وإعتبر بعضهم فيه تفصيلاً أحسن منه ، فقال ما الفرق بين مؤمن بالله ومؤمن عند الله ، فقال أنا مؤمن بالله حقاً ، من غير إستثناء والحق الإستثناء بالمؤمن عند الله فقال أنا مؤمن عند الله إن شاء الله ، لأن المؤمن عند الله هو الذي وعده الله سبحانه الجنة والثواب .

(٣) الآية (٤) من سورة الأنفال (٨) .

وقد وصفهم الله تعالى في هذه الآية بالكمال ومدحهم بخالص الأعمال ، ففيه دليل خطابه أن هناك مؤمنين غير حق .

(٤) قسم يطلق عليهم أنهم مؤمنون حقاً ، وقسم لا يطلق عليهم ذلك .

(٥) كما زعموا أن الشك في الإيمان كفر ، وإنما الموسوم بالكفر هو الشك في أصله وثبوته للحال بالإتفاق .

أحدهما من حيث أن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفي لا تتحقق البراءة منه .

والثاني أنه يكمل بأعمال الطاعات[١] ولا يدري وجودها على الكمال[٢]. أما العمل فقد قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ ﴾[٣] .

فيكون الشك في هذا الصدق[٤] .

وكذلك قال الله تعالى :

﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَٱلْمَلائِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّينَ ﴾[٥] .

فشرط عشرين وصفا : كالوفاء بالعهد ، والصبر على الشدائد ، ثم قال تعالى ﴿ أُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾[٦] وقد قال تعالى :

---

(١) وهذا إذا جعلت الأعمال داخله في مسمى الإيمان .

(٢) يعني أن المؤمن غير جازم بكمال الأعمال عنده وبهذا يشعر كلام كثير من السلف ، وأنهم إنما أثبتوا لذلك وفيه بحث .

(٣) الآية (١٥) من سورة الحجرات (٤٩) .

(٤) الذي وصفوا به لا في أصل الإيمان .

(٥) الآية (١٧٧) من سورة البقرة (٢) .

(٦) وتمامها : ﴿ وأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ فعند ذلك شهد لهم بالصدق والتقوى، وهذه الآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها دالة عليها صريحاً أو ضمناً، فإنها مع كثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء :

صحة الإعتقاد، وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس .

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾[2] .

وقد قال تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[3] .

وقال ﷺ : « **الإيمان عريان ولباسه التقوى** »[4] الحديث .

وقال ﷺ : « **الإيمان بضع وسبعون باباً أدناها إماطة الأذى عن الطريق** »[5] .

= وقد أشير إلى الأول بقوله : من آمن إلى قوله : والنبيين .

وإلى الثاني : أشار بقوله : وآتى المال إلى قوله وفي الرقاب .

وإلى الثالث : بقوله : وأقام الصلاة إلى آخرها .

ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه وإعتقاده، وبالتقوى إعتباراً بمباشرته للخلوة معاملة مع الحق .

(١) الآية (١١) من سورة المجادلة (٥٨) .

(٢) الآية (١٠) من سورة الحديد (٥٧) ، وتمامها :

﴿ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ ، وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

يعني الجنة على تفاوت الدرجات فيها ، فجمع بينهم في الدار ، كما جمع بينهم في إسم الإيمان، ورفعهم في الدرجات علواً في المقامات .

(٣) الآية (١٦٣) من سورة آل عمران (٣) .

(٤) الحديث إلى آخره وهو قوله: وزينته الحياء ، وحليته الورع ، وثمرته العلم . وقد سبق تخريجه . وفي الحديث معنى أن من لا تقوى له فلا لبس لايمانه ، ومن لا ورع له فلا زينة لايمانه ومن لا علم له فلا ثمرة لإيمانه فإن اتفق فاسق جاهل ظالم كان بالمنافقين أشبه منه بالمؤمنين ، وكان إيمانه على النفاق أقرب ويقينه الى الشك أميل ، ولم يخرجه من إسم الإيمان إلا أن ايمانه عريان لا ليس له معطل لا كسب له كما قال : أو كسبت في إيمانها خيراً ،

والنفاق مقامات ، وقد قيل سبعون بابا والشرك مثل ذلك وهم فيه طبقات .

(٥) تقدم تخريجه قريباً ، والإختلاف في قول البخاري ومسلم في الشك ، فلفظ مسلم : « فأفضلها قول لا إلـه إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » =

فهذا ما يدل على إرتباط كمال الإيمان بالأعمال .

وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفي فقوله : ﷺ: « **أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن** » .

« **من إذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر** »[1] .

وفي بعض الروايات « **وإذا عاهد غدر** »[2] .

وفي حديث ابي سعيد الخدري .

القلوب أربعة : قلب أجرد وفيه سراج يزهر[3] ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء العذب[4] ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد ، فأي المادتين غلب عليه حكم له بها» .

وفي لفظ آخر (غلبت عليه ذهبت به[5]

- وقد تعددت روايات هذا الحديث في صحيح البخاري وصحيح مسلم انظر كتاب الإيمان، وكتاب الجزية من شرح صحيح البخاري .

(١) هذا الحديث متفق على صحته من حديث عبد الله بن عمرو .

(٢) فصارت خمساً، فإن كانت فيه واحدة منهن فقيه شعبة من النفاق حتى يدعها

(٣) والاجرد هو المجرد عن الظلمات ، ويزهر أي يضيء وليس الواو قا فيه .

(٤) وهو الكثير ولا يحتاج إليه كما لا يخفى .

(٥) وفي لفظ آخر : أيما غلب عليه ذهب ، والحديث أخرجه الإمام أحمد من حديث ابي سعيد وفيه ليث بن ابي سليم مختلف فيه .

وأخرج أبو نعيم في الحلية بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال :

القلوب أربعة : قلب أغلق فذلك قلب الكافر ، وقلب مصفح فذلك قلب المنافق ، وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب فيه نفاق وإيمان فمثل الإيمان كشجرة يمدها ماء طيب ، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدها قيح ودم ، فأيهما غلب عليه غلب » اهـ .

وقال عليه السلام :

« أكثر منافقي هذه الأُمة قراؤ ها »[1] .

وفي حديث : « الشرك اخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا »[2] .

وقال حذيفه رضي الله عنه .

وكان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺيصير بها منافقاً إلى أن يموت ، وإني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات[3] .

وقال بعض العلماء : أقرب الناس من النفاق من يرى أنه بريء من النفاق .

وقال حذيفة : « المنافقون اليوم اكثر منهم على عهد النبي ﷺفكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه[4] » وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله[5] ، وهو

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهية .

(٢) أخرجه ابو يعلى وابن عدي ، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابي بكر ، ولأحمد والطبراني نحوه من حديث ابي موسى .

(٣) أخرجه الإمام أحمد بإسناد فيه جهالة .

وقال ابو نعيم في الحلية حدثنا ابو بكير بسنده قال حدثنا أبو الرقاد وقال :

خرجت مع مولاي وأنا غلام فدفعت إلى حذيفة وهو يقول : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺفيصير بها منافقا وإني لاسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات : لتأمرون بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتحضن على الخير أو ليسحسنكم الله بعذاب ، أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لكم .

(٤) أخرجه البخاري إلا أنه قال فيه : شر بدل أكثر .

وأخرجه ابو داود الطيالسي ، ومن طريقة أبي نعيم في الحلية عن شعبة عن الأعمش عن أبي وائل قال قال حذيفة : المنافقون اليوم شرفهم على عهد رسول الله ﷺ، كانوا يومئذ يكتمونه وهم الآن يظهرونه .

(٥) أراد به النفاق العملي فإنه الذي يطفىء نور الإيمان وكماله لا أصله .

خفي وأبعد الناس منه من يتخوفه ، وأقربهم منه من يرى أنه برىء

فقد قيل للحسن البصري : يقولون إن الإنفاق اليوم ، فقال : يا أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق[1] . وقال هو أو غيره : لو نبت للمنافقين أذناب ما قدرنا[2] أن نطأ على الارض بأقدامنا .

وسمع ابن عمر رضي الله عنه رجلاً يتعرض للحجاج فقال :

(أرأيت لو كان حاضرا يسمع اكنت تتكلم فيه ؟ فقال : لا ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ)[3] .

وقال ﷺ : « **من كان ذا لسانين في الدنيا جعله الله ذا لسانين في الآخرة** »[4] .

وقال ايضاً : ﷺ : « **شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه** »[5] .

---

(١) وفي نسخة أخرى : فقال : لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق .

(٢) وأراد بقوله : ما قدرنا : أي لكثرتهم .

(٣) أخرجه الإمام أحمد والطبراني بنحوه وليس فيه الحجاج .

ووجدت بخط من وجد بخط الحافظ بن حجر ما نصه : هو في الغيلانيات من رواية يحيى البكاء عن ابن عمر وفيه ذكر الحجاج .

(٤) وهو من تتمة كلام ابن عمر وليس حديثاً مستقلاً كما هو ظاهر من سياق القوت حيث قال بعد قوله كنا نعد هذا إنفاقاً في عهد رسول الله ﷺمن كان ذا لسانين في الدنيا كان له في الآخرة لسان من نار ، ثم قال بعد ذلك : وفي الخبر شر الناس ذو الوجهين . . . الحديث فدل ذلك أن الذي قبله من كلام ابن عمر لا من كلام رسول الله ﷺفتأمل .

(٥) لم يتعرض لهذا الحديث الحافظ العراقي في كتابه المغني، وهو في المتفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ : تجدون من شر الناس ذو الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه كذا في المقاصد للسخاوي .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن سعد بلفظ ذو الوجهين في الدنيا : يأتي يوم القيامة وله وجهان من نار .

وقيل للحسن : أن قوماً يقولون إنا لا نخاف النفاق ، فقال : والله لأن اكون أعلم إني بريء من النفاق أحب إلي من طلاع[1] الأرض ذهبا .

وقال الحسن : إن من النفاق إختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج[2] .

وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه : إني أخاف أن أكون منافقاً ، فقال لو كنت منافقاً ما خفت النفاق ، إن المنافق قد أمن من النفاق .

وقال ابن ابي مليكة[3] : « ادركت ثلاثين ومائة » .

وفي رواية . «خمسين ومائة[4] من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخافون النفاق »[5] .

---

(١) طلاع الأرض بالكسر ملؤها .

(٢) وهو يشير إلى النفاق العملي الذي يطفىء نور الإيمان ، وإلى هذا أشار حذيفة رضي الله عنه فيما أخرجه ابو نعيم في الحلية من طريق الأعمش وسفيان عن ثابت بن هرمز عن ابي يحيى ، قال قيل لحذيفة : من المنافق ؟ قال الذي يصف الإسلام ولا يعمل به .

(٣) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليك القرش التميمي المكي الأحول المؤذن القاضي لابن الزبير المتوفى سنة ١١٧هـ .

(٤) هكذا في القوت : أو خمسمائة ، ويوجد في بعض النسخ خمسين ومائة ، والذي في صحيح البخاري ، أدركت ثلاثين ، قال القسطلاني : أجلهم عائشة وأختها أسماء وأم سلمة والعباد له الأربعة، وعقب بن الحارث والمسور بن مخرمة رضي الله عنهم .

(٥) وفي نسخة أخرى : كلهم يخافون النفاق على نفسه .

وهكذا هو في صحيح البخاري ، وهو النفاق في الأعمال ، لأنه قد يعرض للمؤمن في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص ولا يلزم من خوفهم ذلك وقوعه منهم ، وإنما ذلك على سبيل المبالغة فهم من الورع والتقي ، أو قالوا ذلك لكون أعمالهم طالت حتى رأوا من التغيير ما لم يعهدوه مع عجزهم عن إنكاره ، فخافوا أن يكونوا داهنوا بالسكوت .

هكذا أورده البخاري في الصحيح معلقاً .

وروي أن رسول الله ﷺ.

كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً واكثروا الثناء عليه فبيناهم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود[١] فقالوا : يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه فقال ﷺ: أرى على وجهه سفعة من الشيطان ، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم ، فقال النبي ﷺ : **« نشدتك الله[٢] ، هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك ؟ فقال : اللهم نعم »**[٣] .

وقال ﷺ في دعائه :

« اللهم اني استغفرك لما علمت ولما لم اعلم ، فقيل له : اتخاف يا رسول الله ؟ فقال : وما يؤمنني والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء[٤] ، وقد قال سبحانه :

﴿ وبَدَا لَهُمْ مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾[٥] .

---

(١) وهو المسمى على ألسنة الناس : زبيبة الصلاح .

(٢) يعني أقسمت عليك بالله عز وجل .

(٣) أخرجه احمد والبزار والدارقطني من حديث أنس .

وفيه صدق ما تفرس به النبي ﷺ في الرجل المذكور وبيان لمعجزاته حيث أخبر عن شيء لم يصل إليه علم القوم ، فأطلع الله حبيبه ﷺ على أحواله وإن باطنه مخالف لظاهره فإنه قد خطر في ضميره أنه أفضل القوم ، وهذا فيه خطر عظيم .

(٤) أخرجه الإمام مسلم من حديث عائشة بنحوه .

وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه في سننهم عن عائشة رضي الله عنها وله طرق متعددة وروايات مختلفة الألفاظ .

(٥) الآية (٤٧) من سورة الزمر (٣٩) .

قيل في التفسير : عملوا أعمالا ظنوا أنها حسنات فكانت في كفة السيئات[1] .

وقال سري السقطي[2] : لو أن إنساناً دخل بستاناً فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخاطبه كل طير منها بلغة فقال : السلام عليك يا ولي الله[3] ، فسكنت نفسه إلى ذلك ، كان أسير في يديها[4] .

فهذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي وأنه لا يؤمن منه[5] ، حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه[6] ، يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في المنافقين[7] ؟ .

وقال أبو سليمان الداراني : سمعت من بعض الأمراء شيئا فأردت أن أنكره فخفت ان يؤمر بقتلي ولم أخف من الموت ، ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحي فكففت ، وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه[8] لا أصله .

---

(١) وفي نسخة أخرى : فلما كان عند الحساب والميزان وجدوها سيآت والكفة بكسر الكاف وفتحها .

(٢) بالتحريك : نسبة إلى بيع سقط المتاع ، وهو من كبار العارفين ، خال ابي القاسم الجنيد ، توفي سنة ٢٥١ هـ أخذ عن معروف الكرخي ، وعنه ابن أخته الجنيد .

(٣) بأن عرفه الله سبحانه وتعالى لغاتهم على إختلافها .

(٤) موثقاً لديها ، وذلك لأن الوقوف عند النعمة حجاب وسكون النفس إلى شيء يدل على نقص في المقام عند الأعلام .

(٥) يعني لا سبيل إلى الأمن منه والحفظ عنه .

(٦) مع جلالة قدرة وشهرة فضله وأنه أحد المشهود لهم بالجنة .

(٧) وذلك لان حذيفة كان اختصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين .

(٨) ويطفيء نوره ويحرم مزيده ويحبط الأعمال ، ويوجب المقت والأعراض، وهو الرياء والمداهنة والصنع للخلق .

فالنفاق نفاقان :

أحدهما يخرج من الدين ، ويلحق بالكافرين ، ويسلك في زمرة المخلدين في النار[١] .

والثاني : يفضى[٢] بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبه الصديقين[٣] ، وذلك مشكوك فيه ، ولذلك حسن الإستثناء فيه .

وأصل هذا النفاق[٤] تفاوت بين السر والعلانية ، والإامن من مكر الله والعجب ، وأمور أخر لا يخلو عنها إلا الصديقون[٥] .

الوجه الرابع :

وهو أيضاً مستند إلى الشك ، وذلك من خوف الخاتمة[٦] ، فإنه لا يدري أيسلم له الايمان عند الموت أم لا ، فإن ختم له بالكفر حبط عمله السابق[٧] ، لأنه موقوف على

---

(١) وهو الشك في دين الله عز وجل والرد لشرع رسول الله ﷺ .

(٢) وفي بعض النسخ : أو ينقص .

(٣) وهو إختلاف القلوب وإئتلاف الألسن ومخالفة ما ينهى عنه ، وزيادة الظواهر على السرائر ؛ وكان سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه :
المرائي حقا هو الذي يحسن ظاهره حتى لا تنكر العامة عليه ولا العلماء من ظاهره شيئاً وباطنه خراب .

(٤) من النفق محركة سرب في الأرض يكون له مخرج من موضع آخر ، ونافق اليربوع إذا أتى النافقاء ، ومنه قيل : نافق الرجل إذا أظهر الإسلام لأهله واضمر غير الإسلام وأتاه مع أهله أيضاً فقد خرج منه بذلك ثم استعمل في معنى .

(٥) ومن شاء الله تعالى من أرباب الكمال من الواصلين حشرنا الله من زمرتهم بمنه وكرمه .

(٦) وذلك الشك في حقيقة الإيمان وإنما ذلك من خوف الخاتمة ، التي يختم عليها العبد .

(٧) يقال حبط العمل من باب تعب حبوط فسد وهدر ، ومن باب ضرب لغة فيه كما في المصباح وأراد به حبوط أصل الإيمان .

سلامة الآخر ، ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال أنا صائم **قطعاً** ، فلو أفطر في أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه ، إذ كانت الصحة موقوفه على التمام إلى غروب الشمس من آخر النهار ، وكما أن النهار[١] ميقات تمام الصوم ، فالعمر[٢] ميقات تمام صحة الإيمان ، ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الإستصحاب[٣] ، وهو مشكوك فيه ، والعاقبة مخوفة ، ولأجـلها كان بكاء اكثر الخائفين[٤] ، لأجل أيها ثمرة القضية السابقة والمشيئة الأزلية[٥] التي لا تظهر المقضى به ، ولا مطلع عليه لأحد من البشر[٦] ، فخوف الخاتمة كخوف السابقة . وربما يظهر في الحال ما سبقت الكلمة بنقيضه ، فمن الذي يدري انه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى[٧] ؟

وقيل في معنى قوله تعالى : ﴿ **وَجَآءَت سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ** ﴾[٨] اي بالسابقة يعني أظهرتها .

وقال بعض السلف : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها ، وكان أبو الدرداء[٩]

---

(١) وهو من طلوع الشمس إلى غروبها واليوم من لدن طلوع الفجر إلى غروب الشفق ، وقد يطلق أحدهما على الآخر توسعاً .

(٢) وهو بقاء الإنسان من لدن ولادته إلى موته .

(٣) يعني التمسك بما كان سابقاً إبقاء عما كان على ما كان .

(٤) لله تعالى كما يعرف من سير طبقات المشايخ وأحوال الأولياء .

(٥) وهي العناية السابقة لإيجاد المعدوم أو إعدام الموجود .

(٦) وفي نسخة أخرى : التي لا تظهر إلا بظهور المقضى به ولا يطلع عليه بشر .

(٧) وفي نسخة أخرى : من الذي سبقت له ، والأولى موافق للآية في الجملة :
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ .
والحسنى تأنيث الأحسن ، فسرت بالجنة ، فظهر أن المعتبر هو إيمان الموافاة الواصل إلى آخر الحياة .

(٨) الآية (١٩) من سورة ق (٥٠) .

(٩) هو أبو الدرداء عويمر بن عامر الأنصاري رضي الله عنه .

ضضي الله عنه يحلف بالله ما من أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه .

وقيل : من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله[١] ، من ذلك وقيل : هي عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالإفتراء[٢] .

وقال بعض العارفين : لو عرضت على الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد عند باب الحجرة ، لاخترعت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأني لا أدري ما يعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار .

وقال بعضهم : لو عرفت واحداً بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بيني وبينه سارية ومات ، لم أحكم أنه مات على التوحيد[٣] .

وفي الحديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ، ومن قال أنا عالم فهو جاهل[٤]»وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾[٥] صدقاً لمن مات على الإيمان ، وعدلاً لمن مات على الشرك . وقد قال تعالى : ﴿ وَلِلّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[٦] .

---

(١) وهذا أخوف ما خاف العاملون مع قوله عز وجل : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ .

وقيل : من الذنوب ذنوب تؤخر عقوبتها الى وقت الخاتمة لا عقوبة للدعوى للولاية والكرامات .

(٢) على الله عز وجل ، يقول الشيخ جعفر العلوي رضي الله عنه :

« الدعوى فضيحة ، ولو كانت صحيحة » .

يشير إلى دعوى الولاية ، ودعوى الكرامة ، يعني ولو أثبت ما أراد إثباته بإظهار شيء من خوارق العادات فإنه غير معتبر عند أهل الكمال ، هذا إذا كان صحيحاً في نفس الأمر ، فأما إذا كان بالإفتراء والإختلاق فهو أشبه بالسحر والتخريم وهذا يورث سوء الخاتمة كما صرح به العلماء .

(٣) وذلك لعلمي بسرعة تقلب القلوب .

(٤) الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط ، الشطر الأخير منه من حديث ابن عمر ، وفيه ليث بن أبي سليم ، والشطر الأول روى من قول يحيى بن أبي كثير ، رواه الطبراني في الصغير .

(٥) الآية (١١٥) من سورة الأنعام (٦) .

(٦) الآية (٤١) من سورة الحج (٢٢) .

فهما كان الشك بهذه المثابة كان الإستثناء واجباً لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة . كما أن الصوم عبارة عما يبرىء الذمة ، وما فسد قبل الغروب لا يبرىء الذمة ، فيخرج عن كونه صوماً ، فكذلك الإيمان[1] ، بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضي الذي لا يشك[2] فيه بعد الفراغ منه ، فيقال . أصمت بالأمس ؟ فيقول : نعم إن شاء الله تعالى . إذ الصوم الحقيقي هو المقبول ، والمقبول غائب عنه لا يطلع عليه إلا [3] الله تعالى . فمن هذا حسن الإستثناء في جميع أعمال البر ، ويكون ذلك شكاً في القبول[4]، إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفية لا يطلع عليها إلا رب الأرباب جل جلاله ، فيحسن الشك فيه .

فهذه وجوه حسن الإستثناء في الجواب عن الإيمان[5] ، وهي آخر ما تختم به كتاب قواعد العقائد .

تم الكتاب بحمد الله تعالى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى

---

(١) إذا انتقص قبل الوفاة خرج عن كونه إيماناً .

(٢) وفي نسخة أخرى : عن الصوم الماضي لا شك فيه .

(٣) لأنه من أمور الآخرة ولكن يظهر في بعض الأحيان بالإمارات الدالة عليه .

(٤) وفي تقييد الأعمال بالبررة على الطائفة المشهورة بالمرازمة بالديار المصرية وغيرهم ممن غلوا غاية الغلو وتجاوزوا عن الحدود حتى صار الرجل منهم يستثنى في كل شيء فيقول أحدهم هذا ثوب إن شاء الله ، هذا جبل إن شاء الله فإذا قيل لهم هذا لا شك فيه يقولون لكن إذا شاء الله أن يغيره .

(٥) وحاصل ما في الوجه الأخير أن الإيمان الذي يتعقبه الكفر فيموت صاحبه كافراً ليس بإيمان كالصلاة التي أفسدها قبل الكمال والصيام الذي يقطر صاحبه قبل الغروب وهذا مأخذ كثير من أهل الكلام من أهل السنة وغيرهم .

والحمد لله بدءاً وختماً والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمدذاتاً ووصفاً واسماً وعلى آله وصحبه وسلك طريقه واتبع هديه . ؟